سدَنَةُ الاغتراب

غـادة اليـوسـف

سدَنَةُ الاغتراب

رسـائل متبادلـة

يوسف سامي اليوسف – غادة اليوسف

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٦م

الإهداء

إليك،

إلى ضرام روحك،

وأنت سيّد الاغترابات كلّها:

اغتراب الروح، في مكانٍ وزمانٍ

لم تره يوماً إلا غريباً

إلى روحك السامية يا أبا الوليد،

غادة اليوسف

كلمــة

يـا غربـةَ الـروحِ في دنيـا مـن الحجـرِ،
والـثلجِ والقـارِ، والفـولاذِ والـضجرِ يـا غربـةَ
الروحِ، لا شمسٌ فأئتلقُ فيها ولا أفقُ مسدودةٌ
كلّ آفاقي بأبنيـةٍ سودٍ، وكانـت سمـائي يلـهثُ
البصرُ في شطّها مثل طيرٍ هدّه السفرُ

بدر شاكر السياب

مسّدتُ برفقٍ آخر رسالة كتبها بخط يده المرتعشة، وقد رافقني صوته بكل حيويته طوال المدة التي استغرقها ترحيل الرسائل من الورق إلى الطابعة، وحين انتهيت من آخر نقطة فيها رأيتني أمسّد على رأسه المتعب، وأُسبِلُ عينيه ليغفو بسلامٍ افتقَدَه منذ أن شُرِّد طفلاً حتى آخر يوم في حياته، وكذلك لأغفو أنـا بسلام وقد أدّيتُ الأمانة ونفّذتُ وصيته، والوصية أمانة.

مسّدتُ الرسالة الأخيرة، وطويتُها، وأودعتُها مع سابقاتها حيث أودعُ كنوز أوراقي النفيسة، وقد استوطن لبابُها حيث يليق به في وجداني. وأيقنت ساعتئذٍ بأنه رحل عن عالمٍ كان فيه غريباً. فهل تراه ينبعث في هذه الرسائل؟ أم أن حياة المبدع تنتهي برحيله الجسدي؟ لا... لا أعتقد.

بعد أن نشرت أول كتابين: الأول وهو كتاب «رفرفات» ٢٠٠٥، والثاني وهو مجموعة قصصية بعنوان «في العالم السفلي» ٢٠٠٦، وصارا بين أيدي القراء، أدباء ونقاد، وقد حازا على قبول جيد لدى الجميع، إلا أنني وبرغم

ذلك بقيت أبحث عن مرآة صافية تريني صورتي الحقيقية، فنبشتْه الذاكرة من عمقها، وهو الذي يقول ما يراه بكل صدق، بلا مَلَق، ولا مداهنة، ولا يخشى في قول ما يراه حقاً لومةَ لائم، وذلك بعد انسفاح أكثر من عشرين عاماً على آخر مرة رأيته فيها، حصلت على رقم هاتف بيته، وهاتفتُهُ، وسمعت صوته وكأن الزمن لم يمر عليه، عرفني، وتسربتْ مسرّتُه إليّ، أخبرته بأنني أصدرت كتابين، وأرغب في معرفة رأيه فيما كتبت. كم كان ودوداً، ومبتهجاً حين أبدى استعداده لذلك، وأخبرني بأنه أصدر الجزء الأول من سيرته الذاتية من رباعية «تلك الأيام»، وأنه سوف يرسله لي لقراءته وإبداء رأيي به في رسالة تُدشّنُ هذه المراسلات، وقد أوصاني أن أحتفظ برسائله، وأن أصوّر ما أرسله إليه من رسائل وأحتفظ بالصورة، وحين سألته عن السبب أبدى رغبته في أن أجمع هذه الرسائل ذات يوم في كتاب، كي لا يغيّبها غبارُ الإهمال، تلك الرسائل التي ابتدأت بتاريخ١٥/٦/٢٠٠٦ وانقطعت بتاريخ التاسع من نيسان٢٠١١، بعد أن اضمحلت في السنة الأخيرة تلك، بسبب ما ألمّ بسوريا من فاجعة هذه الحرب الكارثية التي عصفت بالأمن والسلام، وأدخلت السوري وبضمنه السوري الفلسطيني في أتونها قتلاً وتدميراً وتهجيراً وتشريداً. ومخيم اليرموك، وما أدراك ما مخيم اليرموك!! وما الذي حل بمخيم اليرموك، عاصمة الشتات، وقد تشتتَ في كل صوب، وأنا في حمص، وما أدراك ما حمص، وقد تشظت في كل أنحاء الفجيعة في لحظة هاربة من العقل وهي تحمل الجحيم، فدخلتْ المدينة، وكل مدينة في دوامة الدم حتى غرقتْ، وأغرقتْ كل شيء. وكأننا في مشهد من مشاهد يوم القيامة، حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت، فنسيت ما هو أهم من الرسائل التي تداخلت، وتشعّثتْ كما تداخلت الأشياء والقيم والمصائر وكل شيء في فوضى يعجز العقل عن تنظيمها. ذهلتُ عن كل شيء، وصار هاجس سوريا وبقاؤها هو الهمّ الوحيد الأوحد.

كانت نعوات الشهداء وأخبار الموت تتداح على جدران سوريا، وعلى جدران التواصل الاجتماعي (الفيسبوك)، إلى أن رأيت نعوة بجانب صورته على تلك الصفحات:

(رحل الأستاذ يوسف سامي اليوسف مهجّراً عن مخيّمه) ٢٠١٣

وخزة في الروح، وغصّة في الوجدان، وأنا أرى إلى عينيه الحزينتين تقولان ما قاله دائماً:

«كل شيء أخلّ بواجبه تجاه روحي» وتسألاني: ماذا فعلت بالرسائل يا غادة؟ هل رميتِها !؟

هرعت إلى أدراجي وما عصف فيها من فوضى اللحظة المجنونة، ورحت أقرؤها.. وقد تداخلت تواريخها، وفقدتُ بعضاً منها في تلك الفوضى التي فقدنا فيها الكثير الكثير، رتبتها بتسلسلها الزمني، وكنت الوفية لأداء الأمانة، وها أنا ذي وقد رحّلتها عن الورق إلى هذه الصفحات بكل أمانة، إلا في موضع عابر وهو اسم إحدى السيدات التي ورد ذكرها في بعض الرسائل ولم تسعفني الظروف لأتواصل معها وأسألها إن كانت ترغب في ذكر اسمها كاملاً، فعمدتُ إلى الإشارة إليها بكتابة الحرف الأول من اسمها وكنيتها (ن.ي) مراعاة للحقوق واللياقة.

لماذا تُجمع هذه الرسائل في كتاب؟ وما قيمة هذه الرسائل المتبادلة بين من التقيا منذ سنين لمرّاتٍ قليلة، ثم نأى بهما المكان والزمان، امرأة سورية تقيم في حمص ورجل فلسطيني كان يقيم في دمشق، وقد رحل تاركاً خلفه آثاره النفيسة في الفكر والأدب والفن والفلسفة والنقد الأدبي ؟![*]

سأترك الجواب لما تكتنزه هذه الرسائل بين سطورها من قيمة فكرية وأدبية، ورؤى تعبّر بكل صدق وشفافية عمّا كان يمور ويضطرم في وجدان يوسف سامي اليوسف في سنوات عمره الأخيرة وهو يكابد اعتلال الجسد،

(*) سأورد في آخر هذا الكتاب أسماء بعض من مؤلفاته التي أغنى بها المكتبة العربية.

وغربة الروح وعزلة الناس، وجحود الجاحدين، والحنين الذي ما فارقه يوماً إلى غائب حميم يعز حضوره، وإلى حسرة ما ابتردتِ لحظة واحدة منذ خروجه طفلاً مشرّداً عن بلدته «لوبيا» الفلسطينية عام ١٩٤٨إلى لحظة وفاته مشرّداً حتى عن مخيم (اليرموك) عام ٢٠١٣.

وبقي، الفلسطيني اللائب على مصبّات حنينٍ لا يرتوي إلا بملاقاة مستحيلَين: حقيقة الوجود التي بحث عنها طويلاً، وعلى الوسامة في كل شيء، بما فيها وجوه الغائبين، إنها غربته الفادحة مكاناً وزماناً، في تغريبة الإنسان الحسّاس، زادتها وجعاً تغريبةُ الفلسطيني التي لم تنته فصولها بعد.

غـادة

* * *

الرسالة (١)

السيدة الكاتبة غادة اليوسف المحترمة،

تحية طيبة وبعد،

لكم أبهجني أن أسمع صوتك عبر الهاتف بعد كل هذه السنين التي سحبتك إلى البعيد البعيد، وقد أيقنت أنها طوتك في جملة ما طوت، بالرغم من الاخضلال الذي ما يزال يرطب الذاكرة كلما سنحت سانحة تعيد اسمك إلى البال، فأنت في الوجدان حضور ما يزال يشع بالجمال والصفاء والبراءة.

ولقد أبهجني أيما إبهاج ذلك الصوت الذي انبعث من أعماق الغياب، رافلاً بقيمة أنضجتها السنون.

أن تنشري ما تكتبين، فللحق هذا ما كنت بانتظاره منذ زمن بعيد، لأنني كنت أرى أنك تملكين طاقات ذهنية وروحية استثنائية منذ أن تعرفت عليك في زمن موّارٍ بالكثير المنهِك، الذي أعاقك عن الكثير المبهج.

يا إلهي! هل حقاً مازلت كما أنت؟ أم أن ضرام الأيام الذي حرّقك كثيراً أنضجك للدرجة التي ولجتِ فيها عالم الكتابة بقلم نبيل، وروح مطهم!

أي انسجام عبقري هذا أيتها الفاضلة، أن تصلني كتبك وأستمتع بقراءتها أيما استمتاع وأنا المنتعش ببدر قاسيون، لعلّك تعرفين أنني في كل ليلة يكون فيها البدر مكتملاً أذهب إلى أعالي قاسيون لأغسل روحي بضوء تلك البرهة النورانية الباذخة.

لكم أنا ممتنّ لك، ولهاتفك، ولاهتمامك الذي أنعش قلبي المتعب المريض، ولحرصك على معرفة رأيي بكتابيك، وبخاصة حين قلت: «ولأنني أكره ملقَ المتملّقين، وأعرف أنك تقول رأيك فيما تقرأ بصدق لاتخشى فيه لومة لائم، فأرجو منك أن تقرأ ماكتبت بذات الطريقة، حتى لو كان رأيك قاسياً». وأنا أعدك أن أفعل ذلك، ولن أكون إلا كما تعرفين.

هذه مجموعة من مؤلفاتي أقدمها هدية إليكم عسى أن تنال إعجابكم. وبينها كتاب عنوانه «القيمة والمعيار»، وهو الطبعة الأولى، وفي الحقيقة أن الطبعة الثانية أفضل، ولكن ليست لدي نسخة الآن. هنالك كتاب آخر شديد الأهمية، وقد نفدت طبعته الثانية، وليس لديّ منه سوى نسختي الخاصة. أمّا عنوانه فهو "مقدمة للنفري" إن شئت صوّرت لك صورةً عنه وأرسلتها إليك.

لقد أصدرتُ عدداً من الكتب نشرتها دار كنعان في دمشق، بوسعك أن ترسلي أحداً ما إلى معرض الكتاب الذي سوف يقام في مكتبة الأسد خلال الثلث الأخير من شهر آب ليشتري لك الكتب جميعاً، وعددها أربعة، عدا "تلك الأيام" الموجودة في المجموعة الراهنة.

إذا أردتِ فإنني سوف أرسل إليك الجزء الثاني من "تلك الأيام"، وهو الذي سوف يصدر عن دار كنعان في أواخر حزيران الجاري. وبوسعك أن تشاهدي صورتي على الغلاف من «تلك الأيام» (الجزء الأول) يوم كنت في السابعة عشرة من سنوات العمر. لقد أخذت تلك الصورة في بعلبك،خلال شهر تموز سنة ١٩٥٥.أظن أنك لم تكوني قد ولدتِ بعد في تلك السنة. أمّا على الغلاف الأيسر فهنالك صورتي يوم كنت في الرابعة والثلاثين،أي قبل أن أراك لأول مرّة ببضع سنوات وعلى أية حال، أظن أننا سوف نتواصل دوماً، ما لم يكن لديك تحفّظ بإزاء الاقتراح. أتمنى أن أراكم دوماً بخير، وأتمنى أن أراكم عما قريب وأنتم على خير ما يرام.

ملاحظة: في مثل هذا اليوم من سنة ١٨٣٧ مات الشاعر الإيطالي ليوباردي، الذي أنهمك بقراءة شعره وفلسفته في هذه الأيام، مات قبل أن يبلغ الأربعين، أي يوم كان لم يزل في الريعان، وإنني والله حزين لما كابده من آلام قبل أن يموت، وكذلك لأن موته خسارة حلّت بالثقافة البشرية كلّها.

ملاحظة: على صورة الغلاف الأيمن تظهر التلّة التي كانت تقوم عليها ضيعتنا الفلسطينية «لوبيا» حيث ولدتُ أنا على السفح الشمالي المرئي، وبالقرب من الذروة، أو في أواسط التلة.

أخوكم يوسف سامي اليوسف

دمشق، في ١٥ /٦/ ٢٠٠٦.

الجواب (١)

الصديق والأخ يوسف سامي اليوسف أبو الوليد،

تحية تليق بمن يناجي اكتمال الضوء من المكان الرفيع لبدرٍ يطوي الليالي.. ليلةً فليلةً.. إلى أن تكتمل برهة الكون المضيء.

وكأني أراك اللحظةَ على القمّة، أمام الدائرة الكونية، وفي قلب الضوء، متوحداً مع ذاتك...مع المطلق.

قرأتُ كتابك «تلك الأيام»، قرأته بروحي وعقلي... لوهلةٍ أُصبتُ بالهلع إذ ظننتُ أن اعتياد المصيبة قد يُغيّب الحق.. خصوصاً حين أرى الشهود الذين انعجنت أيامهم بأوجاع المأساة يغادرون تِباعاً حاملين معهم ذاكرتهم.. يطوون في وجدانهم المقهور صفحةً من أسْود صفحات التاريخ. وكانت حسرتي تلكَ مجبولة بالذعر، لاعتقادي أنّ حقاً وحقيقة كبرى – ككثيرات غيرها - سيطمسها التشويه والتزوير والنسيان. ولطالما حدّثت نفسي، وأنا في منفاي هذا - وللمنافي أسبابها، وكلّها تتمحور حول غربة الروح عن مكان وزمان ترفضه ويرفضك – أقول: أحادث نفسي عن ضرورة قيام مشروع (استنهاض) تذكّريّ، إحيائيّ، تسجيليّ، (توثيقيّ) لشهادة من شهدوا (تلك الأيام) ولاغضاضة في تسجيلها كما تتدفق على ألسنة أصحابها وهي تلاحق الذاكرة في عفوية انسكابها دون رتوش أو تقنية تمليها ضرورة الفن كي تبقى كما استبطنها حاملوها، وكما نضحت من عيونهم. فلعلّها تكون أفصح وأبلغ وأكثر حرارة وحياة.

ومع أنني عاصرت جيلاً من الشباب المتحمس كونه عانى ماعاناه من التشرد وتداعيات اللجوء ومن طفولة مجروحة ببؤس (كرت الإعاشة) وهم الذين كانوا أسياداً على حقل قمحهم، تحت شمسٍ لها مساحة واسعة من السماء، إلاّ أنني مازال يلحّ عليّ السؤال.. ماذا سيتبقى من تلك الذاكرة ومن نبض المكان حين يكبر جيل آخر، ومن سيأتي بعده وقد تفتحت عيناه وواعيته على جغرافيا أخرى والَفَتَها وأَلِفَها.. ومكان مختلف؟؟ وماكان يُحكى عن مكانه،

الرحم، لا وجود له إلا على صفحاتٍ من قصائد شعرية، أو صورة تلفزيزنية، يقولون فيها: «هذه هي فلسطين»!؟

نحن أحوج مانكون إلى هذا النوع من السرد الواقعي الحي الذي يحمل شعريته الرفيعة بعفوية انسكابه من وجدان لايشيخ، وفاءً للحقيقة، واستحضاراً لروح المكان أولاً وثانياً وثالثاً، فللمكان روح لها طاقة الامتداد والتجدد والوصول. ولعمري إنّ «تلك الأيام»(*) وثيقة جغرافية وتاريخية، وشهادة حيّة أكثر من كل الوثائق الرسمية الممهورة بالأختام التي يبوخ حبرها وينمحي، والتي قد تخفي وراءها حقائق المؤامرة التي لم تنته فصولها بعد.

إنّ مافعله الغرب بفلسطين، وقبلها في كل أصقاع الأرض يمكن أن ينضوي تحت تحليلات اقتصادية وما شابه، ولكن ألا يحق لنا ونحن الذين مازلنا ننزف من مجازره أن لا نرى فيه سوى الشيطان والعدو؟ وهو الذي مازال منذ أكثر من ثلث التاريخ المكتوب يحمل إلينا الموت والدمار والتهتّك الإنساني ؟ونحن ما حملنا إليه سوى ما نضحته سماؤنا وأرضنا من بوح الأنبياء ونفح الشعراء وبوارق النور؟! أم أنها حقيقة الصراع مابين الخير والشر، الإله والشيطان..

وهناك أمر، أراه على قدر كبير من الأهمية، وهو إن كنّا نحمل للغرب كل هذا الحقد لما ألحقه بنا وما يزال، فعلينا أن نجابهه بكل ما يتاح. ولكن هذا لا يعني خلوّ أناسه من الطيبين، ومن ذوي النفوس الصافية الحرّة، التي ترفض الظلم أياً كان شكله و مصدره، من أمثال جان جانيه الفرنسي و جورج غلوي الانجليزي، وطوماس طومسون الأمريكي، ونعوم تشومسكي وغيرهم وغيرهم.

وكم أتمنى أن تترجم سيرتك "تلك الأيام" لتكون شهادة تاريخية تُقرأ بعيون الآخر. ولابد أن يأتي يوم وتلتقطها واعية تجيد عيونُها قراءة التاريخ والمكان، وتحرص على الحقيقة، وتبني عليها أساس الحق.

لك التقدير والمودّة

غادة اليوسف

حمص في ٢٠٠٦/٧/١١

(*) «تلك الأيام»: سيرة ذاتية من أربعة أجزاء ليوسف سامي اليوسف. صادرة عن دار كنعان – دمشق.

الرسالة (٢)

السيدة غادة اليوسف الفاضلة،

تحية طيبة وبعد،

أرجو أن تكونوا على خير ما يرام، ولاسيما من جهة الصحة التي هي أساس الموجود البشري المنسوج من الهشاشة نفسها، أو «من مادة لا تدوم»، كما يقول شكسبير.

بالصدق كلّه أقول بأن رسالتك قد أنعشتني أيما إنعاش، بل فتّحت مسام روحي ومكنتني من التنفس الطليق. ولكم راقني إعجابك بكتابي «تلك الأيام»، وبفهمك الأصيل له، وكذلك استيعاؤك للصلة المتينة التي تشد روحي إلى ذلك المكان(*) الذي قال فيه الشاعر:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لأول منزل

أعيش هذه الأيام في عزلة خانقة، يحيط بي فراغ عميق من جميع الجهات. وإني لأشعر بالغربة والوحدة حتى حين أكون بين الناس. وإنني أردد اليوم هذا القول الذي خطر في بالي ذات مرة قبل زهاء أربعين سنة:

أوَكلّ هذا التفطّر في القلب وما من يد تمتد لتمسح الأرق عن جفوني!؟

إنّ دمشق الجميلة التي تعرفينها منذ عشرين سنة لم يعد لها وجود في الزمن الراهن. فهي مكتظّة بالسيارات والناس والأوساخ والضجيج، وكلّ ما يحرّض النفس على التقزز، بل على الغثيان. لم يعد هنالك بشر في دمشق، لم

(*) يقصد بـ(ذلك المكان) قريته الفلسطينية (لوبيا) في الجليل وقد شرّدَ عنها لاجئاً في نكبة ١٩٤٨ وكان مايزال في التاسعة من العمر.

يعد هنالك إنسان، إلا على ندرة وحسب، وذلك مع أن فيها ملايين النسمات. ولهذا أتمنى أن ترسلي لي الكثير من الرسائل بواسطة البريد، وعلى العنوان نفسه، وذلك لأن رسائلك سوف يكون لها أثر إيجابي قد يخفف من وطأة السأم والفراغ الرابضين على روحي المكدود.

إنني قلّما أسمع اليوم كلمة صادقة من أحد، بل قلّما أحتك بأحد، حتى ولو كان «عدواً مداجيا»، على حد عبارة المتنبي. ففي الماضي كان هنالك أصدقاء وكان هنالك أعداء. أما اليوم فلا أصدقاء ولا أعداء بتاتاً. حتى الأعداء من شأنهم أن يجعلوا للحياة معنى من صنف ما. واليوم تبخّر الأعداء، زالوا من الوجود، ولم يبق سوى اللامبالين والفارغين والمترفدين. ولهذا، أبهجتني رسالتك أيما إبهاج، فهي منسوجة من الصدق والاعتقاد الراسخ بإنسانية الإنسان. ولقد أيّدتِ إيماني الجازم بأن الإنسان الطيب موجود في كل زمان ومكان. ولهذا، فإنني أتمنى أن أتلقى المزيد من هذا الصدق الروحي الحميم.

ومما زاد حالي سوءاً أنّ عينيّ كلتيهما قد لحق بهما عطب كبير في الآونة الأخيرة. فعيني اليمنى قد خسرت تسعة أعشار نورها. أمّا اليسرى ففيها ألم ليس بالطفيف. وهذا يعني أنني ما عدت أستطيع القراءة إلا على نحو محدود. وتلكم، لعمر الله، قاصمة الظهر. فقد أمضيت معظم عمري، منذ الصبا الباكر وحتى اليوم، وأنا أقرأ بنهم، وأجد في الكتب متعة لا تبذها أية متعة أخرى، كما أجد فيها طريقة لمكافحة السأم. أمّا اليوم، فأي وزر على الظهر هو الوقت؟ وكيف أزجي الفراغ الطويل الممل؟

وقرّر لي الطبيب عملية جراحية في العين اليمنى، ولكنني استنكفت بعد تحديد موعدها، وذلك لأن عليّ أن أتمهل ريثما أعرض الأمر على طبيب آخر، أو على أطباء آخرين، قد يكون لواحد منهم رأي مغاير للرأي السالف. وهنالك من حذّرني من العمليات الجراحية في العين جملة، لأن النتيجة قد تكون وبالاً على البصر كلّه.

أيتها الفاضلة،

-١٦-

طالعت كتابيك كليهما ووجدت فيهما غادة اليوسف التي أعهدها منذ زمن طويل، تلك الفتاة الطيبة اللطيفة، ولكن المتمرّدة والجريئة والمشاغبة والمتعِبة في آن معاً، وكأن الأيام لم تغيّر فيك شيئاً ذا بال. ولقد أعجبتني قصة "المنديل" كثيراً. لئن استطعت أن تكتبي عشر قصص بهذا المستوى، فإنك سوف تصيرين قاصة بحجم يوسف إدريس الذي لم يبذه حتى اليوم أيّ قاص في العالم العربي كلّه. ولكنني لم أكن أتوقع أن تكتبي ما كتبت في الصفحة الرابعة والأربعين من مجموعة «العالم السفلي»، لأنه لا يليق بالباحثين عن الكمال الذي هو الغاية النهائية لروح الإنسان.

أمّا تهكّمك على لهجة ضيعتنا الفلسطينية "لوبيا" فقد أضحكني كثيراً – «هاظي» – وذلك في القصة الثانية،"فوق جثّة الأقنعة".

ولكم يبهجني أن يكون لي شرف الكتابة عن مجموعة " في العالم السفلي" لأنني أزعم أنها تبذ أعظم ما كتب في هذا الجنس الأدبي.

تجيء هذه المجموعة القصصية نتاجاً لنزعة نقدية اجتماعية وأخلاقية لا تخلو من حدة وغضب. ولهذا فإنها صوت جريء مرفوع إلى أعلى طبقاته. إنه سليل الكلمة المقاتلة التي لا يملك الكاتب الأدبي سلاحاً سواها يشهره في معركة العدالة الناشبة ضد الضيم اللاحق بماهية الإنسان أو بهويته الجوانية في عالم ينزع دوماً صوب التليّف، أو صوب التخمّج والتزنّخ.

وللحق أن هذه المجموعة تنطوي على نسيج إنساني نبيل أو نظيف. فثمة عنصر ينحاز جهراً لآلام البشر وبؤسهم، ويبذل جهداً روحياً ملموساً بغية مساعدتهم والنهوض بهم من حضيض التردّي إلى المستوى اللائق بالإنسان الكريم. ولهذا، فإن المجموعة الراهنة تزوّج شراسة الحقيقة الموضوعية أو تدغمها بالأمل الباسم والمترع بالمسرة والإشراق.

وقصة «المنديل» مثال جيد على ما أزعم: إنها قصة فحواها أن يصير الإنسان صديق الإنسان، ومخلّصه من بؤسه ومرارة حياته، بدلاً من أن يكون

ذئبه الذي يفترسه عند كل فرصة سانحة. ولهذا، فإنني أراها أجود قصص المجموعة بأسرها، إن لم تكن من أجود ماكتب في هذا الفن الأدبي بالمطلق. أما الأسلوب في هذا الكتاب جملة (والأدب عندي أسلوب أو لغة خاصة)، هو أحياناً شاعري، وأحياناً عادي مألوف وهذه هي حال القصة العربية منذ نشأتها حتى اليوم. ولكن اللغة تبقى رصينة ومتماسكة، وتدل على تمرّس في القراءة التي هي المؤسس الأكبر لكل كتابة ناضجة.

ها أنا ذا أرسل إليك نسخة من كتابي "مقدمة للنفّري"، وهو كتاب أظنّه قد أضاء بعض الجوانب من تراث ذلك الصوفي الجليل. ولقد عثرت بالصدفة على مجموعة من نسخ ذلك الكتاب في إحدى المكتبات فاشتريتها كلها، بعدما صار الحصول عليه أمراً يشبه المحال.

أمّا بخصوص الجزء الثاني من «تلك الأيام» فقد أبلغني الناشر بأنه قد صدر بالفعل، ولكنني لم أستلم أية نسخة حتى الآن. وأغلب الظن أنه سوف يعرضه في معرض الكتاب الذي سيفتتح في الأول من آب القادم، أي بعد ثلاثة أيام. ولئن أبصرته عيني في المعرض فإنني سوف أشتري لك نسخة وأرسلها مع أول رسول ترسلينه إليّ. وستجدين فيه قصة شبابي، وكذلك حكاياتي شبه الغرامية.

أرجو أن تبلغي سلاماً خاصاً وشكراً جزيلاً للروائي السيد (محمد زهرة)(*) لأنه أهداني نسخة من رواية «الظلمة» التي سوف أطالعها فوراً، كما أنني سأحيطكم علماً برأيي بها في رسالة قادمة. أتمنى له التوفيق والمزيد من الروايات والكتابات الناجحة. فأنا أستهجن قدرة الروائي العربي على الثرثرة. ولهذا، فإن في داخلي شوقاً صميمياً إلى مطالعة رواية عربية مقنعة من جميع النواحي، أو من معظمها. ففي قناعتي أن كل شيء قد أنجز على الأرض ونال إعجاب

(*) محمد زهرة: روائي سوري من حمص له عدة مؤلفات منها روايتان فلسفيتان (الظلمة - أمير الفناء).

البشر إنما أنجزته رغبة الإنسان في الكمال، وحنينه إلى العلو الذي هو وقف على المصطفين وحدهم.

لكم الشكر على اللطف والصدق ومسح الأرق عن الجفون المكدودة المجهدة. لكم جزيل الشكر على هذا كله في زمن شرس وزائف وبغير قواعد ولا أصول. وأتمنى لكم التوفيق في كل عمل تعملون، وفي كل مهمة تهمّون بإنجازها.

المخلص يوسف سامي اليوسف

دمشق، في ٢٩ /٢٠٠٦/٧

العنوان دمشق – مخيم اليرموك - شارع صرفند – الجادة ١٤

هذه هي التلة التي
كانت تمتد قريتنا على
سطحها. وقد هدمها اليهود
وغرسوا مكانها غابة.

الجواب (٢)

الأخ والصديق والاستاذ السيد يوسف سامي اليوسف

أبو الوليد..

تحيةً وسلاماً وسلامة.

تأخّرتُ.. وقد ضاق وسعي عن الوفاء بوعدٍ كنتُ وعدتُه، وقصرت يدي، ولم تسعفني المودّة في التحلل منه، فاعذرني يا صديقي. فحين تتخلخل الروح، ويزحف فوقها الحزن يستوطن أخاديدها، ويمدّ جذوره إلى قاعها ومهاويها، تنشب مخالبه في الجسد الذي لا منجى له من مواءمة الروح، فتلج زيفاناته إلى شرفات العقل الوضيئة تطفؤها، ولا ينفع بعدها أن يصرخ القلم بحنجرة ذبيحة، أو يصمت. فعبثية الحقائق تساوي بينها، وتُدخل الروح في متاهة العدم.

يراودني البدر بوهم ضيائه بعدد المرّات التي اكتملت فيها دائرة الضوء السماوية، فأهرع إلى القلم. ولكن، ما إن أبدأ حتى يخذلني الوقت المبدد على استطالات الآخرين المتمادية. ربما هي لعنة تلاحق المرأة منذ أن يمتلكها أحبابها، فيعتاشون ويسترخون على نبض عمرها المتسارع دون أن يسأل أحد منهم ولو لمرّة واحدة: «ما الذي تبقّى لها»؟ يرعبني تسرّبُ الزمن بلا جدوى، «والضعيف يخاف الفوت» وحين أظفر باختلاس لحظات لا ينازعنيها أحد يخذلني التعب، وكلّنا محكومون بهشاشة الجسد. فأخطّ كلاما ثمّ أمزّق ما كتبت، وأخجل من أن أخاطبك إلا بما يليق من الصدق والعمق والمودّة.

انصرم الصيف الذي خطفت حرب تموز جلّه، وكنت خلاله ألاطم أياماً عاتية، وقد استضفت - كأقلّ ما يستدعيه الواجب – أسرتين لبنانيتين في بيتي

حتى نهاية تلك الحرب الغاشمة على الجنوب اللبناني.. تلك الحرب الأسطورية التي برعمت الأمل في نفوسنا اليائسة، وجاءت تصديقاً لكثير من مقولات الجزء الثاني من كتابك «تلك الأيام».

ولقد أجريتْ لي خلالها عملية جراحية إسعافية ألزمتني الفراش لمدّةٍ هتكَ فيها القلق على ابنتي /ميديا/ أمني وطمأنينتي، في حال قعودي عن رعايتها. خصوصاً أنّ والدها /علي/ كان لايزال في السجن للمرة الثانية. مع أني لم أعوّل يوماً على رعايته لها، وأحاول أن أجد له عذراً كي أخفف عنّي وعنها..وربما عن الجميع. لقد غادرتْ حمص إلى مخيم اليرموك منذ أيام، بعد ربع قرن من تكريس عمري لها – وهذا حقها عليّ وللباقين في البيت-إثر مشادة تافهة مع من أدخلتُهم أنا إلى حياتنا باسم المحبة، والاستقرار، وهرباً من الوحدة التي عانيتها ومازلت، فما كانوا إلا غرباء.. للأسف، هذا ما أثّر على التصاقها بي..وأعرف أنها ستعود، بعد أن يخذلها جسدها الضعيف، وأنا لا أريد لها أن تعود منكسرة بخذلان جسدها. فأهل أبيها لم يحتملوها إلا وهي بكامل عافيتها، ولوقت قصير!

انتهيت من كتابة مجموعة قصصية جديدة بعنوان "على نار هادئة" وهي الآن قيد الطباعة. أعاني حصار الوقت وزحمة المسؤوليات، وعدم معرفتي بمنافذ لنشر ما أكتب.

الجزء الثاني من «تلك الأيام» كتبتُ لك عنه مطوّلاً فور انتهائي من قراءته إثر وصوله إلي. وقد تشرّبتْه روحي بنفس التوق الذي كان لدى قراءة الجزء الأول. ولكن لم تصلك رسائلي لاستهتار الرسل وبلاهتهم. وباختصار شديد هو تتمة لسِفْرٍ لم يكتمل بعد. مليء بما يوجع، ويرفع منسوب الغصة حتى انبجاس العينين بماء القهر والعجز. وفيه من الماضي المستعاد بذاكرة لا تشيخ. ما يسلّط الضوء على الراهن.وأتساءل بحسرة عن مجانية الخسارات والتضحيات التي تبعثرت على درب آلامنا.

أجدد رغبتي وأملي في ترجمة «تلك الأيام». ففيه وثيقة تاريخية أبلغ أثراً في الآخر من آلاف المطبوعات والخطب والندوات التي تقام خارجاً –على أهميتها.

سيدي، عقارب الساعة أدمنت انتصارها علي في سباق محموم سرمدي. أشعر أن لدي الكثير الكثير لأقوله. عملي، كقاضية مستشارة في محكمة جنايات الأحداث يضخّ في أوردتي أوجاعاً إضافية على شريحة عاجزة في المجتمع، أفرزها الفقر والجهل والتخلف. هي فئة «الأحداث». إذ أن كيفية التعامل معهم قانونياً وإنسانياً تضع ضمائرنا على المحك، لما تلقاه هذه الفئة التي هي في الأصل: الدرجة التحصيلية لأداء المجتمع كلّه. وأرجو من الله العون على الاحتمال، وأن يمنحني الوقت الكافي، والقدرة – وأنا أرى في المحكمة ما يندى له جبين القضاء والشرطة ومؤسسات الرعاية والنظام التربوي والتعليمي والاجتماعي برمّته. وسأفعل ما يمليه عليّ وجداني حتى لوكلّفني ذلك وظيفتي ومنصبي غير المأسوف عليهما، وما كنت يوماً من طلاّب المناصب.

رغم الزحام الداحر، أرتطم بخواء الأشياء، وأنكمش، ولا أمل بصدرٍ ألقي عليه تعب العمر وخيباته، غير بياض الورق. ولا أدري إلى أين سيمضي بي الدرب بعد. وما زلت أتساءل: أتراني أسرعت الخطو؟ أم أنني ألغيت المسافة؟ وهل أنا التي اغتلت الطريق؟ أم أن الطريق هو الذي اغتالني؟

أستاذنا جميعاً. لك التقدير والمحبة والصحة والقدرة على مزيدٍ من العطاء. أرجو مراسلتي على العنوان التالي: دمشق – المزرعة - شارع عمر المختار ص.ب ٧٣٩٤ جريدة النور. الأستاذ عطية مسوح ومنه لغادة اليوسف.. فيأتي بالرسالة إلى

حمص

الرسالة (٣)

السيدة غادة اليوسف الفاضلة.

تحية تنبع من ينبوع الروح.

بعد ليلة مضنية أمضيتها في صراع ضد المرض، تسلمت هذا الصباح البارد رسالتك التي لا تحمل أي تاريخ. ولكم أنعشني وأنا أطالع سطورها بأناة وأعبّ كلماتها النبيذية المذاق، فتُمازج دمائي الجانحة للركود وتبثّ فيها الحرارة والحركة والحيوية، بل الرغبة في مغادرة سرير المرض صوب الحياة الرائعة أو المتضرّمة كالياقوت. فلا غلو إذا ما زعمت بأنها جاءت بمثابة تعويض منصف عما قاسيته الليلة الماضية من آلام برّحت بي طوال ساعات بطيئة مديدة، ولاسيما سوء التنفس، أو اللهاث، الذي يملك أن يحيل العيش إلى صنف من أصناف الجحيم.

ولهذا السبب حصراً، أعني لأن لرسالتك قد جاءت بمثابة إجازة من اللعنة، أرجو أن تكتبي لي ما استطعت إلى الكتابة سبيلاً. ولكم راقتني هذه الكلمة التي جاءت في الصفحة الأولى من رسالتك هذه: "كلّنا محكومون بهشاشة الجسد".

صديقتي الطيبة،

لعل أهم مافي أمري أن صحتي ليست على مايرام. فلقد أصبتُ بنوبة قلبية صبيحة السادس من تشرين الأول سنة ٢٠٠٦، وهذه هي الأزمة القلبية الثانية، إذ كانت الأولى في التاسع من أيلول، سنة ١٩٩٩. ثم أصبت بنوبة ثالثة صبيحة الحادي عشر من كانون الثاني الذي لم ينته بعد. وهذا يعني أن

المدة الفاصلة بين الأزمتين لا تزيد عن ثلاثة أشهر إلا قليلاً. وفي المرات الثلاث لجأت إلى غرفة العناية المشددة في أحد مشافي دمشق. وأخيراً تقرر أن تُجرى لي عملية قثطرة في غضون أيام، أو ربما بعد شهر وبعض الشهر.

آه، ياغادة، إن الألم البشري هو شيء مما لا ينقال، فاللغة تخنس أمامه، بل تنكس أعلامها. وفي هذه الفترة المكروبة أشعر بأن في إمكاني أن أطور نظرية في النفس تتخذ من مقولة "الألم" مركزاً لها، بدلاً من تلك النظرية التي اتخذت من عقدة أوديب نقطة ازدلاف تؤوب إليها بغية استيعاء جملة قضايا الإنسان. وبسبب شدة اهتمامي بالألم، الذي هو السلب الأكبر في الحياة، وفقاً لمذهبي، فقد بتُّ أعتقد جازماً بأن الصليب هو أعظم رمز صنعته يد الإنسان، وذلك قبل المسيحية بكثير. ففي الصليب حصراً أرى سرّ النفس ومفتاحها والباب الذي يفضي إلى عقرها، بل حتى إلى نواتها المستورة. أمّا معنى هذا الرمز فهو أن الإنسان كائن يتحمل ويطيق ويفضّل على الزوال أيما وجود، حتى وإن يكن معطوباً.

ولكنني على الرغم من مجمل هذه المكابدة المبرّحة بالروح قبل الجسد، قد صممت على أن أنجز الجزء الثالث من "تلك الأيام". وأحسبه أقوى من الجزئين السالفين، وذلك بفضل ميله إلى تأمّل الحياة والتفكّر بظواهرها الكبرى، ولاسيما السياسة والتاريخ والكتابة والنفس، فضلاً عن تاريخ الثقافة الذي ينبغي أن يكتبه أحد الناس بنزاهة وإنصاف بعدما شوّهه الغربيون بميولهم العنصرية المقيتة. والكتاب اليوم ناجز تقريباً، بل يوشك أن يصير إلى المطبعة، فلقد تم تنضيده، كما تمت مراجعته وتنقيحه كلمة إثر كلمة. وأظنّه سوف ينشر في هذا العام الجاري، وربما في أواسط الصيف القادم.

ولكن الذي يحز في نفسي أن صحتي لا تسمح لي بأن أكتب تاريخ الثقافة البشرية، وذلك لكي أبين ما استدانه الغرب من المشرق، سواء في أيام الإغريق والرومان، أو في أزمنة أوروبا الحديثة. فتأمّلي المفارقة الناشبة، يا غادة. حين يصير الإنسان في عامه الستين أو السبعين، أي تماماً حين ينضج

ويصبح قادراً على صنع الكثير من الانجازات ذات الشأن، فإنه لايظل صالحاً لشيء بسبب هشاشة جسده الذي لايملك أن يدوم طويلاً في صحة جيدة. وحين يكون جسده قوياً وشديد القدرة على تحمل التعب، فإن ذهنه لايكون قد نضج بعد. فيا للمهزلة !

وعلى أية حال، فإنني أتفهّم وضعك والقلق الذي يجعلك تضطربين، كما أتفهم عمليتك الاسعافية وحرصك على ابنتك الموجوعة، وكذلك تطلّعك إلى نشر ما تكتبين، ورغبتك في توصيل كلمتك إلى المجتمع.ولكنني أتفهم معاناتك أكثر، وذلك لأنها – وهي الصادرة عن روح صادقة مألومة - لاتفتك بأحد سواك، ثم لا تجدين من تشتكين إليه، ما يعتلج في سريرتك من قلق، وما يساورك من اضطراب. ولعل أهم مافي أمرك أنك مهمومة بهموم العالم بأسره، وهو ما تنظرين إليه بوصفٍ شيئاً نائياً جداً عما يتبغي عليه أن يكون.

وفي حسباني أن عشرين سنة قد مرّت على لقائنا الأخير. ولا ريب في أن كلاً منّا قد تغير خلال هذه المدة الطويلة. وإني لأتساءل عمّا إذا كنت سأعرفك إذا ما التقينا في مكان ما. وفي الحق أنني أتمنى أن نتلاقى ذات يوم قريب. فأنا قلما أصادف أناساً طيبين في هذه الأيام الماحلة. وعهدي بك فتاة مرحة مبهاج، ولكن مرحك – فيما أحسب – يخفي في جوفه قلقاً وتوتراً عارمين. وللمرء أن يتبين ذلك من تساؤلاتك العميقة والمعجونة بالاحتدام في آن واحد. فقد كان ناصعاً أمام مقلة عيني أن في طوية نفسك يربض اضطراب أو جيشانٌ شديد العرام.

وعلى أية حال، فإن لك مني خالص الاحترام. وحبذا أن يكون هنالك تراسل، بل لقاء.

المخلص يوسف سامي اليوسف

دمشق في ٢٩/١/٢٠٠٧

الجواب (٣)

رسالة من غادة اليوسف:

الأستاذ... والصديق يوسف سامي اليوسف..أبا الوليد.

محبةً وسلامة.. وإنه آخر المساء، أول الليل، وهاهو صوتك ينسكب مفعماً بالقوة والنضرة متعالياً على انتهاكات السنين والمرض، فيزغرد سمعي بألقٍ يخصّني وحدي. إنه الصوت، الهوية الأكثر ديمومة وتعبيراً، إنه أبو الوليد، صوته الجهوري، ويغمر اللحظةَ موجُ الذاكرة، يلهو بإيقاع الزمن، يسحبني عميقاً، يغوص بي إلى ربع قرن مضى، إنه الصوت، مُشعِلُ القصيدة صادحاً:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجت من نجد فقد زادني مسراك وجداً على وجدِ

أإنْ هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى على غصنٍ غض النبات من الرند

بكيتَ كما يبكي الوليدُ ولم تكن جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي

ويهبط الصوت من سحب الحنين، من فضّة البرق، ينهمرفي كؤوسنا، يرقّصها على إيقاع نشوة البوح وسموّ التواصل الانساني، يحتفي الشعر بالصوت، وتغتبط الروح، ونغدو جميعنا واحداً: أنت، وفاطمة وسلوى، وعلي، وحسن عودة،والجدّات والأمّهات اللواتي كنّا نحتمل استهجانهن البريء، وكنّا اللحظةَ في أوج ضرامها وسموّها، أتذْكُر؟يا أبا الوليد، إنه الصوت، هو، هو، تمرّ به السنون، وتنحني، ويبقى نيساناً شامخ الفتنة جامح العنفوان.

يقولون في علم الكون والطاقة: إن الصوت يبقى عصياً على الفناء، مندغماً مع العناصر الباقية. إذن، فكل سؤال عن المتحول المتغير وملحقاته يغدو تحصيل حاصل. تقول: «الشريان التاجي قاصر بنسبة..... والشريان

ال......والوريد ال.....الخ»، ولكن يا أبا الوليد، الصوت أخبرني أن الشريان الانساني، وكل أوردة المحبة في كامل أبّهتها تضخّ الحياة بمزيد من دفق العذوبة، والقدرة النبيلة على الفعل الجميل والعطاء، وإذن، فالجزء الثالث من رباعية "تلك الأيام " يتهادى بجلال غيمة المطر وبهائها صوب عطش انتظاري.

صديقي الكريم، ماتزال عيناي وروحي تغتسلان بما يقطر من خلاصة الألم الذي تراه السلب الأكبر في الحياة. حيث يمضي بنا العمر، نطير من فضاء إلى فضاء، تُهشِّمُ العاصفاتُ مكابَرَةَ الجناح، ولكن الحلم يمدّه بما يكفي لتبزغ الخوافي والقوادم ثانية وثالثة، ونعاود الطيران. نرنو إلى سماواتنا الشفيفة، وحين يغرّر بنا وهم الانعتاق، نفتح ذراعينا، دون أن ندرك أننا انتهينا ظاهرياً على شكل صليب على مقاسنا.

أدين للكتابة التي انتشلتني من حلكة زمن تذوقتُ ثماره بين غصة أعقبتْ وهمَ حلاوةٍ، لم تكن يوماً، ولم تكتمل، وفجاجة ييّسها حرَدُ مطرٍ وهبوبُ سموم. ربما لأنني أنا والكتابة تلاقينا في تلك اللحظة المغرقة في الهجر لكلينا. لحظة الغربة والاقصاء، لحظة فقدان وخيبة في طريقٍ وعرٍ يتهرّب من نهاياته، ترتبك فيه الخطوة وتَذْمى، وحين بدت لي حياتي متوحدة، تافهة، وموحشة، وبدا لي صوتي وسط القفار صدى لأيامٍ تناثرت تحت أنقاض السنوات الضائعة، تبعته من أول الحلم، واكتشفت في آخر اليأس أنني كنت أبحث لحلمي عن ثوب يرتديه، فأغلقتُ أبوابي لأن أرضاً ليس فيها وجه حميم، ولاباب يقودني إلى دفء، لا يستحق أكثر من أن أنزوي داخل روحي المثخنة. وكم يريحني انفرادي بحزني لأجترّه بصمت، وأخفيه.

يا صديقي، يروم القلب، ويُرمى في دوّامة عالمٍ شحّتْ فيه الأماني. فأينما تلمّستَ تحسّسْتَ جرحاً. سواء ما يتعلق بوجودك الشخصي، أو العام.: انتهاكات للحقوق، وغياب للحريات، وفشل في النظم، والتردّي في القيم، والتآكل الذي يتعرض له كل ما هو نفيس. ولا أمل في الخلاص بسبب الغياب الكارثي لوعي

المأساة. ولعلّنا بحاجةٍ لكسر القيود الذاتية التي تجعلنا عاجزين عن أن نرى فجيعتنا.

حين صدرت مجموعتي الثالثة: «على نار هادئة» لم أفرح، بل رأيتني متوحدة في وحشتي، وقد ألقتْ بي صدفةٌ حمقاء في مكان وزمان غير ملائمين. وتركَتْني في شَتات انفصالي عنه وتواشجي معه، أبحث وسط أوهام الأضواء المخاتلة عن موقع لنفسي. وسط حياة فارغة. ببساطة، لم يكن هنالك من يشاركني فرحتي بولادة الكتاب الذي حزمتُه في صناديقه، وركنته مثلي تماماً في الزاوية.

منذ أسبوعين، وبدعوةٍ من رابطة الخريجين الجامعيين في حمص، أقيمت ندوة نقدية لمجموعة «في العالم السفلي». حضرها عدد كبير من الأدباء والمهتمين. حيث تناول أستاذ اللسانيات الدكتور رضوان القضماني(*) بنية السرد في المجموعة. وتناول الشاعر عبد الكريم الناعم(**) قراءة نقدية بانورامية رائعة فيها. قد لاتصدّق إن قلت لك وأنا في القاعة المكتظّة بالحضور كنت أسمع صوتك مهيمناً على كل الأصوات يقول: «حاكموا النص أيها السادة» ولاتمتدحوا فحسب. ولاتتلصصوا من خلاله على حياة الكاتبة. أيها السادة، هنالك كتاب في النقد يلزمكم فاقرؤوه، عنوانه «القيمة والمعيار».

صديقي.. لك الصحة ودوام القدرة، والمودّة والإجلال. آمل أن تحوذ مجموعة «على نار هادئة» على رضاك.. وأعرف أن رضاك ليس بالسهل أدبياً.... لك التقدير

غادة

حمص في ٢٣/٤/٢٠٠٧

(*) د. رضوان القضماني: أستاذ اللسانيات وفقه اللغة – قسم اللغة العربية في جامعة البعث.

(**) عبد الكريم الناعم: شاعر سوري من حمص له العديد من المؤلفات والدواوين الشعرية وسيرة ذاتية بعنوان «مدارات سيرة زمن ١». يكتب في الصحافة السورية والدوريات العربية في شؤون الأدب والسياسة والمجتمع.

الرسالة (٤)

السيدة غادة اليوسف المحترمة.

تحية طيبة من الصميم، وبعد،

فور استلامي رسالتك المؤرخة بتاريخ ٢٣/٤/ ٢٠٠٧، رحت ألتهم سطورها بنهم لايشبع، وذلك لأن كلماتها كان لها وقع على روحي يشبه وقع الماء الزلال في ثغر ذي الغلّة الظمآن. وربما جاز لي أن أزعم بأن هذه الرسالة حصراً هي برهان على أنك يمكن أن تكتبي رسالة متميزة، دون مجاملة.

ولكم راقني أنني كنت المحتوى الأول لهذه الرسالة نفسها. آه يا إلهي الطيب! إنه لأمر مبهج أن يجد المرء من يهتم به، ولو في مكان قصي. ولكم شعرت بالارتياح، بل بالسعادة والغبطة، حين ختمت الرسالة بهذه العبارة «صديقتك المحبة».

أمّا محتواها الثاني فهو همومك الاغترابية الخاصة التي أملك أن أنفعل بها وأتعاطف معها حتى نِقْي العظام. يا إلهي! أليس العسر والمشقّة أن يغلق المرء أبوابه "لأن أرضاً ليس فيها وجد حميم، ولا باب يقودني إلى دفء، لا تستحق أكثر من أن أنزوي داخل روحي المثخنة. "كماذكرتِ في رسالتك، أمّا تعليقي على هذا الكلام فهو السؤال التالي: هل من اغتراب بعد هذا الاغتراب المرير؟ ولكنني جد مرتاح لأنك اكتشفتِ ذاتك في الكتابة، حتى لكأنها عُلالة لهذا الاغتراب المرير نفسه.

سيدتي الفاضلة، مادمت تهتمين بي وبأخباري إلى ها الحد الذي لم أعرفه من قبل، أعني أنه ما من أحد قد أولاني مثل هذه الحفاوة، فإنني سوف أنقل إليك صورة عما أفعل في هذا الربيع الرخامي الأملد.

ها أنا ذا أبحث بين أشجار الغوطة الغنّاء عن الصوادح ذات الأصوات المطربة، ولا سيما الهزار الذي هو العندليب. فأراني أجوبها كلّها بالسيارة، أو

أمخر عبابها بلهفة، مع أن مرضي يتفاقم باضطراد في هذه الفترة، فأبلغ إلى أقاصيها وتخومها النازحة، ولكنني لا أسمع البتة أي صادح عذب من شأنه أن يمغنط الأجواء بصوته الفاتن الرخيم.

(أنت كنت موجودة يومئذ، فلقد تأخرتْ يقظتك، للأسف) لقد رأيت العندليب لأول مرة في نيسان، أو في نوار، سنة ١٩٥٦. ثم رأيته مراراً و تكراراً بعد ذلك.

إنني دائم التنقيب عن إجازة تخرجني من اللعنة، أو عزاء يسلّيني عن هذه المجزرة الكربلائية التي تجري في العراق كل يوم. فعلى أيدي الأمريكيين الأوباش خسرت الحياة عذوبتها ورونقها، واستحالت إلى اعتلاف بالتبن والزؤان. وهل عزاء أو سلوان أبهج للنفس من البلابل والقبرات حين تغرد للزهور والإخضلال. فأنا معتاد على ترديد هذا البيت (بنصّه الانكليزي)، أو تماماً كما خرج من بين شفتي شكسبير:

" إصغوا، إصغوا، فالقبّرة تغنّي عند بوابة السماء."

حقّاً إنني أشعر بأن الروح في حصار الاغتراب، والجسد في حوزة السقام، والوطن ناءٍ كنجم العيوق، إذ ينتصب الجحيم كلّه ليحرس الشر. فهل تعرفين أيما درب إلى أي انفراج ؟ ولهذا بتٌّ أومن بأن الألم هو أقدس عنصر في الحياة البشرية. وعلى هذا المبدأ بنيت المسيحية.

ولكن رسالتك الحميمة، أيتها الفاضلة، هي الأكثر استطاعة، في سواء هذا المحْل، على أن تمنحني مثل تلك الإجازة الهنيئة، وذلك لأنها تجعل صدري مثلوجاً وشديد القدرة على التنفس المريح، وهو ما أشتريه بالمال يومياً.

فماذا جرى لهذه الدنيا في هذا الزمن السخامي الأعجف والمسعور؟ لقد حلّت غابات الاسمنت محل الشجر والزهر، فهاجرت الطيور النادرة، ولاسيما ذلك الصنف المغرّد المنعش النشوان، وهو الذي من شأنه أن يحيل الحياة إلى عذوبة ومسرّة وجمال. ويبدو لي أن الجمال ماعاد له محلّ في هذا الزمن الغوغائي المكتظ بالوسخ والفوضى والضجيج، والذي لا يحتدم فيه شيء أو يتوتر سوى اللامعقول وحده.

فالجمال أنفس النفائس لأن عبادته هي أحسن طرائق الانسحاب من الواقع. وهذه الفكرة هي مبدأ من المباديء العزيزة على فؤاد شوبنهور الذي ما أعجبت بفيلسوف أكثر مما أعجبت به في الآونة الأخيرة. وهذا يعني أن فيلسوف التشاؤم قد ترك محَلاً للفرح، تماماً كما فعل السيد المسيح الذي يشرّفني أنني أنتسب إلى إقليمه المسمّى بالجليل.

ترى، لئن قيض لي أن أسمع الهزار يغرّد في غوطة دمشق اليوم، أو في وسط هذه المذبحة الهائلة، هل سأقول: يا للروعة، يا للعذوبة، يا للحياة السعيدة؟

ومع ذلك، فإن علينا أن نوقظ أرواحنا على الرقة والرهف، أو على الفتون المنتشر من الأفق إلى الأفق. كما أنني سوف لن أسأم من تكرار هذا القول: على الهيَف أن يتحمّل الجلَف. فالمرء يحتاج إلى شحذ أو إلى تحفيز وتحريض، لا ليستمر في الحياة وحسب، بل بغية إماطة الحجب عن النفس وكنوزها، أو من أجل فكّ مغاليقها ورتاجاتها كي تتفتّح وتتخارج أمام ذاتها وأمام الآخرين.

أمّا مناقشة مجموعتك القصصية التي أشرت إليها، فإن لي تعقيباً على جوّها الذي ذُكر وصفه في رسالتك الراهنة. في قناعتي أن النفس التي تكابد الشوق اللاعج العارم، أو تلك المنخرطة في أرقِ الشائق والمشوق، وهما من تفصل بينهما مسافة فلكية لا تزول بتاتاً، فإذا زالت لم يبق هنالك شائق ولا مشوق. إن تلك النفس هي الأقدر على الكتابة الأدبية، أو على استيعاء الأدب، بوصفه حساسية وتحريراً لطاقات النفس الغافية. ولهذا فإن الذين يعرفون دراسة مجموعتك، أو سواها، نادرون حقاً. وما دام الأمر كذلك، فلن يظل هنالك سوى المجاملات والمداهنات. ومما هو مصداق لهذا الزعم أنني نشرت نصاً أدبياً في العام الأخير عنوانه "أمل"، وذلك في مجلة "الموقف الأدبي" العدد ٤٢٦، تشرين الأول ٢٠٠٦ وإنني أراه مكتوباً بلغةٍ من سلالة الفجر والشروق، أو من شيعة الألطاف الحسنى. ولكنهم غلطوا حين نشروه في فصيلة القصة، مع أنه ليس قصة بتاتاً. وأهم ما في أمره أنه انبثق من معضلة الشائق والمشوق.

ولكم أودّ أن تطالعي ذلك النص، أيتها السيدة المكرّمة، وإلا فاتتك قطعة من الحلوى يندر أن يذوق المرء مثلها في هذه الأيام المعقومة. وبما أنه مكتظ

بالأغلاط المطبعية، فإنني سوف أُرفق هذه الرسالة بلائحة تحتوي على تلك الأغلاط وتصويباتها معاً. ثم ليتك تلخصين رأيك بسطر أو سطرين في رسالتك القادمة التي سوف أنتظرها بلهفة واشتياق. فلقد اعتدتُ، في غابر الزمان، أو قبل ربع قرن، على الشعور بأن رأيك ذكي ومتفرّد ولمّاح، وذلك لأنه نتاج لحساسية مرهفة نشيطة، أو دائمة الأهبة والحضور. (ألم يغيّرك الزمن الهدّام؟) وفضلاً عن هذا، فقد كانت مواقفك أو مفاهيمك - وفقاً لما أذكر – ميالة إلى التحقيق والتدقيق والتمحيص وعدم الرضا بالأفكار على علاّتها. وعهدي بك جانحة إلى شيء من التمرّد المسؤول، ولكنك في الوقت نفسه لطيفة مثل شهر نيسان وأزهاره اليانعة. ومن الأدلّة على ذلك أنك مازلت تتذكرين تلك القصيدة، أو تحنّين إليها، وهي التي تبدأ بصَبا نجد، ثم تتابع قائلة:

أإن هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى.......

إنّ تمسّكك بهذه القصيدة ينطوي على رهَف في الروح حقّاً. وفي حسباني أن ذلك النص، أعني "أمل" هو نتاج لحنين يتفقّد ما يندّ عن الاسترداد. فحينما كان العمر في الريعان أُغرمتُ بفتاة اسمها أمل ". وذات يوم من أيام العام الماضي أصابتني نوبة وجد مفاجيء، أو نوبة حنين متدفّق عارم فيّاض، فما كان مني إلا أن كتبت ذلك النص الذي جاء بمثابة زفرة أُنفّسُ بها عن نفسي المكروبة.

هي ذي أغنية حب صادق طاهر ملتاع، ما زلت أكنّه لتلك الفتاة التي أحسبها الدماثة جاسدة من أجل مقلة العين، مع أن كل شيء بيننا قد انتهى منذ زمن بعيد. وليس بخافٍ إن تلك الأغنية هي نتاج اللهفة، أو نتاج الشوق الذي لا إشباع له بتاتاً. وهذا يعني أن أزمة الشائق والمشوق مسؤولة عن شطر كبير جداً من أرفع الآداب التي أنتجتها البشرية طوال تاريخها. ثمّ إنه ما من شيء نفيس يملك أن يجيء إلى الكينونة بمعزل عن اللهفة التي هي زخم الاندفاع صوب العاليات. ولكن عالم المال والسلاح هذا تفصله عن استيعاء الحنين والشوق واللهفة واللوعة هاوية لا تُعْبَر.

ترى، هل سيتمكن الشاعر من أن يهزم التاجر ذات يوم ؟

صدقيني أيتها السيدة الطيبة، أن ثمة صلة استثنائية تشدّني إلى كلمة "الحنين" إنها صلة وداد مخملي دافيء عميق. وإنني لأوثرها على أية كلمة أخرى في المعجم، دون أن أستثني كلمة "الحرية" أو "الحب" أو "الطيبة" التي تشتقها اللغة العربية من الطيب الذي هو العطر، والتي أراها الغاية النهائية لكل تربية تلتزم بإنسانية الانسان."قد أفلح من زكّاها."

وفي تخميني أن المعنى الفقهي لكلمة "الشوق" هو الوجود أو الوجدان مشغوفاً، إذ الوجدان هو الوجود على الأصالة، والعكس صحيح. قالوا وفي عين المصدر يعني الكون أو الوجود، كما أتوهّم. أمّا كلمة "الحنين "فأتخيلها تعني الحياة ناراً أو أنيناً. والحاء حرف الحياة والحركة والحرية والحب والحرمة والحمرة والتحريص والتحفيز......إلخ.

فلا غلو إذا ما زعمتُ بأن دفقة نستالوجيا nostalgia، أو نوبة حنين عارم منداح كالطوفان، هي التي أنتجت ذلك النص الذي أتمنى أن أكتب مثله ذات يوم.

لكم أحنّ إلى الغاليات في مثل هذه الأيام العجاف، إلى أولئك النعناعيات اليانعات اللائي رشقنَ عليّ نظرة في سالف الزمان، ثم توارين خلف المسافات الفلكية النازحة، أو خلف آفاق تواريها آفاق كثيرة أخرى، دون أن يخلّفن شيئاَ سوى اللوعة في قاع النفس. ثم إنهن لم يظهرن بعد ذلك، ولو لهنيهة واحدة. يا إلهي ! ما أقسى هذه الحياة التي نعيش! فالغاليات دوماً مفارقات غائبات. ولست أدري ما إذا كنّ اليوم على سطح الأرض أم صرن في جوفها تراباً أو رفاتاً تحت الثرى والحجارة.

ويلوح لي أن ارتباط الغاليات بتصرّم الزمان، أو بسرعة الزوال وآنية الإنسان، هو الذي يؤجج أُوار الوجد والوجدان في كل نفس مرهفة حسّاسة.

يا ألله ! لكم نحن منذورون للامتاح، أو للذي لا يحدث قط، ولا يعرف دربه إلى الحضور الفعلي! نحنّ إلى ما يرفض أن يكون! أو ينقضي جلّ العمر

ونحن نتطلّع ونتلهّف وننتظر بحرارة، ولكن شيئاً ذا بال قلّما يجيء إلى حيّز التجربة العينية. ولهذا، فإنني أنظر إلى رسائلك بوصفها حدثاً استثنائياً في وسط الفراغ الشامل. ويبدوأن الحياة قررت، منذ مطلع أمرها، أي قبل مليارات السنين، أن تكون دنيئة وفقيرة إلى النبل والشرف.

يا إلهي الطيب ! لماذا كانت الأمور على ماهي عليه الآن، ولم تكن على أيّ نحو آخر ؟

ولكم أتذكّر اليوم أولئك النعناعيات اليانعات اللائي غادرنني منذ عشرات السنين. وعندي أنه ما من أهمية ولا قيمة للذين تتذكرهم الذاكرة وحدها، ولكن الأهمية والقيمة كلّها لأولئك الذين يتذكرهم الفؤاد، ولاسيما من نتذكرهم ونحن ملهوفون. فاللهفة هي أس القيمة أو أمّها، والرحم الذي يصوغها وفقاً لما فيه من زخم وحرارة.

أظنك الآن قد استوعبت ما فحواه أن النفس لا تكتب إلا مكنوناتها الحارة، أو مدّخراتها المرصودة فيها سلفاً. ومن كان بغير مكنونات نفسية كالكنوز فإنه لن يستطيع الكتابة بتاتاً حتى ولو عَنِتَ*.

وأظنّ أنك لستِ بحاجة إلى أي منافق يداهنك، ما دمت قد اكتشفتِ الكتابة من حيث هي عزاء أو عُلالة لهذا الاغتراب الأسود، بل إنك بحاجة إلى شخص معمّق تحاورينه طويلاً، فتتأصل شخصيتك وتترسخ، ثم تصيرين أقدر، لاعلى إنتاج النصوص العظيمة فقط، بل كذلك على التعامل مع شؤون الحياة كافة، إذ لاريب عندي في أن الإنسان يخلقه الحوار. وحيثما اندمجت مسرّة الصداقة بالمعرفة الثرّة والقدرة على اختراق المجاهيل كانت هنالك فرصة طيبة لإنتاج ما هو نادر أو أصيل.

وفي مذهبي أن الشخص المعمّق هو صاحب الوجدان المغترب والضمير الحي بالدرجة الأولى، وأن كل أدب عظيم هو أدب الجحيم، أدب الشوق والحنين، أدب اللوعة واللهفة على ما لا يحضر بتاتاً، وأدب الضيق بالموجود والتطلع إلى المفقود. ولكن أين يمكن لك أن تصادفي ذلك الشخص المعمّق المرهف الحساس ؟ فلا يخفى على أحد أن كل نفيس نادر في هذه الدنيا الدّنية.

وبودّي أن أذكّرك بقول لماركيز الحائز على جائزة نوبل: «الرواية بعد

الستين» وأظن أنه مازال في العمر متسع حتى الآن.

ترى، كيف للإنسان المرهف أن يعيش في زمن بغير شاعر أو رسّام أو روائي أو موسيقار أو فيلسوف أو مؤرخ، بل بغير إنسان كبير مهما يك نوعه ؟ وعندي أن الإنسان الكبير مدفأة يتدفّأ عليها أهل زمانه، أو معظمهم. ولكن ليس هنالك، في الغالب الأعم، سوى انتهازيين وأقزام في هذا العصر الراهن.

أجل، ثمّة أقزام يحتلون حتى المناصب الثقافية نفسها، مع أنهم أمّيون ولا يشبهون إلا الطبول الفارغة. فياله من زمن يكدن العامل ويصعّره في خدمة الخامل، أو يسمح للوضيع باحتلال مكان الرفيع. وهذا هو الوضع الذي سوف تواجهينه في اتحاد الكتاب..

أن يعيش المرء في طور تاريخي بلا عمالقة، أو بغير أناس من ذوي القامات الفارهة الباذخة، أن يُقصى واحد مثلي إلى هامش الحياة، ذلك أمر لا يطاق إلا على مضض وحسب، بل ربما مثلبة لا تتحمّلها الأرواح التي لاتناسبها معاشرة الخواء، أو مقارفة أي شكل من أشكال الاتضاع. ترى، هل يملك عصرنا من القدرة ما يكفي لإنتاج مدفأة يتدفّأ عليها ؟

دمشق في يوم الاثنين الموافق للثلاثين من نيسان سنة ٢٠٠٧

صديقك الذي يتمنى أن يكون صدوقاً بالفعل: يوسف سامي اليوسف

(غداً الثلاثاء يكون القمر بدراً تماماً.)

ملاحظات:

١ - اتصلت اليوم بحسن حميد(*) بشأن اتحاد الكتاب

٢ - رأيت اليوم مقابلة على شاشة التلفزيون أجرتها معي الفضائية السورية. والأمر الذي باغتني هو صورة وجهي الشائخ إلى حد لم أكن ألحظه من قبل.

٣ - إن صورة وجهك في مخيلتي هي صورة فتية ناضرة ولا أدري كيف صارت في هذه الأيام. هل خرمشها الزمن بمخالبه كثيراً؟ ليتك ترسلين صورة لك مأخوذة في هذه السنة الراهنة. ولكن فاتني أن الماكياج يغير صورة وجه

(*) حسن حميد: أديب وروائي فلسطيني يقيم في سورية.

المرأة ويعيدها إلى الشباب من جديد.

ثمّ إنني لا أعرف عمرك بدقة، وأظنك في الخمسين، أو أكثر بقليل.

٤ - إنك قاصة متميزة، وعليك بقراءة يوسف ادريس، ولا سيما «النداهة» و«لغة الآي آي». فأنا أومن بأن ذلك الكاتب يضاهي تشيخوف، إن لم يبذه.

وأخيراً أعتذر عن الاطالة، ولكنني ما أطلت إلا لأن الكتابة إليك شيء ممتع، بل هو إجازة من توتر اللعنة والاغتراب. أتمنى لك الصحة والسعادة والخلاص من كل شعور بالضيق، إن كان ذلك ممكناً بالفعل.

(ملحق)

في المساء، وبعد الفراغ من كتابة هذه الرسالة، طالعت القصة الأولى في "النار الهادئة". إنها قصة جيدة حقاً. فالأسلوب متدفق فياض حتى لكأن الجملة لا تريد أن تتوقف. ثم إنها صورة جيدة عن مثنوية المواطن والسلطة، التي لا تجيد في كل زمان ومكان سوى ممارسة العنف على الناس، مع أنها تتبنى مبدأ معاملة النساء والأطفال باللطف بدلاً من العنف. إن السلطة تفعل نقيض ما تقول تماماً خصوصاً في البلدان المقهورة.

ولكن هذه القصة نفسها لا تخلو من مثالب..فهناك بعض الإفراط في إنطاق بعض الشخصيات باللغة العامية رغم ما تمتلكين من قدرة لغوية عالية. ثانياً – كنت أتمنى أن تأتي النهاية عن (عقم الوزيرة) بطريقة أخرى لا بمد اليد بحثاً عن شيء يتمسك به المرء.

منذ يومين صدر لي كتاب عن وزارة الثقافة عنوانه «مقالات صوفية». لعل في ميسورك أن تحصلي علي نسخة منه في المركز الثقافي العربي / حمص. ولكن بعد مدة من الزمن.

الرسالة (٥)

-٣٦-

أرسل برفقتها صورة عن مقالة (أمل)

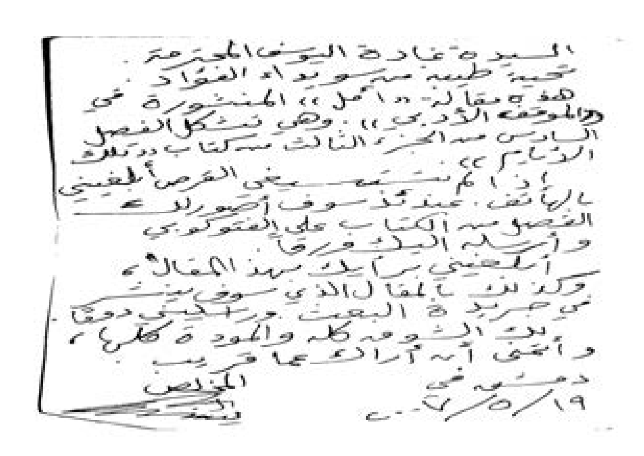
تحية طيبة من سويداء الفؤاد.

هذه مقالة "أمل" المنشورة في «الموقف الأدبي»: وهي تشكّل الفصل السادس من الجزء الثالث من كتاب "تلك الأيام".إذا لم تستسيغي القرص أبلغيني بالهاتف، عندئذ سوف أصور لك الفصل من الكتاب على الفوتوكوبي وأرسله إليك ورقاً.

أبلغيني برأيك بهذا المقال، وكذلك بالمقال الذي سوف ينشر في جريدة البعث. وراسليني دوماً. سوف أرسل لك رسالة مطولة فيها الكثير الكثير. لك الشوق كله والمودة كلها، وأتمنى أن أراك عما قريب.

المخلص يوسف.

دمشق في ١٩/٥/٢٠٠٧



السيدة غادة اليوسف المحترمة.
تحية طيبة من سويداء الفؤاد.
هذه مقالة «أمل» المنشورة في
«الموقف الأدبي»: وهي تشكل الفصل
السادس من الجزء الثالث من كتاب "تلك
الأيام".
إذا لم تستسيغي القرص أبلغيني
بالهاتف. عندئذ سوف أصور لك
الفصل من الكتاب على الفوتوكوبي
وأرسله إليك ورقاً.
أبلغيني برأيك بهذا المقال،
وكذلك بالمقال الذي سوف ينشر
في جريدة البعث. وراسليني دوماً
لك الشوق كله والمودة كلها،
وأتمنى أن أراك عما قريب
دمشق في
١٩/٥/٢٠٠٧
المخلص
يوسف

الجواب (٥)

السيد المحترم أبو الوليد،

صباح الخير،

ولك ألَقُ الأوقات المضيئة يا صديقي وأستاذي.

إذن، هي برهة المعنى، أو إن شئتَ هي انخطافة الحب النورانية القادرة على إحلال المثال في المنظور. وما من وصول إليها إلا بمكابدة ومجالدة. لأنّ "كلّ ماهو نفيس له ضريبة باهظة محتومة كالقدر" كما قلتَ مصيباً.

وإنه وصول، ووصال، يزهر نشوةً، وحدها هي التي تروي صدى الروح في برهةٍ عصيّةٍ على البلوغ، والتفسير. برهة، لايدركها إلا من له نفس تهفو في كل وقت إلى سعادة لا تقاس بالزمن، بقدر ما تقاس بمدى الغبطة التي يسكبها الجميل في الوجدان المدنف. ولا قيمة لعمرٍ لا يتيح لصاحبه مثل هذه البرهة التي تعادل في امتلائها عمراً بأكمله.

وإنه وصول لا يناله إلا كل ذي حظّ عظيم. كل من حمل روحاً شغوفة بالجمال الصرف، روحاً توّاقة للطافة، متساميةً على الكثافة، عصيةً على الغثاثة والتمحّل.

تجوّلت روحي في أمداء "أمل" طويلاً، وحرتُ في تصنيف هذه الدّرة الأدبية النفيسة، وأعياني توصيفها، إلا أنني في كل مرّة أفلحتُ فيها في استعادة نفسي، بعد أن تخَطّفَتْني لآليء سماواتها كنت أتساءل إلى أيّ جوهر كريمٍ تنتمي هذه النفحات ؟ وبظني أنها خارج كلّ تحديد وتوصيف. فمَن، أو، ماهي أمل!؟

ولا أخفيك فقد تجاذبتني الظنون بعد أن انغمستُ بشعاعها وكساني ألقها.

أَهي امرأة وجدتْ ذات اشتعال، ثم غادرتْ واللحظة في أوج ضرامها، لم تترمّد، ولم تنحدر إلى درك اليومي، وشرك المعتاد الذي يحيل السامي إلى فحم منطفيء، وهشيم مما تخلّفه الحرائق التي استهلكت مادتها؟ ولأنها لم تترمّد بقيت

لواعجها في الأركان المخفية من حجرات الروح، في الأعماق القصية، جذوة ملتهبة، قد تخبو أمام انشغالات الضرورة، ولكنها لا تنطفيء حتى آخر العمر. إذ إنها، وعلى غير توقّع، وخارج كلّ قانون قد تنبثق في وجدان العاشق المدنف، ولو بعد طول توارٍ، ولسبب، هو فوق المنطق والعقل يعيد توهّجها، ويمدّه الحنين بما لا يطاق.

هذه اللحظات الوجدية العصيّة على التفسير، والتي تكابدها النفس الباحثة عن الكمال، النزّاعة إلى ما يندّي ضفافها وسط المحل الضارب في الواقع.

إذن، إني أوافقك في أن سلطة الزمن على الأعماق وما يخصّها هي سلطة قاصرة، إذ أن واحدنا، وفي لحظة متفلّتة من كل منطق، تنبعث من أعماقه القصية القصية ما يحيل الواقع إلى غياب وشلل كامل أمام نضارة ما ظنّ يوماً أنه قد مات، ودحرته أتربة المُعاش. فيشتعل حنيناً، ويقطر وجداً، أو يذوب فيما ظنّ أنه اندثر.

وعندئذ لايملك إلا أن يتدثّر بالحنين الذي مَنَحْتَه قيمة يستحقها، وإنها لحقيقة لا تبلى، مؤدّاها: «أنتِ الأجملُ لأنكِ بعدْتِ، وأنتَ الأبهى لأنكَ هجرتَ».

لكنني، وبعد أن داخلتْني (أمل) وطارت روحي خفيفة إلى مدارات أنوارها، حسبت أنها ليست امرأة فحسب، بل هي رمز لبرهة وجد صوفية، تهون في سبيل الوصول إليها مواجدُ الطريق:

«حتى كأن نوراً سماوياً قد اخترق الحجاب المسدل على كنه سريرتي».

«إنها استطاعة فائقة على الكشف عن بكارة الوجود والديمومة الراخمة هاهنا بالقرب من الجميع».

«وإن إنعاش الروح هو إحياء للعالم نفسه. مع أمل، لا يظل الوجود موحلاً وكئيباً».

«حين غابت أمل، لم يبق سوى الظلمات والوحول».

«استطاعت أمل أن تسترد روحي من منفاها البعيد».

إذن، إنها البرهة النورانية، برهة الكشف والوصول التي تسترد الروح من منفاها البعيد. وسواء أكانت أمل امرأة – أشعلت في الوجدان كل هذا الضرام الذي يتوارى حيناً، ويتأجج أحياناً، وما تزيد الأيام جذوته إلا اشتعالاً، وهي الأقدر على أن تأخذ بيدك نحو الكمال – أو كانت برهة وصول يندر أن يجود بها العمر، فالأمر سيّان: فدرب الوصول إلى الفاتن الناعم الحميم هو ذاته ، تقول:

«وما كان للأمر أن يأتي على هذا النحو اللطيف لو لم أتمكن من إقناعها بأنها مصبّ اللهفة واللوعة في آن واحد». فعليك إذن أن تذهب إلى الأشياء من سفحها المشمس. أن تخبر الدرب، وتعرف كيف تضيء.

«أن تتجه إليها على الدرب المسيّج بالياسمين».

ما أعظم وأدقّ هذا القول في الوصول إلى حقيقة المرأة،لتغدو أجمل مافي الوجود، حين يُسعى إليها على الدرب المسيج باللطافات. وما أغنى اللحظة و(البرهة) التي تصل إليها وأنت مزوّد ببصيرة الروح الكاشفة المضيئة.

مابين الممكن والمشتهى، مابين المتاح والحلم تتمدّد الفجيعة. والروح ملحاحة لا ترتوي إلا من العذب، وإن فاضت لها ينابع الكون.

ربما كل ذلك، ولكن، إن كانت هذه هي العين التي ترى فيها المرأة، وهي تجسيد للجمال، وإن كانت هذه هي طريقتك في الوصول إلى ما يحيل المرء إلى برهة زمنية نادرة، إذن، لتمنّت النساء جميعاً أن يكنّ (أمل). فكم أنت مبصر يا صديقي، وكم تكابد المرأة اللائبة على المعنى من عماء الرجال. وشتّان بين ما هو مؤنس وسيم وحميم وبين ما هو موحش ودميم. كما قلت.

أشكرك على نافذة ألقٍ، غمرني ضياؤها حين قرأت (أمل).

هذه صورتي في شباط ٢٠٠٧، والصورة التي على غلاف مجموعة (على نار هادئة) تعود لعام ٢٠٠٥، وليس لنا أن نوقف زحف السنين، وما تتركه على أرواحنا ووجوهنا من آثار مخالبها.

لك الودّ كلّه.

ملحق:

بعد أن انتهيت من هذه السطور، أتاني هاتف أحالني في لحظة أثيرية إلى ديمة فرح. فقد اتصل بي مكتب السيد حسن نصر الله المباشر، وشخصياً، يشكرني على مقالاتي، وقد أهديتها له. وأخبروني بأنه فخور بي، وعجبت للمترهلين عجرفةً وكسلاً في مكاتب (الثقافة) ومنابرها هنا، وقد بدوا ساعتئذ مسوخاً بشرية مرتبكة متلعثمة في صَغارها. هذا، وقد وجّهوا لي دعوة باسمه إلى قناة المنار، وتركوا لي حرية اختيار وتحديد الوقت. وأنا الآن في غاية الحبور والغبطة.

وهاأنت أوّل من شاركته فرحي وزهوي، وأول من أبلغته هذا الأمر. ولقد كنت قد زرتُ الجنوب اللبناني في أيار الفائت، ورأيت الجليل. وسأكتب لكم مطوّلاً عن تلك الرحلة. فـ(أمل) أخذت كل المساحة الآن..ويحق لها ذلك.

لك التمني بالصحة والطمأنينة:

«يكتفي الزنبق في صحرائه بندى الفجر وأنسام المغيب» كما قال الشاعر عمرأبو ريشة.

صديقتك المحبة

غادة

حمص في ٢٠٠٧/٦/٨

الرسالة (٦)

السيدة الفاضلة غادة اليوسف

لك التحيات الطيبات كلها

فور الفراغ من قراءة رسالتك المؤرخة بتارخ الثامن من حزيران (وهو اليوم الذي توفي فيه الرسول)، وذلك إثر بلوغها إلى يدي عند انتصاف هذا اليوم تقريباً، وجدتني أكتب رداً بكثير من التلقائية، وذلك استجابة لنداء الحوار مع الأقاصي والوصال مع الآفاق والنائيات. ففي الحق أنني أتوق ملهوفاً إلى استلام رسائل من أي امرىء، حتى لو كان من الكائنات اللاأرضية التي تعيش على كواكب قصيّة تقع خارج مجرّتنا، وتفصلها عن كرتنا الدنيوية مسافات لا ترضخ للقياس..

عزيزتي،

ها أنا ذا أشعر بالفرح والسعادة لأنك سعدت باتصال مكتب نصر الله بك وإبلاغك بأنه شاكر لك، وبأن قناة المنار مفتوحة أمامك متى شئت. وإنني فرح لفرحك فقط، إذ إنني لا أحب التلفزيون، بل أعتقد بأن البشرية قد اخترعت هذا الجهاز حين قررت أن تتضع وتنحط. وعلى أية حال، ينبغي أن تتصلي بي هاتفياً قبل ظهورك على الشاشة، وذلك بغية تبليغي بموعد المقابلة، كي تتاح لي فرصة مشاهدتك وأنت تتكلمين. وحدّثيني كذلك في رسالتك القادمة، عن زيارتك للجنوب اللبناني ومشاهدتك للجليل الذي ولدتُ فيه. حدّثيني بالتفصيل المسرف الدقيق، فأنا لا أملّ من سماع صوتك، ولا من قراءة ما تكتبين. فأنا أنتظر رسائلك بفارغ الصبر. ثم إنني قد تأمّلت صورتك ورأيت أن الزمن لم يؤثر على وجهك إلا قليلاً جداً. ترى، أليس للمكياج أي دور في ذلك؟ ولقد كنت أتوقع أن ترسلي صورة كبيرة بعض الشيء (كرت بوستال) وعليها إهداء منك إلي

شخصياً، وبصحبة الاهداء عبارة طرية منعشة. حبذا لوتفعلين ذلك، إذن سوف أشعر بالتجدد والانبعاث.

أمّا بخصوص أمل التي ساورتك الريوب من أجلها، أو ظننتِ بأنها من بنات الخيال، فأنا أؤكد لك أنها كائن من لحم ودم، وأنها مازالت حية ترزق، وأنني حدّثتها عنك أكثر من مرّة. والأهم من ذلك كله أنني مابرحت أكن لها أحرّ حنين يمكن لرجل أن يكنّه لامرأة، مع أنني لا تفصلني عن السبعين اليوم سوى سنة واحدة. ويخطر لي أن أطلب منها أن تكتب لك رسالة لتحدّثك عن نفسها.

ولكن تلك المرأة التي أسميها السمراء، وذلك لكي لا أصرّح باسمها المقدّس عندي، والتي لشدة فتونها وسحرها وقدرتها على الجذب والخلب، أستهجن كيف لا تتفجر الأرض عيوناً وينابيع دافقة إذا مشت عليها بقامتها الباذخة الهيفاء. إن السمراء جرحي النغّار الذي لايندمل ولا يلتئم، بل يثابر على النزيف طوال السنوات الخمسين الأخيرة.

أيتها السيدة العزيزة الفاضلة،

لا أحسبني حدّثتك سابقاً عن المشوار السنوي الذي أقوم به كلما أطلّ نيسان الدافيء الحنون، إلى نهر الأعوج، على طريق السويداء، بعد بلدة اسمها "خربة الورد" القريبة من نجها المعروفة. ولقد ذهبت إلى هناك في نيسان الأخير، ولكنني أصبت بالإحباط حين وجدت النهر جافاً هذه المرة، كما أنني لم أشاهد شقائق النعمان الفاتنة الحمراء، والتي اعتدت أن أراها كل ربيع في ذلك المكان نفسه. ما من ماء وما من زهور برية في برهة الازهرار وتفوّر المياه وجيشان الجداول والأودية. فالمطر لم يكن غزيراً في دمشق خلال الشتاء الأخير، بل جاء نزيراً شحيحاً إلى حدّ لا يبعث السرور في جوف النفس.

ومن عاداتي أنني أبحث عن الصوادح المترنمة بمجد الله، ولاسيما العندليب، في غوطة دمشق كل سنة، وذلك سعياً وراء شيء من القوت أسدّ به هذه المسغبة الروحية، التي لا إشباع لها قط، أو ربما من أجل الاستيطان في برهة المعنى على وجه الحصر.

في الماضي كنت أفعل ذلك سيراً على الأقدام، أمّا اليوم فأجوب البساتين، أو طرقاتها، بالسيارة. ولكنني لم أفلح في العثور على أي صادح أثناء نيسان الأخير. ولقد باءت بالإخفاق جميع الجهود التي بذلتها من أجل ذلك الغرض النبيل. وإذ أبذل هذه الجهود كلها فإنني أحاول أن أحقق هدفين أمّا الأول فهو إطلاق إسار النفس المشكومة بالمياومة ورتوبها الممل، وأما الثاني فهو البحث عن قيمة أتخذها محوراً لحياتي، وذلك لكي تتمكن روحي من الامتزاج الحميم بالوجود على نحو شاعري أو جمالي أصيل. وقد تهدف هذه الجهود نفسها، في المآل النهائي، إلى إرواء وعي الثمالة، وهو تلك الماهية الوجدانية التي تسعى إلى التّماس الرهيف مع الوجه الأثيري للتجربة البشرية. لكأن ثمة عنصراً نفيساً غائباً أو مفقوداً، عنصراً من مملكة اللباب، والنفس تلوب عليه وتطوف دون انقطاع، فضلاً عن أنها لا تني تحن إليه طوال حياتها.

ولكنني في أواسط شهر نوار، رحت أتجوّل ذات صباح مشمس في حديقة تشرين، فأنتشي بالروعة المحايثة للأشياء، ولاسيما للزهور وألوانها البهية المبهجة، وأتفكّر بالوجود وتفاصيله، وكذلك بمذراة الزمن التي سوف تبعثر كل حياة بدداً، ولو بعد حين. وفي غضون التأمّل أو التذهن المتجدد باستمرار، فإنني كثيراً ما أشعر بأن الكائنات تستل حقائقها من أجوافها وتناولها لعقلي المنهوم. ولكنني أشعر في أحيان أخرى بأنني قد أُرتِج عليّ حتى لاأعود أفقه شيئاً البتة.

لك البرهة المحظوظة، ودون أي توقع سمعت صوتاً خلاباً لعله أن يكون أجمل صوت يمكن لأمّنا الطبيعة المبهاج أن تنتجه، أو أن تقدّمه هدية نفيسة لأعصابي المنهكة. ولا أظنه إلا صوت العندليب الذي طالما سمعته ورأيته في غوطة دمشق منذ زمن طويل. ولكنني لم أشاهد الطائر نفسه لأنه كان يتوارى بين أغصان الأشجار الباسقة الخضراء، بينما تصدح أنغامه فتملأ الفضاء بالعذوبة والفتون.

وبالصدفة الخالصة مرّت امرأة أعرفها منذ غابرات السنين، وأدري أن لها

خبرة في طيور الأقفاص، ولاسيما الكنار والحسون. وأدهشها الصوت كما أدهشني، فوقفت تصيخ السمع وتستمتع بما يهبه من نشوة مريحة للنفس المكدودة. وبالمناسبة، كانت لتلك المرأة في سالف زمانها أُخذة وقدرة على الاستيلاء، بل حلاوة من شأنها أن تشق المرارة، على حد عبارة ابن الفارض، الذي أطالعه بشراهة في هذه الأيام. فثغرها يومئذ مثل برعم الورد، أمّا وجنتاها فخوخيتان شهيتان إلى حد من شأنه أن يلوّع الأفئدة الرقيقة العاجزة عن مقاومة الجمال.

وسألتها عن ذلك الصوت المشحون بالعذوبة والسلاسة، ولكنها فاجأتني بأنها تجهل ماهيته أو هوية مصدره. ثم انصرفتْ وتركتني وحيداً أستمتع بما للطائر من قدرة على الانعاش والاجتذاب، بل قد أجيز لنفسي حق الزعم بأنه عزاء أو إجازة من هذه اللعنة الكربلائية التي تُغمّس الأرض كلّها في هذه الأيام.

وفجأةً نعق غراب كان يقف واضحاً على غصن إحدى أشجار السرو الفارهة، فما كان من العندليب إلا أن سكت ولم يُسمع قط. هكذا بالضبط، يخنس المليح حين يهيمن القبيح. وهكذا يرسّخ الوجود في نفوسنا حنيناً دون أن يمنحنا إلا القليل من العناصر القادرة على الاستجابة لهذا المطلب الروحي الأصيل، ولا أقول إلى إشباعه أو إروائه، إذ لا شبع ولا ارتواء إلى أبد الآبدين. كما أن المتعة هي نصيب المتضورين، وليس للمتخمين في المتعة نصيب. فالمتعة من شأنها أن تتناسب طرداً مع درجة التضور وعكساً مع درجة التخمة والاشباع.

يا إلهي ! لكم هو فرق شاسع ذاك الذي يفصل بين الصادح والناعق. ولكن عزائي في تلك البرهة أن العالم لا يتألف من الغربان وحدها، بل كذلك من البلابل والقنابر، أو الطيور المفعمة بالسلاسة والعذوبة ودماثة الروح. فلا مرية في أن هنالك الكثير من الماهيات الصافية الرائعة التي نلتقيها دوما عند ينابيع الأشياء.

أوَ يعقل أن لايكون هناك سوى يهود وأمريكيين واغتراب وتلوّث وشرور

وشناعات تعربد في كمل مكان على الأرض؟ لا، لايعقل ذلك البتّة، ولو أن هذا العالم كثيراً ما يغفل الأصالة ويحتفي بالنذالة أيّما احتفاء. فثمّة خير وحب وجمال في هذه الدنيا المثتوية التي شوّهتها الخساسة وأفسدها العدوان والمقاصد السوداء. وفضلاً عن ذلك، فإنه عالم بغير أسانيد متينة، فلا يثق به إلا من كان موهون العقل والتفكير. ويلوح لي أنه عالم ينتشي بغوغائيته وهمجيته وجنوحه صوب التفاهة والابتذال دونما انقطاع. يقيناً، ما من شيء يرعبني كما ترعبني غوغائية عصرنا الوثيقة الصلة بالبذاء والانتضاع.

وفي عالم اغترابيّ، بل كربلائي، لا يملك الانسان الحساس أن يعيش إلا في جوف العسر والمشقّة، أو لنقل إن الهناء والسعادة لايمسّان المرء إلا بمقدار ما يخس من عقله بالضبط. ولهذا، فإن نتفة من اللاعقل (الجنون، البلاهة...إلخ) هي حاجة ماسة كي يتمكن الإنسان من أن يتحمّل هذا الشقاء كلّه. وههنا أتذكّر قول ابن عربي: «الحمد لله الذي أكمل العالم بالنقص». فلولا ولوج النقص إلى بنية العالم لما كمل العالم بتاتاً. وعندي أن هذا المبدأ يصح بالدرجة الأولى على العقل نفسه. فلو لم يخالطه شيء من اللاعقل لانقرض الانسان منذ زمن بعيد.

وربما كان ذهابي إلى نهر الأعوج وبحثي عن شقائق النعمان، وكذلك عن الصوادح والطيور الملوّنة، ضرباً من ضروب اللاعقل، ولكنه اللاعقل الذي يمكنّني من الاستمرار في هذا الوجود الموبوء باليهود ومن والاهم من الأمم العدوانية الشريرة.

غادة، يا غادة، أكاد أن أموت من الضجر، أو من الشعور باللاجدوى، إذ أشعر أنه ما من شيء يستحق أن يُفعَل، وذلك لأن الكائنات شاغرة خالية خاوية لا يأهلها أي محتوى ذي بال. وهذه رعشة وجدانية داعت بها نفسي دون أن أقوى على الخلاص من سطوتها المدمّرة لكل شعور بالسعادة أو بهدأة البال. وفي الحق أنني أطرح على نفسي هذا السؤال باستمرار: أما من علالة لهذا الاغتراب المرير؟

وفي مخيلتي أن هذا الشعور الخانق هو الذي يحضّني كلما جاء نيسان، على

الذهاب إلى نهر الأعوج لأبحث عن الماء وشقائق النعمان، أو عن الأنس والمسرّة حصراً، حتى لكأنني، بهذه الممارسة الحدسية أو الالهامية، أحاول أن أخترق كثافة السديم وصلادة المعطى. كما أنه يحثني على التجول في الغوطة علّني ألتقي بالعندليب، أو بالوسيم الأهيف الذي لابد من التناسم معه، بين الفينة والأخرى، وإلا فإن مذاق الحياة سوف يكون مريراً لايطاق. فربما جاز لي أن أزعم بأن الجمال هو الدواء الوحيد لآفة السأم المكربة، أو لداء الشعور باللاجداء، وإن كان هذا الدواء لايزيد عن كونه مسكّناً آنياً وحسب. وفي سواء هذه العزلة الفاترة الكامدة، تمر بي الساعات وئيدة بليدة لامكنون لها ولا مضمون. وأقف كثيراً إلى جوار النافذة، أطل منها على الشارع، فأشاهد الحياة في تدفقها الحي المستمر، أو حراكها الدائب الدائم الذي يجهل الكلل أو الملل. وإني لأجد في ذلك تسلية وشيئاً من المتعة، لأنني أميل إلى الركود مني إلى الحركة هذه الأيام. ومع ذلك، أراني أؤمن جازماً بأن على الظرافة أن تتحمل الجلافة، وبأن الروح ما وجد بهذه الدنيا إلا ليكابد ويطيق. وقد يسعفني هذا الاعتقاد ويساعدني على الصمود الراسخ حين يتوتر اللامعقول ويحتدم ويعرم كما يعرم البحر وينتفخ تحت سياط العاصفة الهوجاء. وفي هذا القول ثمّة إشارة إلى المرض، و ليس إلى أي شيء آخر. (في التاسع عشر من نوار الأخير كنت في غرفة العناية المشددة في مشفى فلسطين).

وعلى أية حال، ها إنني أعيش ذاوياً ذابلاً مُهملاً مُغفلاً، مهجوراً على حاشية الدنيا، أو مطروحاً فوق رصيفها الضيق لأتعفّن في الظلال الرطيبة المنسية، "كأنني مصحف في بيت زنديق"، على حد عبارة واحد من شعراء بغداد الأقدمين، وهو من نفته مدينته إلى أقصى المنافي، ولكن دون أن يغادر جوفها الشاسع المنداح كالهاوية بالضبط.

فأنا أمضي معظم النهار في ممارسة الثؤباء، وذلك لأنه ليس ثمة من عمل يستحق الانجاز. فما عدت قادراً على المطالعة المطولة كما كنت من قبل، وذلك بسبب ضعف البصر الذي أصابني في الفترة الأخيرة. ولكنني أحلم دوماً بسكينة صافية ساجية لايمازجها أي حراك بتاتاً. ويلوح لي أن الكون قد ابتكر العقل لأنه يبتغي وعياً يعيه أو يدرك صورته، ولكن فاته أن الوعي الذي

يعي هو نفسه الذي يرفض ويشمئز ويتنكر. وعندي أن قوة رفض الوعي للوجود تتناسب طرداً مع قدرته على الاستيعاء بالضبط، وربما مع قدرته على طرح أسئلة اغترابية مريرة.

بمناسبة ذكر ابن الفارض، أود أن أنصحك بقراءة ديوانه، ما دمت تمارسين الكتابة، وذلك لأنه شاعر جليل وأصيل حقاً. فأنا أطالعه منذ أيام الصبا الباكر وحتى العهد الراهن. وربما لم تكوني قد ولدتِ يوم تعرفت عليه في شهر أيلول سنة ١٩٥٥. ولم أنفك عنه قط في أية سنة من السنين. ولعل أولى مزاياه أنه يعلّم مريده اللطف والحنين كليهما. ولا غلو إذا ما زعمت بأن ابن الفارض أستاذ في علم الحنين والاشتياق. أمّا ديوانه فمتوفر جداً في معرض الكتاب الذي بات وشيكاً بعض الشيء.

وعندي أن أولى مهارات الكاتب الأدبي تتلخص في أنه يعرف كيف يسوس الجملة بحيث تتبدّى حيّةً سائغة مشرقة أو مشعّة، وذلك لأنها بزغت من سويداء الفؤاد، وليس من جلد كاتبها. فما توهّجت وما تألقت إلا بعدما زرف فيها من حرارة روحه ونضارتها ما يكفي لجعلها البهاء بأم عينه. نعم، سياسة الجملة، أو كيفية صوغها على نحو تلقائي، هي المبدأ الأول في كل كتابة أدبية ناجحة. ولا ريب أن رونق الجملة، أو اللغة بأسرها، ليس سوى نتاج لرونق الروح التي تنساب في شرايين الكاتب مع دمائه الحمراء. وبالرونق، أو بالنضارة الحية، فإنها تستجيب لمطالب الذائقة والحساسية، أو تكون قد صدرت من نواة الصميم حصراً.

وفي الحق أن ابن الفارض يعيش مفارقة في مضمار سياسة الجملة. فهو كثيراً ما ينجح في هذا المضمار، ولكنه كثيراً ما يخفق في الحين نفسه. بيد أنه إذا نجح جاء بإنجاز شعري جليل عظيم حقاً. وأنا شديد الاعجاب ببعض قصائده، ولاسيما الجيمية والسينية والكافية واللامية (هو الحب فاسلم بالحشا....) وكذلك الميميات الثلاث، وأخص بالذكر الميمية الثانية التي تبدأ هكذا: «أدر ذكرَ من أهوى، ولو بملام». وعندي أن الأبيات الخمسة والأخيرة

من هذه الميمية هي إنجاز شعري نادر في تاريخ الأدب الصوفي كله. أمّا الميمية الخمرية فهي شامة على خد الدهر. ولايقوى على مثلها إلا الأقوياء.

كما أنني أنصح بقراءة كتاب آخر، مسرحية "فاوست" للشاعر الألماني غوتة. فهذا كتاب يملك أن يرسل الخيال، كالباز الأشهب، بل مثل البرق الخاطف، إلى جميع الجهات بحثاً عن صور حية عظيمة قلّت نظائرها في جميع كتب الأدب، فلا ينتج مثلها إلا حساسية تمرّست طويلاً في هذا الفن اللطيف الشريف. وربما استطعت أن أحصل على نسخة منه في معرض الكتاب، هذا إن كان متوفراً هناك، وإن لم يقعدني المرض فيحول دون ذهابي إلى المكتبة في أيام المعرض. ومما هو جدير بالذكر أن لدي ترجمتين انجليزيتين لهذه المسرحية النفيسة، وقد حصلت عليهما قبل حصولي على الترجمة العربية. ولقد طالعته بالنصين العربي والانكليزي عدداً من المرات لا أدريه. والأهم من ذلك أن لدي قدرة على أن أحاضر عن غوتة، أو أن أكتب مقالة موسعة لأعرّف الناس به، ولكنني أشعر بأن ليس ثمّة من يستحق أن يسمع مثل هذه المحاضرة أو أن يطالع مثل هذه المقالة المفترضة. ومما يؤسف له حقاً أنني لا أعرف من يملك أن يحاضر بكفاءة عن المنجزات الكبرى للآداب الأوروبية.

والآن، أود أن أسألك عن كتاب لي عنوانه "مقالات صوفية"، هل وصلتك النسخة التي أرسلتها إليك ؟ولقد كتبت مقالة جيدة عنوانها"المبدأ الصوفي وعلاقته بالشعر الحديث"، ولا أدري أين سوف أنشرها، ولا متى سوف تنشر. فإن شئت أرسلت إليك صورة عن المخطوطة لتطلعي على ماجاء فيها من أفكار ،ثم لتبلغينني برأيك فيها، فأنا أثق بك وبرأيك إلى حد بعيد، إذ لاريب عندي في أن دماغك مشحون ببعض الطاقات الاستثنائية.

المخلص لك جداً يوسف سامي اليوسف

دمشق في يوم الثلاثاء ١٢/٦/٢٠٠٧

الرسالة (٧)

عزيزتي غادة اليوسف الفاضلة،

تحية طيبة وبعد،

لم أتلقّ منك أية رسالة منذ أكثر من خمسة شهور، إذ إن آخر رسائلك إلي مؤرخة بتاريخ الثامن من حزيران (٢٠٠٧). ومع ذلك، فلا ضير في أن أبادرك برسالة بعد هذه القطيعة الطويلة، فأنا أحب كتابة الرسائل وأرى فيها اتصالاً بالبعيد، أو حواراً مع الغياب. والأهم من هذا أنني أبتهج كثيراً، بل يساورني الشعور بالغبطة والمسرّة، حين أكتب إليك حصراً. فلقد تركتِ في ذاكرتي انطباعاً مريحاً منذ ربع قرن، أو زهاء ذلك. أوَ يعقل أننا لم نلتق منذ جيل على وجه التقريب!؟

كأني بك قد كتبت بعض المقالات حول الحرب التي دارت في العام الماضي بين حزب الله وبين ذلك الكيان الزائف الذي أسميه عادة باسم الغيتو الصهيوني. وبهذا الخصوص، أود أن ألفت النظر إلى وجوب الكشف عن تلك المفارقة الحادة التي يعيشها ذلك الغيتو، وهي أن الهدف ضئيل حتى درجة القماءة، أمّا الوسائل التي استعملت في سبيل إنجازه فهي من الضخامة بحيث لا تبذّها، بل لا تضاهيها ولا تدانيها، أية وسائل أخرى بتاتاً. فبريطانيا والويلات المتحدة هما ثنتان فقط من تلك الوسائل الجبارة التي تم توظيفها من أجل بناء ذلك الغيتو العقيم السقيم الذي لايساوي قشرة بصلة، كما يقول أهل ضيعتنا حين يريدون الإزراء بأي شيء، أو الغض من قيمته وتخفيضها.

ناصع تماماً في أن الغربيين قد أفرطوا تماماً في لعق أحذية اليهود، دون أي شعور بما يثلب القيمة والكرامة.ويبدو أن ضمائرهم قد تجمدت أو ترمّدت بالفعل. وإني لأعجب أشد العجب حين أراهم يكدنون أنفسهم كالثيران المعلوفة

ليخدموا كائنات شائهة شاحبة، ألوانها ممتقعة صفراء. وهذا يعني أن الصحة هي التي تفتدي المرض وتموت بالنيابة عنه. وبما أن الانسان الأورو أمريكي قد تطوع ليخدم يهودياً ذاوياً سقيماً يشبه الطُرح، فإنني أخوّل نفسي كامل الحق في أن أحدَّ ذلك الكائن بأنه الموجود من أجل اليهود.

ثمّ هل أخرج عن سمت السداد إذا ما صرّحت بأن جورج بوش، ذلك الإمّعة الذي لايحل ولا يربط شيئاً سوى سير حذائه، هو أغبى رئيس لأغبى أمّة أخرجت للناس؟ ويُخيّل إلي أن الإنسان الغربي يوشك أن يخسر تلك النتفة من الوعي المترسبة في جوف دماغه.. وإذا ما خسرها، فإنه لن يظلّ قادراً البتة على أن يدرك ما يفعل. وعندئذٍ سوف يتحول إلى قوة تدميرية إبليسية، إذا عربدت فإنها لاتشكمها أية شكيمة قط. فمما لايخفى حتى على الأطفال أن الغربيين قد جعلوا الأرض كلها صنفاً من أصناف الكربلاء حقاً.

لكم يؤرقني، بل يكربني، ما يجري اليوم في العراق وفلسطين وأفغانستان من المجازر والكوارث، على أيدي جنود تلك الأمة الأمريكية المأفونة المسعورة، التي يتحكم بها كلف هوَسي أو وسواسي بالقرصنة والإرهاب وسفك الدماء. وربما جاز الزعم بأنها تمارس الإبادة على البشر لتعوض عن إفلاسها الروحي المريع. فلعل من شأن هذه المصائب التي ينتجها سعار محموم يتفجر كالبراكين أن تخثّر الدماء في عروق الحسّاسين، وأن تجعل الحياة تجربة لا تستحق أن تعاش بسبب ما يأهلها من اللاعقلانية والشرور والآلام الموجعة.

وفي مذهبي أن الشر والألم هما الكلمتان السيدتان في المعجم البشري كله. ولهذا فإنني أحترم البوذا أيما احترام، فهو الوحيد الذي انبثقت ديانته من الألم حصراً، ولا سيما الفقر والمرض والشيخوخة والموت

وكثيراً ما أتخيل أنه لاوجود في هذا الكون إلا لثلاثة كائنات، وهي الشروالألم وأنا المسحوق بينهما. ولكنني قانع أشد القناعة بأنه ما من شيء عظيم أو جليل على الأصالة سوى الألم أو الوجع البشري الذي يغلغل في صميم النفس حتى نواتها القصوى. كما أذهب مع المذهب الرواقي العظيم إلى

أن السجية الأولى للنفس النبيلة هي السمو أو التعالي فوق كل ما يجري على الأرض، سواء أكان من فصل الخير أم من فصل الشر. وعندي أن الانسان الكبير هو ذاك الذي يزدري الحياة والموت على السواء.

وإني لأعوذ بالماضي من هذا العصر الشرس الذي أراه عصر اللاشيء وحده. وأعتقد أن ماضي البشرية هو فردوسها المفقود الذي خسرتْه إلى أجل غير مسمّى. فلا يليق بالآداب الرفيعة أن تنتسب إلى هذه الأيام الخالية إلا من المال والسلاح والدجل السياسي. ففي البداهة أن عصر القتل وسفك الدماء وتوثين البضائع، وتأليه المال، لايملك البتة أن ينتج شيئاً من الساميات إلا وفقاً لناموس الاستثناء وحده. ومعظم الذي أنتجه الجيل الأخير من نصوص أدبية لايزيد عن كونه لغواً وهلوسةً معوقين وخاليين من كل ماهو ذو بال، وذلك لأنه يفتقر إلى نضارة الروح وما يفعمها من أنساغ هي بمثابة الدم لجسم الانسان.

ولعل المال الذي يؤسس الاستهلاك ويتماهى معه أن يكون السبب الأول لهذه الجرائم وهذا الاتضاع الثقافي معاً. نعم، إنه المال الذي قال عنه أحد الكتاب الغربيين: "يزوج الجمال بالجذام الأزرق."

ولأسباب عديدة أراني مشدوداً إلى الصوفية وإلى الشعر القديم الذي يملك أن يقنع المرء بأن الشاعر روح تعتلج في فضائها اللواعج وتساورها العواطف الانسانية والألطاف الهنيئة الصافية. فكثيراً ما أتخيل الشاعر القديم وهو يرتدي حللاً قشيبة، خضراء أو زرقاء، ومفوّفة بالأبيض أحياناً، مما يتناسب مع كائن أثيري رفيع ومبهاج. إنه مخلوق تتحقق إنسانيته بالمواظبة على توسيع المسافة الفاصلة بين البشر والبقر. فعندما يحن ابن الفارض إلى ربا نجد، أو عندما يغازل سواها من مواطن الحنين القصية الموحية بالشوق إلى ما لاينال ولا يطال، أو تلك الأماكن العزيزة التي تناديه على نحو حميم، فإنه يبذل جهداً جاداً بغية تكثيف شكل فنّي يملك أن يحتقب الحنين الدافيء إلى المحال. ولكم كانت الصوفية رائعة حين أوحت بأن التناسم مع الوسيم هو واحد من أمتع المسالك التي يسلكها الانسان.

وبمثل هذا الموقف الفاخر، أعني الاستجابة لنداء النائيات، يبرهن العقل لنفسه على أنه لطيفة كريمة، أو سر من أسرار هذا الكون الذي لايُسبر لها غور، ولا تعنو إلى تفسير أو تأويل. فمن أين جاء هذا العقل المتضرّم الشاسع المنداح، والمشع كالكوكب الدري، ليزري بالوجود الذي شرَطه وجعل كينونته أمراً ممكناً بالفعل؟ كيف تمكنت هذه المادة الخسيسة الجامدة أن تنجبه، مع أن هويتها مضادة لهويته تمام التضاد؟ أليس من الغرائب أن يعجز الذهن عن تبيّن الينبوع الذي نبع منه؟

ولعل مذهب اللياذ بالماضي أن يكون الدافع الذي دفعني إلى رؤية ابن الفارض بوصفه استاذاً كبيراً في الذوق والشوق، أو في علم الحنين إلى ما يند عن كل شكل من أشكال الاتصال. فلكم هو منعش ذلك الصوفي الذي يقول:

يحشر العاشقون تحت لوائي وجميع الملاح تحت لواكا

أو يقول في إشارة إلى الهي المطلقة، رمز الحقيقة الكلية:

لها صلواتي في المقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلّتِ

إنها الصوفية التي لا تعنى بشيء قدر ما تعنى بالوجدان والضمير والاستسرار، أو بالقوى الراخمة في العمائق والأغوار.

وبفضل ذلك الشاعر الصوفي على استيلاد السمو في النفس كما تستولد النحلة الشهد من رحيق الزهور ويخضورها، فإنني كلما قرأته أشعر بأن الأبدية لن تمحو شعره من النفس، كما أشعر في الوقت نفسه بوحدة الجمال والسمو، أو الأخلاق، بل إنهما اسمان لمسمى واحد بعينه. فهل أنت أيتها السيدة الفاضلة، مع كيركجور القائل بأولوية الأخلاق على الجمال، أم مع أوسكار وايلد القائل بأولوية الجمال على الأخلاق، أو مع ابن الفارض الذاهب إلى وحدة هاتين الماهيتين واندماجهما التام؟

ويبدو لي أن هوى متقداً مشبوباً يكمن خلف شعر ابن الفارض كله. ولهذا قال القاشاني في شرحه للتائية الكبرى، وهو المسمى «كشف الوجوه الغر لمعاني

-٥٣-

نظم الدر»: «لايجوز لك أن تقرأ ابن الفارض إلا بواسطة الفؤاد». وأنا أقول لا يجوز لأحد أن يقرأ الشعر كلّه إلا بواسطة الفؤاد. إنني لا أملّ الحديث عن ابن الفارض لأنني أحبه الحب الآسر، وذلك لأنه يستجيب للحنين الذي يدخره قلبي.

وتحت تأثير الصوفية، فإنني كثيراً ما أشعر بأن جميع أسرار الكون قد دخلت إلى غرفتي وجلست حولي بكل وقار وجلال، ثم راحت تخاطبني بلسان فصيح ومبهج فتنبعث الطمأنينة في روحي، بل لعله أن يولج الروح في الرغد الجوي والرفاه الوجداني الهنيْ. ولكن هذا كله لا يحدث إلا بفضل الاستعداد الذاتي، إذ لئن لم تشرق نفسك، فإن الشمس، حتى الشمس، لن تشرق أيضاً.

الجمال أخلاق، والأخلاق جمال. أحسنت، يا بن الفارض، أيها الشاعر الجميل النبيل. وهو يوميء إلى هذا المعنى كثيراً، ولاسيما حين يقول في التائية الكبرى:

هي النفس، إن ألقت هواها تضاعفت قواهـــا، وأعطـــت فعلَهـــا كـــلُّ ذرّةِ

وفي سواء هذا الحصار، فإن المرء قلما يصادف شيئاً من شأنه أنه يهب الروح ذلك الرّواء الناعم كالقطيفة، أو الشبيه بالهمس الدافيء الحنون، الذي يُشتَهى كما يُشتَهى الترياق. فحيثما غابت العذوبة حل العذاب، وإذا ما افتقرت الأشياء إلى السلاسة والغضارة، حصر انطفاء أو محاق، بل ذَوَاء أو هرم كامد مقيت.

ولئن لم يبصر المرء من داخله أو بواسطة عين فؤاده، وفقاً للمذهب الصوفي، الذي أراه وقفاً على النفوس المطهمة وحدها، فإنه ما من أحد يملك أن يجعله قادراً على أن يبصر بتاتاً. وفي حسباني أن هذه الفكرة هي المبدأ الأول الذي تنبثق منه نظرية المعرفة في البوذية، التي هي ديانة صوفية سُداةً ولحمةً، والتي هي ديانة سامية أنتجتها العبقرية الهندية الرائعة، أو نسجها اللطف الأزلي النبيل. وخلاصة مزيتها أنها لا تصادر حرية المرء، كما أنها لا تسمح لأحد بأن يلغي شخصيته أو فرديته التي لا تقبل التكرار.

فأنت لابديل لك، ولا يملك أحد – حتى البوذا نفسه- أن ينوب عنك في أي موضع من المواضع. صحيح أن البودا في نظر تلك الديانة، قد بلغ إلى

حيث ترخم الحقيقة النهائية بالضبط، ومع ذلك فإن عليك أنت بدورك أن تنجز تلك البرهة أو المهمة نفسها، وبواسطة فعل التأمل العميق الذي مارسه البودا نفسه. ومن أبرز الأدلة على شدة حساسية تلك الديانة ذات الوجدان الحي أنها تنطلق من هذه الحقيقة المؤكدة، والتي لاينكرها إلا المعاند وحده: الشقاء يحايث الحياة دوماً، ولاينفك عنها دهر الداهرين.

وفي مذهبي أننا إذا ما ابتغينا البلوغ إلى حيث تكمن الحقيقة، وإن تكُ حقيقة نسبية، إذ لا أعرف شيئاً صرفاً قط، فأن علينا أن نكون من شيعة الليل، أو من أنصاره وعشاقه، ثم أن نصبّ جل اهتمامنا على ذلك الفحوى المستتب في السكينة والقصاء. ولعمري، إن هذه هي الصوفية في أدق معانيها، وفقاً لما أتخيل أو أتوهم، أو إن هذه هي صوفية النفري، على وجه الحصر والتحديد.

عزيزتي،

حين أكتب إليك أنت، فإن رغبة في البوح، أو في النفح والتضوع، تأخذ بالتدفق في فضاء نفسي التي تصير، لبرهة وجيزة، أشبه بزهرة يانعة في قلب الربيع، وذلك بسبب الصورة اللطيفة التي كنزتْها الذاكرة عنك منذ سنين. ويخيل إلي أنه ما من شيء يسعه أن يثمر كما تثمر بذرة اللطف الأزلي الذي من شأنه أن يمغنط الأشياء فيحيلها إلى هناء.

وفي الحق أنك تخطرين في البال كثيراً، وذلك لأنني أعيش اليوم صنفاً من أصناف النُستالجيا، أو الحنين إلى الماضي، في هذا الطور الشائخ من أطوار العمر. وفضلاً عن ذلك أراني أعتقد بأنك لو كنت قريبة المكان لخفضت درجة التوتر الداخلي الذي يضطهدني حتى العياء. فأنا أعرفك جيداً، وأعرف حيويتك الروحية، وكلك نضارة شخصيتك، وقوة حضورها المميز الجذاب. وفي ذاكرتي أنها شخصية تملك أن تبهج وتنعش وتخفف من وطأة الاضطراب النفسي الناجم عن سوء الأحوال التاريخية وخشونة الواقع، الذي أتخيل أحياناً أن له جلداً مزوداً بالحراشف الجارحة، مما يجعلني أشعر بأن ظلاماً دامساً كثيفاً

خائراً كالهلام يعسعس حولي من جميع الجهات، فيحيل الوجود إلى كابوس باهظ لا فداء له بتاتاً.

أرجو أن تكوني كما عهدتك في غابر الأيام، وأن لايكون تصرم الأزمان قد التهم منك الكثير. فالزمن نسيج الأشياء، وما من شيء سوى الفراغ يملك أن يكون له وجود خارج الزمن الذي يجهل العطالة جهلاً تاماً.

ولكن بيت القصيد ليس تصرّم الأزمان الذي أراه موتاً نسبياً، لأن بيت القصيد يكمن في مثنوية الخير والشر بالضبط. فهناك أناس يملكون كل شيء، بينما لا يملك أناس آخرون سوى أسمالهم وسوء أحوالهم. فالفرق شاسع بين الحياة كما هي في الواقع، وبين الحياة كما ينبغي أن تكون، إذ ما من عدالة على الأرض قط.

ولهذا أراني أذهب إلى أن أدب الجحيم، أو أدب العذاب والاغتراب، أعني الأدب المأسوي حصراً هو أرقى أصناف الأدب، فحين أسمع الأخبار وأتخيل أن التاريخ مأهول بأشباح الجريمة وحسب، وأن هذه الدنيا بأسرها تقوم في أثباج السعير دون أي أمل في الخروج منها على المدى المنظور. يا إلهي، لم يبق هنالك شيء سوى المذبحة وحدها.

عزيزتي،

لئن كانت مقالتي التي خصصتها لمجموعتك (النار اللينة) قد أزعجتك، أو كما شعرت أنها لم تلاق قبولاً عندك فأنا آسف أشد الأسف، وأرجو أن تتقبلي اعتذاري عن هذه الزلّة العرضية أو الهفوة الصدفوية. وما كتبت بشيء من القسوة، أو الصراحة المكشوفة، إلا لاعتقادي بأنك تحتاجين إلى من يَصْدُقك، لا إلى من يداهنك بغير طائل. فالمداهنة لاتجدي فتيلاً، أما النقد الكاشف البنّاء، والنائي عن الخبث واللؤم، أو عن الرغبة في المناكفة الغوغائية، فهو وحده الذي يجدي أو يحسّن.

وأزعم أنك كتبت من القصص ما يبذ أرقى ما كتب في هذا الجنس الأدبي عالمياً: «المنديل» و«رثاء على جثة الأقنعة» وغيرها في مجموعة «في

العالم السفلي» و«ليلة الكرز المر. وليلة سقوط أبو علي» في مجموعة «على نار هادئة». يمكنك أن تتابعي هذا الصعود بهذا الجنس الأدبي إلى مراقيه البعيدة.

ومع ذلك فإنني أقول كما قال أحد الشعراء: «سلام على الدارين، إن كنت راضيا».

ولكنني عاتب عليك أشد العتب، لأنك لم ترسلي لي بطاقة بريدية بمناسبة العيد الأخير. فلو فعلت ذلك لأنعشت روحي المحتاجة إلى قيامة وانبعاث.كما أنك لم ترسلي لي صورتك، أو نسخة كبيرة عنها، مع أنني طلبتها منك قبل أشهر. حبذا لو حمل وجهها الآخر بضع كلمات طيبات، تنطوي على ما يسرّ ويبهج. ثم ليتك تراسلينني كثيراً جداً، لأن رسائلك تفعل في روحي فعل الماء في ثغور الظماء. وسلام على حمص، بل على كل من يشرب من نهر العاصي.

المخلص لكم جداً أبو الوليد

دمشق في ٢٠٠٧/١١/١١

الجواب (٧)

الصديق والأستاذ أبو الوليد..

مساءُ سلام وغبطة وامتداد.

لا، أنا ما تأخّرت، ولكنه البدر احتجب. فلكَ العُتبى وعليّ الاعتذار. بل إنه الزحام العقيم لوّث بضجيجه رئة الكون فخنق سمعي، بحثت عن صوتي، فهرب مني الصوت، وإذ أدركته كدت لا أتعرف عليه، وقد أمسى حشرجاتٍ محتضرة، تليق بالقريب المستهلَك المتهالك، الذي لاشأن لي به، وإن كان له بي شؤون، حشرجة لاتليق بالبعيد الذي له حرقة الشوق ودفقة الحنين.

الحنين الذي يدين ما أنا فيه، والذي مافتئتْ شعلتُه تضطرم في شراييني رغم الخمسين الشوكية التي اجتاحتني بلاهوادة، والتهمتْ بشراسة ما زها، ولذّ، وطاب.

نعم، للبعيد النائي، نعم،لمكان لم يكن، وزمان في البال، مأتى أبداً، وربما لن يأتي. البعيد النائي الذي تتطاول إليه أحلامي. إنه الغائب، المُتمنّع عن الممكن، الحاضر في حلم لم، ولن يأتي. وإذا جاز لي أن ألخص حياتي فإنني أقول: إنها نداء للبعيد النائي وحوار مع الغياب المتمنع عن التهاوي في حضيض ما أنا فيه من القريب المياوم المُتعضّي.

تظمأ الروح وتَصْدى، والتوق هو التوق. والبعيد يتمادى في نأيه، وفي غوايته في آن. ويمسي الغياب سيد الحضور. فأصلّي كثيراً..كثيراً. أليست الصلاة هي اتصال بالبعيد ؟ وحوار مع الغائب الحاضر المهيمن ؟

رغم الخمسين الشوكية التي اجتاحتني، فما زلت طفلة أعدو على سرير الأحلام، وإن بخطوات أوهنتْها الخيبات. ومازلت أملأ رئتي بأبخرةالخيبة ذاتها،

وأرفع عقيرتي بأغانٍ هي صوت النشيج، وأحلّق بأجنحة تنزف خراب دمها. أغني، ولم تهن قدرتي على الحزن على عمر أشاح بوجهه عني، وتركني بمواجهة الخراب.

مازلت أهفو إلى الكتابة، بقيةً من شغب صبياني، وهرباً من النهاية التي تنتظر ببرود وحياد ووقار هوّة العدم. هناك، حيث تتمسح هويّةُ كل شيء، فلا تضادّ: إذ لا ألم ولا ظلم، ولا عار ولا ذلّ ولا....لا شيء. حيث تعطينا هذه الهوّة حصتنا من الأرض المتَحارَب عليها بدون أي تعقيد، نمضي إليها، ولا نترك شيئاً خارجها سوى سيرةً من الأحزان والتخبط في دروب الخلاص، ووصمةً في جبين الحياة الممرّغ.

إذن؟ بماذا نلوذ؟ بالشعر!؟ وإنّه لعمري خير ملاذ، ولكنه حين يغدو لغواً تتهتك به حناجر شعراء المدينة التي انطمست هويتها، وحين يمسي دفتراً يفتح بياضه لطلاسم كلّ عاجز ومدّعٍ وممرور، عندها تغادر الحروف أنوارها، وتتدحر القصيدة. فبماذا نلوذ!؟

نعم، إنه كما قلتَ يوماً «إنه زمن الاتضاع في كل شيء» والشعر يا صديقي هو سجلّ لمعنى هذا الزمن وصورته، الشعر مثله كمثل كل الأشياء الجميلة والسامية، غدا – وباسم الحداثة - وما (بعدها) وفي لوثة الانبهار بما تلفظه رئة الغرب على لطائف العالم من قيح، أمسى الشعر، وغيره من إبداعات الروح النبيلة قرقعة أشلاء قيثارة تقطعت أوتارها، وتحطّمت، وعجزت عن حمل الروح إلى فضاءات الغبطة.

صديقي العزيز، لا تأسف إن أزعجني ما ورد في مقالتك عن مجموعتي القصصية (على نار هادئة)، ولقد سررت أيضاً من مديحك لأسلوبي.. ولغتي، وامتلاكي لأدوات السرد القصصي بلياقة عالية، ولإسهابك في الإعجاب بجملي الطويلة وامتلاكي قدرة الربط، واستحواذ نصي على الكثير مما لايتوفّر لدى أشهر كتاب القصة في العالم. ألا يكفيني كل هذا!؟ فهل هذا قليل من ناقدٍ صعب الارضاء مثلك؟؟!! وإني لفخورة بهذا. أنت قلت رأيك. وفيه الكثير مما يبهجني ويملؤني زهواً.. وأنا لم، ولن

أدّعي الكمال على الإطلاق. وأنت قلتَ رأيك بلا مواربة، كعهدك دائماً حين تقول ماتراه، ولست تخشى في الحق الذي تراه لومة لائم. وأنت من أنت عليه من سطوع اسم، واعتداد قلم. وأنا لا يمقتني شيء أكثر من المداهنة، وذلك لما تخفيه من صُغار للمداهِنِ، والمداهَن. " شكراً لمن أهدى إلي عيوبي" باحتضان وإحاطةٍ حتى لا تُهدى هذه العيوب طبقاً سائغاً يلوكه من لاهمّ لهم سوى مضغ من ينتمي قلمه ووجدانه إلى وجع الإنسان، وما أكثرهم يا صديقي الكريم.!! وأنت خير من يعرف ذلك. وحاشاك أن تكاشفني بما رأيتَ خبثاً ولؤماً أو مناكفةً. ولكنني أصدقك القول أنني مازلت أحزم تلك المجموعة في صناديقها، وأمنع عنها الهواء، إلا لقلة قليلة من الأصدقاء. خاصة وأنها صدرت في ظرف شخصي مغمّس بالحزن... فلا بهجة، ولا من يشاركني فرحة ولادتها. كما أنني أحسب – ولظروف صحية أقدّرها -أنك قسوت في حكمك على المجموعة في المقالة التي نشرتها عنها، وأعتقد أنك قرأت قصصها الأخيرة بعجالة. لم تقرأ جيداً بعض قصص المجموعة، التي وصفتها بأنها ذات موضوع مطروق.أتمنى أن تعيد قراءة النص ماقبل الأخير، والنص الأخير، فنص"انكسارات الزوايا الحادة" ليست قصة موقف الناس من الفقير والغني فحسب، بل هي قصة الادّعاء (الثوري) من قبل أبناء الطبقة الفقيرة مقابل انكسار المؤمنين بالثورة وبأهداف إنسانية من أبناء الطبقة الوسطى والغنية، ممن اختاروا دروب مناهضة الظلم، بغض النظر عن موقعهم الطبقي.

قريباً، سأكتب لك رسالة أحكي لك فيها عن انطباعاتي في رحلتي إلى الجنوب اللبناني، الشمال الفلسطيني. كما آمل أن ترسل لي نسخة من مقال "مثبطات الكتابة" فإني أشعر أن الحروف تندحر، وأن لغتي تهرب مني، وأن القلم يحرن كثيرا فيٍ هذه الأيام العجاف.

لك كلّ الود والتقدير.

صديقتك المنتظِرة

غادة اليوسف

حمص ٢٠٠٧/١٢/٣/

الرسالة (٨)

عزيزتي غادة الغالية

تحية إنسانية طيبة

أحسب أن اللغة عاجزة عن شرح الفرح الذي خبرته حين تسلّمت رسالتك المؤرخة بتاريخ الثالث من كانون الأول الجاري. فليتك تدفعين برسالة إلي كل يوم، وذلك لأنتعش وأتجدد وأشعر بأنني مازلت على قيد الحياة، بيد أن ثمة شيئاً نغّص عليّ الفرح المتوهج على الفور. نعم شيء نغّص الفرح المنعش النشوان. فقد جاء، في سياق الرسالة هذا القول الذي يشبه سوطاً راح يسوطني بغير رحمة: "لقد قسوت في حكمك على المجموعة في المقالة التي نشرتها عنها،أعتقد أنك قرأت قصصها الأخيرة بعجالة. «ثقي تماماً أيتها السيدة المرهفة الحساسة، بأن هذا القول يؤلمني أكثر مما آلمتك المقالة التي أتمنى لو أنها تمحى تماماً من كل سجل. وينطوي هذا القول، بشكل مضمر على أن المقالة عن "النار الهادئة" كانت بمثابة إزعاج لروحك الرهيف. وعلى أية حال، سبق السيف العزل، كما يقول المثل الجاهلي. ولكنني سوف أظل أعتذر مادمت حياً، عن تلك الغلطة التي آلمتك إلى هذا الحد الذي يؤلمني أكثر مما يؤلمك أنت. وأتمنى لو أنك تدلينني على تعويض لأقدمه لك.

ومهما يكن من الأمر، فإننا، كلانا، نبحث عن الحقيقة، كل بطريقته الخاصة. ولهذا، أعدك بأن أعيد قراءة القصتين الأخيرتين في المجموعة بانتباه كامل وحضور تام. وأرجو الله أن يلهمني السداد لأجد نفسي لم أعطك حقّك. ولكنني أرجو أن لا تذكّريني مرة ثانية بتلك المقالة التي لم أفِكِ بها ما تستحقين، لأن الذكرى سوف تسوطني حتى العياء. ففي المجموعة قصص ترقى إلى

العالمية كما ذكرتُ "ليلة الكرز المر" و"أوّل بشارة المواسم" والكثير مما كنَزتْه المجموعة من أدب رفيع، حاز على سموّ الأسلوب، والموضوع.

ومهما يحدث بيننا من انشعاب، فإننا سوف نظلّ نزحف باتجاه الحقيقة، وسوف يظل الفؤاد يسير ملهوفاً نحو ذلك الهدف الشريف، ودون كلل أو ملل. وتسلّمه الآفاق الواحد إلى الآخر، وكل أفق وعد بالوصول، يغري الذهن فيحسب أن المطلوب قد بات وشيك الانجاز. بيد أن المرء لايصل ولايقترب البتة من مصبات الحنين، حتى لكأنه لايبتغي شيئاً سوى المحال، أو ما لايسمح به الإمكان قط، وذلك لأن غايتنا نحن المهمومين بهموم الخير والعدل والجمال، بل نحن المنذورين للأرق والليل والنفور من هذا الحيف النازل بساحة الانسان، هي، بحكم هويتها الخاصة، ليست مما يتيسر نواله أو بلوغه، بل حتى كأننا نحيا موتنا أو نموت حياتنا. وأخاف أن أشتط إذا ما أعلنت بأن إنساناً يحترم نفسه لا يقبل أن يعيش بتاتاً.

وعلى أية حال، فإنني لم أعثر حتى الآن على الغاية التي وجدتُ من أجلها. فهل ولدتُ كي أبحث عن الحقيقة؟ ولكن، هل هنالك حقيقة جديرة بالعناء ونزيف الطاقة المنهك؟ يا إلهي! إنني ليحاصرني هذا السؤال المرعب المرير، والذي لاجواب له عندي: هل تتيسر للإنسانية أية نجاة من هذا الشر الكلي الشامل، حتى ولو في المستقبل البعيد؟ وهل ثمة ما يحمل إليها أيما عزاء أو مواساة؟

كثيراً ما يبدو لي أن الصبوات الانسانية الكبرى لا تعرف دربها إلى التحقق. ولهذا، اقتنعت منذ زمن سحيق، ونتيجة لتجربة إجرائية عشتها شخصياً، ولكن يعسر تفصيلها في هذا النسق الوجيز، أن المرأة برهة متعذرة الحدوث إلى أقصى حدود التعذر. المرأة إشاعة، يا غادة. بل قولي إن الانسان إشاعة لاتدل على أية واقعة.

وها هنا تعنّ في الخَلَد خاطرة فحواها أن المرئيات، بل المحسوسات بأسرها، ليست سوى عدم تبلور أو تجسم، فصار من أجل العين بعد ما كان من

أجل التجريد وحده. ولقد رأى ابن عربي أن اتصاف العدم بالكينونة هو أمر يدخل في باب الحيرة والارتباك.

ولكنني في برهة تالية أشعر بالله وبإنسانية الإنسان وبالديمومة التي تتلاقح بهرتها عبر بوارق ضيائية شبيهة بالوحي أو بالإلهام، لكنها سريعة الزوال والتلاشي من ساحة البصر والبصيرة. ويلاه ما أشد حاجتي إلى الله وإلى إنسان إخائي طيب رهيف مؤنس وبريء. ففي مخيلتي أنني لن يتسنى لي أن ألامس السعادة إلا بصحبة كائن بشري أهيف أو مدمث الروح، وناج من كل عيب كبير.

ولكم تروقني كلمة باسكال: «إن كرامتنا كلّها تكمن في التفكير». ولعل من شأن هذا القول أن يذكّر المرء بقول لابن عربي جاء في المجلد الثاني من «الفتوحات المكية»: «ليس الشرف إلا لسر العلم». أو بقوله الذي جاء في ذلك المجلد نفسه: «العلم هو الكرامة العظمى». ومما هو معلوم أن العرب التراثيين لم يميزوا بين العلم والفكر والشعر والنثر الأدبي، فجميع هذه الايقاعات الثقافية هي في نظرهم شيء واحد اسمه العلم.

ومع أنني لم أعثر على الغاية من وجودي بعد، على الرغم من أن العمر قد دنا من نهايته، فقد أنجزت شيئاً ما، بل هو شيء لايجوز الاستهانة به قط. ولعل في ميسوري أن ألخص ما فعلت بأنني خلّصت الكلمات من مثلبة البلادة والرتوب وثقل الحركة، وزودتها بالصفاء فجعلتها نقية سائغة، بل بالرشاقة والكرامة وبشيء من جاذبية الجلال النفيس. وهذا يعني أنني حفنتها بالحيوية التي أراها سيدة السيدات طرّاً.

بيد أنني لا أجهل السبب الذي أدّى بالمشنّعين علي إلى إغفال هذه السمة التي لاتخطؤها عيون الأطفال. وهذا إنجاز أترك الحكم عليه لأهل النزاهة والعافية. ولعمري إن أولئك الأشرار قد أصابهم المرض حقاً لكثرة ما مارسوا المرض الذي ألخّصه بكلمة الحسد. ويبدو أن الداء قد أزمن في نفوسهم المعقومة الفاسقة. فما الذي يتبقى سوى التعفن والسقام حين يتخمّج الضمير أو

يفسد ؟ ولعل من شأن هذا التشنيع الحاسد أن يكون واحداً من أقوى مثبطات الكتابة، بل ولعلّه أن يفضي بالحامل إلى الإجهاض. ولكم يستنزفني الشعور بالخيبة إذ أواجه الآخر الضاري والعالم الخاوي، وأنا وحيد ودون أي سلاح، مهما يك من نوعه.

يقيناً، إنني أجسّد سخط الروح على الواقع، وذلك لشدّة إدراكي للمسافة المنداحة بين الحياة كما هي بالفعل وبين الحياة كما ينبغي أن تكون. وبالضبط في انتفاضة الروح على ماهو كائن بالفعل تكمن قيمة الروح وأهميته وجَداؤه.

أمّا الخنوع اللاأخلاقي والرضى بما هو موجود، أي بالأمر الواقع، فلا ينتسب إلاّ إلى عالم البهائم والعجماوات.

ولهذا فإنني أمقت الإمبريالية التي تواظب على استحلاب الشعوب حتى آخر قطرة في ضروعها. وإنني لتنتابني القشعريرة وانقباض النفس حين أرى أحداً من أولئك الغربيين الأوباش. ومع هذا السخط فإنني أحنّ بحرارة متوقدة إلى صمت ساكن لايأهله شيء سوى حفيف الأغصان يحركها النسيم حين يهب رُخاءً ليناً وحاملاً للنشوات الممتعة.

وما من شيء يرعشني كما ترعشني أُخيولة منعشة أو فكرة أصيلة نبيلة طافرة من الأعماق. فمثلاً، كثيراً ما أتخيل مكاناً فيه سراب سحري من شأنه أن ينعش ويسكر، ولكن دون أن يغول. وأهم مافي أمره أنه ينطق بلسان عربي مبين، ويقول لي: اشرب. وحينئذ يندرج سرّه في صميم روحي كاندراج الصوت الخافت في الصوت القوي.

وهاهنا أشعر بأن العقل سرّ من أسرار الكون المستغلقة. ولكنه سر يبحث عن سر آخر يتلخص بهذا السؤال: من أين جاء الوجود؟ من أين جاءت المادة ؟ كما أراه مهموماً بموضوع كبير ثانٍ، وهو هذا: ما دامت الحياة منذورة للتعاسة، لاللسعادة، فكيف تحمّل الانسان وجوده على الأرض ولم ينقرض حتى الآن؟ ويلوح لي أن الإنسان ما وجد إلا لكي يتحمّل ويطيق. كما يبدو لي أن الخوف من العدم هو بيت القصيد. نعم، إن الخوف من الموت هو حارس

الحياة الساهر عليها دون أن تغمض له عين. ولعل من شأن هذا كلّه أن يفضي إللى الإقتناع بأن الكاتب الأدبي الجيد هو ذاك الذي يشعر ويجعل الآخرين يشعرون. فالشعور هو المقولة المركزية في الحياة البشرية كلّها.

ولكن الكاتب الأدبي لن ينجز مهمته هذه إلا إذا تماهى مع اللغة بحيث دخل وإياها في هوية. فكثيراً ما أقول أنا اللغة واللغة أنا. لقد حاولت أن أخلّص المفردات من عجمتها، أو من عجزها عن الإفصاح، وذلك ابتغاء جعلها قادرة على التحرش بجوهر الأشياء وفحواها. ولا أدري إلى أي مدى أفلحت أو نجحت. والمهم هو النية والجهد المبذول. لم أفاجأ حين أنكر علي بعض الشانئين كل سمة إيجابية.

عزيزتي الغالية التي أوشك أن أناديها بغادتي. عندما تلقيت الرسالة التي قرأتها دزينة من المرات، والتي جاءتني بعد قطيعة طويلة جداً دامت ستة أشهر. (أويعقل هذا؟! ستة أشهر. يئست وأيقنت بالجفوة.) عندئذ شعرت كما يشعر طفل فقد أمّه ثم وجدها. لهذا، أرجو، وأُلحف في الرجاء، أن تواظبي على مراسلتي دوماً إنني أحب أن تفرحي، أفلا تحبين أن أفرح؟

تحدثينني عن "الخمسين الشوكية"، فماذا أقول أنا عن السبعين التي سوف تدق بابي بعد أسبوعين أو ثلاثة؟ إنك ما تزالين في شرخ الشباب، وستظلين في مخيلتي تلك الآنسة التي عرفتها قبل ربع قرن، قبل جيل، أو زهاء ذلك.

لك من عواطفي الحميم والصادق والأكثر طهراً

المخلص أبو الوليد

دمشق في الثلاثاء ١١/١٢/٢٠٠٧

الرسالة (٩)

السيدة غادة اليوسف المحترمة

تحية طيبة وشوق عارم حميم يندلع من سويداء الفؤاد،حيث ترخم الصور الوسيمة إلى الأبد. ولك الأحرّ والأسمى بين عواطفي ومشاعري بأسرها.

حين عدت للتو من تسكّع قصير في الشوارع المزدحمة، أو حصراً عند الثانية عشرة من ظهر الأربعاء الموافق للثاني من كانون الثاني الجاري، فقد أبلغوني أنك اتصلت بنا وتحدثت عن رسالتين بعثتِ بهما إليّ دون أن تتلقي ردّاً على أي منهما.

أأنا هو من لايرد على رسالتيك؟ وهل لديّ متعة أكثر إبهاجاً من أن أستلم منك رسالة أو أكتب لك رسالة؟ ثم إنني حين يصلني منك أيّ شيء أراني أشعر بأن النهار اندلق من جرار خرافية شديدة الضخامة. ولهذا، فإنني أُلحّ على أن تراسليني دون أي انقطاع، بل دون أي ريث أو إبطاء.

في الحق. أنني تلقيت منك رسالة واحدة مؤرخة بتاريخ الثالث من كانون الأول الماضي. ولكنها وصلتني بعد عشرة أيام من تاريخها على وجه التقريب. ولقد كتبت رسالة أو ردّاً مطوّلاً، وأرفقته ببطاقة بريدية لأهنئك بالعيد الأخير الذي جاء في الثامن عشر من الشهر نفسه. ولقد أرسلت رسالتي قبل العيد بأسبوع، أو زهاء ذلك.

في الشطر الأول من رسالتك تتحدثين عن شوقك إلى البعيد والنائي اللذين تتطاول إليهما أحلامك. وتضيفين بأنك ملهوفة إلى الغائب الممتنع، والذي لايحضر إلا في حلم لم يأت ولن يأتي في أي يوم من الأيام. ثم إنك تلخصين حياتك بأنها نداء للبعيد والنائي وحوار مع الغياب الذي يأبى التردي في حضيض ما أنت عليه من حصار يمارسه القريب المياوم السخيف. ولكم

راقتني هذه العبارة الموفقة جداً «يصبح الغياب سيّد الحضور» كما أنك حين تصلّين تكون صلاتك اتصالاً بالنائي وحواراً مع الغائب المهيمن المستحيل. وبعد ذلك تتحدثين عن «الخمسين الشوكية» التي اجتاحتك مع أنك "مازلت طفلة تركضين على سرير الأحلام، ولكن بخطوات أوهنتها الخيبات". ثم تذكرين عمراً أشاح بوجهه عنك وخلفك وراءه لتواجهي الخراب.

عزيزتي الغالية، عزيزتي المصنوعة من الطيبة والجودة والمحبة، إن كنت في الخمسين فأنا اليوم في السبعين (١٩٣٨ - ٢٠٠٨)، وشتان بين «الخمسين الذهبية» وبين عقود سبعة من السنين الباهظة يعتلها الجسم على كاهله المنهك دون أي أمل في الخلاص أو في التحسن. فلقد أذبلني المرض وأحالني إلى كائن ناشف مقرور. أمّا أنت فمازلت شابة وفي ميسورك أن تصنعي الكثير، ولاسيما في مضمار الكتابة الآخذة بالتردي يوماً عن يوم. الخمسون ليست بؤساً يا عزيزتي، شريطة أن يكون الجسم ناجياً من الأمراض الكبرى. وبودّي ههنا، أن ألفت انتباهك إلى أمر مؤداه أن هذه المشاعر الثرة والشديدة الحرارة والغزارة معاً، تصلح مادة لرواية إذا أتقن صنعها جاءت بمثابة درة نفيسة، في عالم الكتابة الآسن الراكد طوال الآونة الأخيرة. فمما هو مقبول وجوباً لدى الذهن المتذهّن أن هذا التوتر الصوّاني (الذي يحتاج إلى تعديل بشيء من الليّان والطراء واللدانة) هو واحد من الماهيات الصالحة للانبثاث في مناخ روائي قادر على الاجتذاب أو حتى على الاختلاب.

ولكن، لعلك لست محظوظة كثيراً. فلو أنك قريبة مني، إذن لأفدتك، أو لساعدتك في هذا المضمار كثيراً أو قليلاً.

وفي الشطر الأخير من رسالتك الأخيرة (إنها آخر رسائلك إلي) تتحدثين عن مجموعتك إياها وعن مقالتي التي كتبتها عنها. ولقد لفت انتباهي لدى مهاتفتك لي عدم رضاك عن ماجاء في المقالة إيّاها، بل أحسست بأنك تألمتِ لما رأيتُ فيه بعض المثالب التي قد لايخلو منها عمل أدبي مهما بلغ من الكمال.

يا إلهي الطيب! أيتها الغادة العذبة الرقيقة اللطيفة الشبيهة بالنور. إن قلبي يوشك أن يتفطّر لأنني جعلتك تتألمينً، فلكم أنا آس وحزين. إنني آسف أشد الأسف. ونادم أشد الندم، وإنني لأعتذر أيما اعتذار، وأرجو،بل كلي أمل، أن تقبلي اعتذاري، وأعد بأن لاتتكرر هذه الهفوة بتاتاً. ولئن لم ترضي عني فإنني لن أرضى عن نفسي إلى الأبد.

ثم تتحدثين عن أولئك الذين لاهمّ لهم سوى أن يهينوا الطيبين المنتسبين إلى الوجع الانساني، أي إلى إنسانية الانسان. وأنا من جهتي أقول بأنني كثيراً ماعانيت من تلك الشخصيات السنّورية الماكرة الشبيهة بصوف الكلاب الناعم والنجس في آن معاً، والمبثوثة في كل مكان من هذا العالم المأفون، ولاسيما في عالم الصحافة الذي ألجأتني إليه حاجتي الدائمة إلى المال، أو إلى شيء منه ليستجيب للضروري من حاجاتنا المادية. لولا الحاجة إلى مالابد منه لما اقتربت من تلك اللعنة التي تسمى الصحافة بتاتاً. ترى، هل هنالك من يملك القدرة على أن يحيل اللعنة إلى نعمة أو بركة.

وفي الصفحة الختامية من رسالتك المؤلفة من خمس صفحات تقولين: «وأتمنى أن تعيد قراءة النص ماقبل الأخير، والنص الأخير...» حسناً سوف أفعل، ولكن، يوم أخذوا المقالة نفسها إلى الجريدة، فقد أخذوا معها المجموعة القصصية أيضاً، ولكنهم لم يعيدوها بتاتاً، مع أني أسرفت في المطالبة بها، بل ظللت أطالب بها حتى الملال. لهذا، أرجو أن ترسلي نسخة جديدة من المجموعة لكي أعيد القراءة. والأفضل أن ترسليها بواسطة شركة القدموس، أو شركة الهرم التي لها مكتب قريب من بيتنا.

وبعد ذلك وعدتِ بأنك سوف ترسلين إليّ رسالة تتحدثين فيها عن رحلتك إلى الجنوب اللبناني وعما ترسّب في نفسك من انطباعات تخص ذلك المكان الجليل.

وفي الأسطر الأخيرة من رسالتك إياها، طالبت بأن أرسل إليك نسخة من "مثبطات الكتابة". وفي الحق أنني صوّرتها وأرفقت الصورة مع الرسالة التي

بعثت بها إليك قبيل العيد، أو بالضبط يوم الخميس الموافق للحادي عشر من الشهر الثاني عشر ٢٠٠٧. وفي تقديري أن الأعياد الثلاثة المتتالية قد أثرت على حركة البريد في سوريا، وانخفض نشاطه، ولهذا فإن رسالتي الآنفة الذكر قد تصلك عما قريب.

أمّا العبارة التي راقتني كثيراً جداً فهي تلك الختامية الممهدة للتوقيع مباشرة: "صديقتك المنتظِرة، غادة". هذه الكلمات الثلاث لها وقع السحر على روحي المنهكة، ربما لأنه مامن أحد في هذه الأيام يُسمعني مثل هذه العبارة الماسية التي لاطعم للحياة من دونها. ثم إن هنالك من ينتظرني. يا إلهي! أحقاً؟ هنالك من ينتظرني؟

لكم أشتهي أن أسمع من أي إنسان، ذكراً كان أم أنثى، أيّما كلمة مودّة صادقة أو صافية من الشوائب، ولازيف فيها ولا ملق ولاتزوير.

لو كان هنالك متسع لحدثتك مطولاً عن مطالعاتي الأخيرة. ولكن لابأس بهذا: فقد أتيح لي أن أتصفح رواية "يُلسس" لجويس، وهي التي جلبتها معي من لندن سنة ١٩٧٨ وقرأتها يومئذ فلم ترق لي بتاتاً. ولكنني أعجبت، وما زلت معجباً، بشخصية مولي بلوم، بطلة الرواية. لئن تعرفت إليها فإنك سوف لن تنسيها بتاتاً، لأن لها قدرة هائلة على أن تعشش في الذاكرة طوال الحياة. هنالك فعلاً أناس لهم هذه السمة أو هذه المزية الرائعة.

ولا أدري لماذا أجد اليوم بعضاً من وجوه الشبه بينك وبينها. إنها رقيقة ومفعمة بالعنصر الانساني النبيل، مثلك تماماً. كما أن توترها يشبه توترك البريء الأبيض المستسلم. ولكن الأهم من ذلك كله أنها ترى نفسها أُمّاً لجميع الكائنات الحية دون استثناء. يا إلهي الطيب! أنا أعتقد، ولكن دون برهان منطقي حاسم، بأنك ترين نفسك أمّاً للحياة بأسرها، ولكل شيء حي على الإطلاق، تماماً كالماء العذب الفرات. ولئن لم تكن نظرتك إلى نفسك على هذا النحو الذي أعرضه هنا، فلابد من أن تكون هذه النظرة هي نظرتي أنا إليك بالضبط. وهذا يعني أنني أنا هو من يراك أمّاً لجميع الكائنات الحية.

يا صديقتي المنتظِرة.

حين بدأت أكتب هذه الرسالة، وذلك زهاء الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر الأربعاء، (٢/١/٢٠٠٨) أخذ المطر يهطل غزيراً، فكان أن تفاءلت كثيراً بالكتابة إليك ورأيت فيها فعلاً خيّراً أصيلاً ذا مردود روحي كبير. وقاك الله تلك الأفاعي التي إذا وضعها المرء تحت ثيابه ليقيها غائلة البرد، فإنها تلدغه وتصب في شرايينه سمّها الزعاف، تماماً حين تشعر بالدفء يموج في عروقها، إن كان لها عروق.

ملاحظة:

رواية «يُلس» مترجمة إلى العربية. ولكن قراءتها مملة، بل متعبة مثل مضغ الصوان. ومع ذلك، حاولي أن تطالعيها لتكتشفي أوجه الشبه التي تؤلف بينك وبين مولي بلوم (إن لم أكن موهوماً أو مبالغاً).

لقد ذهبت إلى بيت الشهابي يوم الاثنين الماضي (٣١ /١٢ /٢٠٠٧) لأعزّي بسعيد (أي خسارة ذلك الولد النفيس!)، فشاهدت ابنتك ميديا، وألححت عليها كي تبلغك تحياتي، وأظنها فعلت أو سوف تفعل. وفقها الله وحماها.

ملاحظة أخيرة: ميديا إقليم كان يقع في الشطر الشمالي الغربي من بلاد إيران الحالية.

ليتك ترسلين لي صورتك من جديد، فقد ضاعت الصورة السابقة، أو لعلها مكنوزة في مكان نسيته بسبب ماقد ألمّ بالذاكرة من تلف. وأرجو أن تكون الجديدة كبيرة، كما أرجو أن تكتبي على قفاها بضع كلمات منعشة، كلمات مترعة بالود والصدق والمحبة الحارة التي يبحث عنها الجميع دون أن ينالوا منها ولو نتفة صغيرة، اللهم إلا أن يكون ذلك لماماً فقط. ما أشد حاجتي إلى هذا الحميم المفقود، يا غادة، يا صديقتي التي لا أشتهي شيئاً بقدر ما أشتهي أن أراها أمامي ماثلة للعيان، ولو في هنيهة موجزة.

لك الأجلّ والأنبل بين رعشات وجداني الطافح بالوجد والحنين.

صديقك المنتظِر يوسف

دمشق في الثاني من كانون الثاني ٢٠٠٨

الجواب (٩)

أبو الوليد، أيها الصديق النادر.

لو كنت أعرف أن ما بحثُ لك به عما ورد في مقالتك عن مجموعتي القصصية "على نار هادئة" سيؤلمك لما فعلت. ولا أحسب أنّ ما جاء فيها يعكّر صفو ما بيننا، فما بيننا ليس واهياً لينذحر أمام المتبدّل العادي. ما بيننا أرفع، وأكثر رسوخاً. ولكم ملأتني الحسرة وقهر الخسران لبخل الزمان، الذي لم يغدق علي يوماً بملاقاة إنسان على هذا القدر من الرهافة والحرص على أن لا يسبب لي الألم، حتى لو كان على حق. فلو جاد الزمان به، لكنتُ أرفل في نعيم المثال الذي رسمتْه أمانيّ، وأنا أرتشف نشوة التواصل الإنساني الغامرة.

ولكم أشعر بسخط واحتقار لمصيري، وأنا أرى كيف أن الحياة ظلمتْني إذ طوّحتْ بي، وقذفَتني وسط عالم يعصف به الغباء.، وتخنقني كثافته. عالم، لم أجد لي فيه مكاناً مناسباً لي، ولم أصل – رغم ما بدّلت وغيّرتُ – إلى بيت أشعر أنه البيت والسكن الذي أريد. وها قد حل المساء، وتعبتُ.

وأنا، وإن كلّت الساق، وقصرت الخطوة، إلا أني مثلك تماماً، يرعبني اختناق نور الانسان في جحيم الجسد وهشاشته. وتمضّني ذات التساؤلات المحيرة عن حقيقة وهدف الوجود، وماهية الانسان فيه.

وما وجدت مثل الدين قادراً على أن يمنح الهجوع (المؤقت) لأوجاع العقل. وأحسب أن العقول الكبرى ابتكرت الدين كرمز للخلاص، لإدراكها مدى الرعب الذي يحيق بالوعي المكابر بمواجهة عبثية، بل عدمية الوجود.

ولكن الذي حصل، أن الشرّاح والمفسرين المتدينين اتضعوا بالرمز، وانحدروا به، وبالهدف الذي أراده الدين، وهو البحث عن رموز ومعاني الخلاص.

الدين، الذي حرص بجوهره على أن يكون رمزياً إلى أبعد الحدود، انحدروا به – بتكاسلهم العقلي، وبلادتهم الوجدانية – وشيّؤوه، وحوّلوه إلى شرذمة من شرائع وقوانين وقواعد لا حياة فيها ولا روح ترضخ للطبيعة العادية للإنسان. فنأوا به عن هدفه العميق، وابتعدوا عن البصيرة، التي ينبغي على العقل أن ينجزها، فتنجزه، وغلّبوا الكثيف على اللطيف، والعاتم المظلم المتعضّي الزائل على المضيء النيّر المتألّق السرمدي. وعجزوا، بالتالي، عن ملامسة حقيقة أن المرئي ماهو إلا تشكّل ممسوخ وهش عن اللامرئي، وعجزوا عن تلمّس الطريق الذي يحرر المرء من عجزه عن الفهم، ومن عبوديته للقتامة. وما رحلة الباحثين في مشكلة الوجود وماهيته – تلك الرحلة الغارقة في المستحيلات والصعوبات – إلا سيرورة من التجارب والنكسات والومضات، يختطها الأفذاذ في طريق لهفتهم وحنينهم إلى مايروي ظمأ أرواحهم المتعالية.

نعم.. إن الغاية التي وجدنا من أجلها هي البحث عن الحقيقة. وهو أمر، يليق به أن يكون (إلهياً)، خوطب به العقل الذي هو مناط التكليف. العقل، الذي هو مزيج متناغم من الفكر والشعور، أي اللب، أو القلب، أي الوجدان.

وأعتقد يا صديقي، أن الحياة برمّتها ماهي إلا نوع من الهروب من الألم، كما أعتقد بأن المرئيات والمحسوسات بأسرها، بما فيها الوجود البشري المادي ماهي إلا تبلور، أو تجسيد حصيلة من الضوء، واللون، اللذين يحددانها. فوجودنا بأسره هو وجود ضوئي، وحتى الزمان والمكان، هما مفهومان أرضيان يتناسبان مع مدى محدودية ما أنجزه عقلنا في قصوره عن بلوغ الرؤية الضوئية، الإشراقية.

ويهيّأ لي أنه كلما زاد الضوء داخلنا، كلما ارتقينا إلى ملامسة حقائق الأشياء. ومن هنا تتفاوت الموجودات، بمافيها الانسان، من حيث مستوى وعيها: فمن وعي بهيمي قاصر، إلى وعي أحادي، إلى وعي متشعّب. تماماً، كالفرق بين حجرة مغلقة، وبين حزمة هائلة من الضوء تكشف بشعاعها مساحة كبرى أمام عين البصيرة، وذلك بفضل ما ينجزه العقل (اللب) من جدارة ضوئية

خلال مكابداته.

وأرى أن تكليف العقل الأكبر هو أن ينجز رحلة البحث عن مدارات ضوئه. وبالتالي، فإن ارتقاءه يتناسب مع طول وإصرار وشقاء الرحلة خلال سيرورة الانعتاق.

أمّا أن يحلم المتسائل بالوصول إلى جوهر الحقيقة وهو مستعبد في سجن كثافته – الجسد، وتهتكاته أحد أهم أشكال هذا السجن – فهو أمر مستحيل، إلا في لحظات انعتاق نادرة، متمنّعة، عصية البلوغ، إلا لمن أوتي حظاً عظيماً من الصفاء، وبكورة الروح. الأمر الذي بات مستحيلاً في ظروف عصرنا الذي يتسابق أبناؤه باسم المدنيّة والحضارة على زيادة الأغلفة، والقضبان التي تخنق إمكانية أيّة انبثاقة ضوء.

لذا، أفهم تماماً غربتك، وتوقك الدائم إلى مكان ينأى عن تلوث واعية الكون. مكان بكرٌ، تتشارك فيه مع العناصر السويّة، التي لم تتشوّه بعد، لتقدر على التأمّل الذي هو السبيل إلى التفكير والبحث عن الجواهر الأصيلة للحقيقة، والتي هي في داخل كلّ واحد منّا. فالكون، بكل اتساعه، موجود فينا، ولا أعظم من شاعر اختصر الخطوة ملخصاً الانسان والكون بقوله:

دواؤك فيـــــك ومـــــا تقـــــدر ... وداؤك منــــك ومـــــا تـــــشعر

وأنــت الكتــاب المبيـن الـذي ... بأحرفـــــه يظهـــــر المــــضمَر

وتحـــسب أنــك جــرمٌ صــغيرٌ ... وفيــك انطــوى العــالم الأكبــرُ

وأعتقد أنّ علينا أن نقرأ هذا الكتاب. وهذا لعمري من أشقّ وأصعب ما كلّف به الانسان، مُفَضَّلاً بهذا، أي بنعمة العقل على كثير من العالمين. هذا العقل الذي سيّدَه على البهائم، والذي عليه أن يصدر عنه مايليق بنزف صاحبه خلال رحلته الممتعة، العسيرة،، البهية، شعراً ونثراً، أدباً وفنّاً عظيماً، ونفحات كشف سامية. أي بتلخيص (العلم) بمعناه الرفيع.

يا صديقي..إنسان اليوم مريض، طمس السقم على قدراته، فهو عاجز

عن الاستيعاب، ويعاني من الألم والحرمان، وهو يتهافت منغمساً في مفردات مقتنياته، فيما يظنه مصدراً للذّة، وهروباً من الألم، وذلك جين يبتعد، طوعاً وكرهاً، عن طريق التأمّل والاستغراق في البحث عن المعنى، بما هو فوق تجسمات العدم.. فيبتعد عن الطريق الذي قد يمنحه بعضاً من لحظات العافية.

إنسان اليوم، انحدر إلى درك العبودية والتوحش، لدرجةٍ تأنفها الوحوش التي صانت نبل عفويتها. فهو يقتل، لادفاعاً عن حياته، وينتزع اللقمة من أفواه الضعفاء لاعن جوع، ويزاحم على مكان يتسع له ولشركائه في أرضٍ يمتصّ نسغَها وحده، وجدت للجميع، ويندحر، يندحر، وينتحر، وينقرض، وهو يحسب أنه يصارع ليبقى.

صديقي، رحلة البحث عن الحقيقة لن تكتمل طالما أن الإنسان عبد للضرورة، إلا عبر ومضات، وإشارات، تتناسب مع قدرته على تحمّل بلوغها عبر ثنائية الموت والحياة. وهما وجهان لحقيقة واحدة: فمن حياة هي مدخل لمعبر وعاء الجسد، إلى مخرج هو الموت الذي يسلمنا إلى مدخل حياة أخرى تحددها آثارنا وما رسمته خطواتنا. وهذا ما يلخص ثنائية محدودية الإنسان، ومُطلقَه.

وبعد.. أنا لست يائسة، وأؤمن بأن الإنسان، ذلك السامي، كبير الخطاة، سيتعلم، وسيصل إلى الحقيقة من خلال هروبه من الألم، وتخبّطه في الخطأ والخطيئة. سيصل إلى ضوئه اللائق حين تستنقذه الروح وهي في نزعها الأخير. وإلاّ ستكون حياته مجرّد هزيمة.

صديقي.. أدرك أنه من الصعب أن نمسك بأشعة الشمس، ولكن، من الأجدر أن نحاول، بل من الواجب أن نفعل، حتى لو حرّقتنا الخيبة. فنحن مكلّفون بذلك إنسانياً، فلنرفض ماهو ناجز، ومستهلك. ولنسعَ حثيثاً لبلوغ كينونتنا العارفة، العالمة، الناطقة، العاقلة، الشاعرة، المضيئة، لكي تمتدّ ظلالنا على أرحب مساحة.

صديقي..إن لهفتك، وحيرتك في البحث عن معنى الحياة، ولغز الوجود،

لهو أكبر دليل على شباب الروح وهي ترفل في ريعان الحياة. وما الشيخوخة والمرض إلا استسلام العقل وتسليمه.

صديقي.. سأكتب لك في رسالة قادمة عن رحلة الجنوب كما وعدتك، وأوافقك على كل ما جاء في مقالتك «مثبطات الكتابة». فكأننا في زمن لانحلم أن يبزغ فيه شاعر فذ على المدى القريب. وهذا مؤشّر مرعب لما وصلنا إليه من جمود ويباس. تقرأ الكتب والدواوين (الشعرية) الجديدة الصادرة، فتتركها وقد أصيب وجدانك بعسر الهضم. وكآنك أمام نص واحد تتقافز مفرداته وجمله وصورُه ومعانيه التي لامعنى لها بصفاقة من شويعر إلى آخر لدرجة تستنجدك بها الكلمات وهي في نزعها الأخير من شدة الاستهلاك والتداول. فتصوّر يا صديقي كم هو كالح زمن بلا شعراء، ولا فلاسفة !

يا أبا الوليد.. الوقت يرعبني.. يمزّقني.. يشتتني.. ويسرقه مني الآخرون. أتمنى لو أني أملك عمري، لكنت كتبت لك عن كل ما يتوالد في داخلي، وما يخطر في بالي، ويؤرّقني، وإنما يضنيني كما يضنيك كابوس العدم، مما تضيق عليه الصفحات، ويلزمه سمر طويل، وقربٌ يحيله واقع الحال إلى خانة المستحيلات.

لك سلام من صديق قديم يودّك كثيراً.. (خالد الصالح) أبو سمهر... ويقول: «لك سلام من فضاء تدمر، ومن مدافنها.. وثمّة نخلة ماتزال تروي من حكاياتك».

لك صافي الود

صديقتك المخلصة غادة

حمص في ٢٠٠٨/٢/٣.

-٧٥-

الرسالة (١٠)

السيدة غادة اليوسف المحترمة

تحية طيبة وبعد،

في هذا الصباح المشمس الجميل استلمت رسالتك المؤرخة بتاريخ الثالث من شباط (٢٠٠٨). ولقد سررت بها كثيراً، ولاسيما بالنصف الأول من الصفحة الأولى الذي تعبّرين فيه عن حسرتك للبخل الذي لم يتح لك فرصة الالتقاء بإنسان "على هذا القدر من الرهافة والحرص على أن لا يسبب لي الألم، حتى ولو كان على حق."

وعلى أية حال، فقد طالعت القصص الثلاث الأخيرة من مجموعة "على نار هادئة"، واقتنعت بأن لديك الكثير من الحق، لن أقدّم مبررات لأعتذر.. ولسوف تعذرين.. يكفي أن تتذكري أنني كنت آن قراءة تلك القصص الثلاث التي في آخر المجموعة في كارثة صحية جاحمة. وهذا لا يعفيني.. ولكن يا صديقتي العزيزة حقّك هذا لا يجوز أن يمنعني من الذهاب إلى حيث أشاء، أعني من أن أتخذ الموقف الذي أريد. وأرجو أنني سوف أعوّضك، ذات يوم قريب، عن هذا الضرر الذي ألحقته بك دون مراعاة لشعورك المرهف النبيل.

وفي الحق أنني كثيراً ما أغفل عن الحقيقة، وكثيراً ما تعود علي غفلتي بعواقب وخيمة جداً. فلعل في ميسور أيّ وغد أن يستدرجني، بعدما يستخدم طعماً مموهاً بالعسل، إلى فخ يتعذر الخروج منه أيما تعذر. وفضلاً عن ذلك أنني شديد الهشاشة إزاء المعضلات، حتى كأن اللاحولية هي صفتي الأولى. وهذا يعني أنني بغير تأثير في هذه الدنيا. والأهم من ذلك أن العالم كان، يوم ولادتي، أفضل بكثير مما هو عليه الآن.

لازلت أذكر سويعة قضيناها معاً بحضور مختار العلي، في مطعم العجلوني، في الربوة، أواخر آب، سنة ١٩٨٠، يوم كنت لا تزالين في فوعة زمانك وشبابك. أمّا خلاصة معناك، كما ارتسمت في مخيلتي منذ تلك الأيام، فهي أنك أنت اللطافة والعذوبة نفسها، وإن لم تكوني خالية من التوتر والقلق اللذين يُضمران الحساسية والقدرة على الحضور.

ولهذ، فإنني كثيراً ما يخطر في بالي ذلك الفرق الفاصل بين الدماثة التي تتمتعين بها وبين همجية المجتمع الذي يحيط بك من جميع الجهات. فلكم هو قاس هذا الوجود على الحسّاسين وذوي السرائر البريئة النظيفة الصادقة. يقول رينتشاردسن، وهو واحد من مؤسسي الرواية في إنكلترا، وقد كان محاطاً بمجموعة من النساء يؤمنّ بأنه صاحب رسالة كونية، أو نبي مرسل:" لاشيء أمتع من صحبة النساء الذكيات». وها إنّ بيننا صحبة عميقة وأصيلة، أسّستها المراسلة التي انقضت على بدايتها سنة ونصف السنة تقريباً. فلكم نحن أقرباء بعد هذه المدة القصيرة. تخيلي.. لقد صرنا أقرباء بالمراسلة وحسب.

ولما كنتِ من أهل الفطنة والحساسية والذكاء، فإن بودي أن أطرح عليكِ هذا السؤال الذي يتسلط على ذهني في هذه الأيام: هل ترين من لزوم لتطوير فلسفة قد تجوز تسميتها باسم فلسفة التقزز، أو فلسفة الاشمئزاز والازدراء؟ وهي مذهب ينظر إلى الموجودات بأسرها على أنها كتلة من القذر، أو من البلاهة والسخف اللامتناهي واتضاع القيمة حتى درجة التفاهة. وفي حسباني أن هذه الفلسفة قد تفضي إلى اتباع سلوك العطالة والبطالة والكف عن أي نشاط جدّي، وذلك لأنها تشمئز من كل شيء باستثناء النوم والعزلة اللذين هما أكثر الأشياء شبهاً بالموت. ولا مانع يمنع من أن تصاغ هذه الفلسفة بلغة مورقة زاهرة ندية، وذلك لأن من شأن جمال اللغة، بل كلّ جمال على الإطلاق، أن يخفف من وطأة الكوابيس على روح الإنسان.

وفي الحق أنني لست تنديدياً، ولكن الواقع يفرض على الروح بؤساً باهظاً لانجاة لها منه إلا بالبلادة البقرية وحدها. ولكن كل بلادة هي شيء كريه مذموم عند جميع الحسّاسين.

ترى، أليس مما هو شائن أن العالم العربي الحديث، وهو الشاسع المنداح، لم يستطع أن يطور أية فلسفة مهما يك نوعها؟ ألا يزيد هذا العالم العربي عن كونه حظيرة حيوانات؟ ماذا، هل نأكل وننام كالبهائم تماماً، فلا نصلح لحكمة ولا لقتال؟ ألا نتحسس وجودنا ولا نفحصه، وكأننا لسنا كائنات بشرية؟ يقول أفلاطون في «الدفاع»: «إن حياة لاتفحص لهي حياة لا تستحق أن تعاش».

ومما يشجع المرء على الاشمئزاز أن الإنسان يزداد تضاؤلاً وانحساراً كلما ازدادت المدينة تورماً وامتداداً، بل إن قيمة الانسان تتناقص أكثر فأكثر كلما صارت الوحدة النقدية (الليرة، مثلاً) أكثر عجزاً عن الشراء.

ولكن علي أن أعترف جهرةً، في الوقت نفسه، بأنني أنوس أو أتأرجح بين هذه النزعة التحقيرية وبين نزعة توقير الحياة. وهذه النزعة الأخيرة معنية بصناعة بذور المستقبل أو خمائر الغد المأمول. ولكن، هل بقي هنالك مستقبل للجنس البشري كله بعد أسلحة الاجتثاث الشامل، بل حتى بعد قنبلة الأطنان العشرة التي أحالت أفغانستان إلى أرض محروقة؟ وهل ظل في ميسور اللغة أن تصنع بذاراً وخميرة، من أي نوع كان؟

فربما جاز الاعتقاد اليوم بأن اللغة قد عسّت أو تخشّرت، أي خسرت لدانتها ونضارتها، فصارت أشبه بالأخشاب منها بالعساليج الغضيرة. فأنا أشعر بأن اللغة ما عادت قادرة على أن تقول الكثير.

ولهذا أراني جانحاً إلى الاعتقاد بأن الإنسانية قد هرمت، أو شاخت وباخت حتى بدت عليها كسفة الزوال، ولم يعد لها من زهو أو بشاشة إلا الشيء اليسير، وإني أكاد أسمع حشرجتها أو صوت اختناقها في جوف الظلام الحالك.

ولعل من شأن هذه الحشرجة أن تفسر طرد المثقف أو المبدع إلى هامش الحياة في عالم مادي يتحكم به تحالف المال والسلاح، وهما بعض من فحيح جهنم وزفيرها الأسود. إن عالماً يفرز اليهود لايسعه أن يكون سوى مزبلة لاتستحق إلا الازدراء. ثم ليتك تشاركينني الاعتقاد بأن الأمة التي أنتجت بوش وانتخبته رئيساً لها لهي أحقر أمة في التاريخ كله. ترى، هل بقي هنالك أي عزاء أو أي معاذ، مهما يك نوعه.

لكم أعياني أن الإنسان محتال مخادع كذّاب، وأن الإنسان أناني وناكر للجميل، وأن الإنسان لايحجم عن اتخاذ الآخر وسيلة لغاياته، حتى ما كان منها خسيساً أو دنيئاً.

وربما جاز لي أن أذهب إلى أن جملة هذه الحقائق، أعني شيخوخة البشرية وحشرجتها، وعساء اللغة أو تيبسها، وفساد الوضع الانساني الشامل لجميع الأجزاء – إن هذا كله يملك أن يحضّني على انتهاج نهج الاشمئزاز والاحتقار.

ولئن كنّا نحن المأزومين على الدوام، والمغتربين حتى بين ذوينا، والمنذورين لما لاينال ولا يُدانى، لئن كنا نكابد النفي والنبذ إلى الهامش في عالم شديد اللزوجة، بل شديد الغثاثة والرثاثة، فإن الجنس البشري كله، ولا سيما من كان حساساً ونفيساً، يكابد مجموعة من الكوابيس التي تتسلط على الروح أيما تسلط. ومن شأن هذه الكوابيس أن تدفع الناجين من البلادة والرهل الداخلي إلى انتهاج نهج التقزز والاشمئزاز.

ولعل كابوس الحاجات المادية وكابوس الحاجة الغرامية، أو كابوس الاتصال بالكائن الذي يختزل الديمومة في برهة واحدة، وكذلك كابوس المرض الذي أراه سلباً لا يبذه أي سلب آخر، حتى اليهود أصحاب الأنياب الزرقاء كأنياب الأفاعي – إن هذه الكوابيس الثلاثة بخاصة هي الأشد وطأة بين جميع الكوابيس التي نقاسي أو نعيش. والجدير بالتنويه في هذا الموضع أن المرض قد لازمني منذ ولادتي حتى يوم الناس هذا، عدا الفترة الواقعة بين سنة ١٩٧٦ وسنة ١٩٨٤. وفي تلك الآونة التقيت بك أو تعرفت عليك.

أمّا الموت، على جهامته ومرارة طعمه، فهو الصديق الصدوق لكل ماهو شائخ أو بائس أو مريض، وذلك لأنه يقدم لليائسين خشبة الخلاص من كل تعاسة وشقاء. ولكنه في الوقت نفسه، يجعل الإنسان ذلك الموجود الذي يعي نهايته. وعندئذ فإنه يستلب القيمة من جميع الكائنات، فيغدو الوجود والعدم سيان متساويان.

وبسبب هذه الكوابيس الهائلة التي يصنعها عالم لايملك أن يصنع الدهشة إلا لماماً، فإنني أؤكّد دوماً على أن الإنسان كائن مغبون، وذلك لأنه يعاني الكثير من الألم في مقابل اليسير من المتعة أو السرور. وعندي أن اللحظات المبهجة أو اللاّذّة هي وحدها التي تعد من صلب العمر، وما عداها سأم أو ألم لا لزوم له بتاتاً.

وفي الحق أن الكوابيس من الكثرة بحيث لاتحصى. ومما هو صادق في ذهني أنها تجعل الصليب أكبر رمز بين جميع الرموز التي ابتكرها البشر، وذلك لأنه إشارة إلى الانسان المصلوب على جدار الزمن.

ولعل أهم ما في أمرها أنها كانت على الدوام تؤلف المحتويات الكبرى للآداب العالمية في جميع البلدان. وفي تخميني أن كلاًّ منها تقريباً يصلح موضوعاً لرواية متميزة.

وإنني أحثك على كتابة الرواية، وذلك لأنها الأقدر، بين جميع الأجناس الأدبية، على تخريج الشعور الحديث، بل على البلوغ إلى مركز العالم الإنساني حصراً، ولاسيما إذا تمتعت بالكثافة الكافية وغير المتطرفة أو المتكلّفة، إذ التكلف أو الاصطناع هو آفة الآداب في كل زمان ومكان. ففي الرواية وحدها تملك الأشياء أن تتمور وينداح عَرامها إلى جميع الآفاق. وحبذا لو تطوع واحد من ذوي النفوس المطهمة المرهفة ليكتب رواية يشرح فيها ذلك الُهيام الصِبويّ اللاهف الحميم، وهو ما أراه الفعل الأنفس بين جميع الأفعال التي تفعلها النفس طوال وجودها على الأرض. ولكن تشكيل هذا الموضوع أمر شديد العسر، أو موغل في المشقة.

ومما قد يشجع المرء على تفضيل الرواية نهجاً للتعبير عن الوجدان الحساس أن القصيدة الحديثة تأسنتْ في هذه الأيام الموحلة، أمّا المسرحية فلم يقيض لها أن تنضج في العالم العربي، مع أن مائة وخمسين سنة مرت على بداية المسرح عندنا.

إن اهتمام الكاتب الأدبي بأيّ من هذه الكوابيس يملك أن يقرّبه من الأدب الفرنسي الحديث، ولا سيما أدب يونسكو وبكت. ولكنني أرى أن النموذج الذي قدمه لورنس الانجليزي هو أفضل من هذا النموذج الفرنسي بكثير.

لقد انحاز ذلك الروائي النادر إلى جانب الحياة «النقية الزاهية المتضرّمة»، على حد قوله، أو إلى جانب «الحياة المتقزّحة اللون مثل قوس قزح في نيسان». ويشعر قارؤه بأن ثمة مبدأ فكرياً يكمن خلف كل رواية من رواياته الكبرى. إنه مبدأ التفتح والوصال والتحام الحي بالحي. ولهذا، قيل عنه بأنه «قوة من أجل الحياة».

يا إلهي ! ما أتعس الإنسان فتحت كومة من الكوابيس يتحتم عليه أن يعيش طوال كومة كبيرة من السنين المملة الماحلة التافهة. وهذا أمر من شأنه أن يجعل التقزز مذهباً مستساغاً في نظر الحسّاسين، أو ذوي الوجدان المرهف اللطيف.

هل ترين، يا غادة، أيّما تعويض من شأنه أن يعوض المرء عن مقاساة هذه الكوابيس الخانقة ؟

تُرى، هل نذهب مع شوبنهور إلى الاعتقاد بأن الفن عزاء عن هذا البؤس الشامل، أم نتبنى موقف توماس هاردي، ذلك الروائي الانجليزي الفذ، الذي رفض كل عزاء على الإطلاق، حتى الفن والأدب والدين ؟

ولسوف أتركك الآن مع هذا السؤال الفادح، وألوذ بالصمت إلى أجل غير مسمى. وربما تابعت الحديث في هذا الموضوع بعد مدة من الزمن.

صديقك المتعاطف مع مكابدتك لكوابيسك

يوسف سامي اليوسف

دمشق في يوم الأحد الموافق للعاشر من شباط سنة ٢٠٠٨

الرسالة (١١)

السيدة غادة اليوسف المحترمة.

لكِ الخير كله، ولك السلام والمودة والتبجيل.

في هذا الصباح (الأحد، الموافق للسابع عشر من شهر شباط الجاري) وقعت في يدي نسخة من جريدة «النور» الصادرة قبل أربعة أيام تماماً، أو في اليوم السابق على عيد الحب الأخير. عيد الحب!؟

وقد لفتت انتباهي صورتك على الصفحة الأخيرة من تلك الجريدة، فأخذتها معي إلى البيت، وقرأت زاويتك التي تشرح أوجاعك أو رؤيتك الذاتية للمآل الذي آل إليه الحب في المجتمعات الراهنة، وهي المحكومة بمنطق التجارة والبضائع والأسواق، ولاتقيم أيما وزن لإنسانية الإنسان.

ولكم يثير الشجن في جوف روحي هذا القول الذي يصدر عن حساسية حميمة ونبيلة: "العالم أعزل من الحب، قفر وقاحل، وعيش بلا معنى ولا أحلام، ولا طعم له غير المرارة، هو عالم حزين يحتضر." وإنني أوافقك تماماً على هذا القول الواصف لحقيقة الإنسان وعالمه الخالي من كل ما يملك أن يجعل الحياة زاكية شهية.

ولكم هي موفقة عبارة «أعزل من الحب» وفي الحق أنه أعزل من الحب لأنه مدجج بالسلاح. ولقد لاحظ «توينبي» في دراسة للتاريخ أن الإفراط في التسلح هو علامة انحطاط. وأخذ مثالاً على هذه الحقيقة ذلك المصير المأسوي الذي أنهى وجود آشور في أواخر القرن السابع قبل الميلاد. «لقد سقطت آشور جثة مدججة بسلاحها».

وفي مذهبي أن حضارة العلم والصناعة ما كانت إلا وبالاً على الجنس البشري، وذلك لأنها عطبت بذور الحياة الحقيقية وجرّفت جذور الإنسان

وأصوله. ويبدو لي أن البشرية قد دخلت في وثنية منحطة، مادامت لاتعبد شيئاً قدر ما تعبد المادة. أمّا علائم الانحطاط فكثيرة في هذه الأيام، وأبرزها الأموال والبضائع والعمارة والرياضة وتضخم المدن وكثرة السكان.

وأيّاً ما كان جوهر الأمر، فإنني أقدّر الطيب الشريف، ولا سيما إذا كان ممزوجاً بالعنصر المشجي والعنصر الحنون العطوف، وكذلك بعنصر الدماثة الأهيف المتلطف النشوان. فلكم راقني أنك ترعشين بهذه الطريقة الانسانية الدافئة النبيلة، فاجتذبني موقفك هذا لما فيه من رهف في الوجدان وصدق في الشعور وبعدٌ عن البلادة ورهل الروح.

يلوح لي أن وظيفة الفن والأدب، ولاسيما حين لا تنقصهما سمة المجيء من خلد قصي، أو من حساسية مرهفة وقادرة على إشباع الذائقة، هي أن نجعل الإنسان يقرأ فؤاده، أو صحيفة روحه، بعينيه الخاصتين، وذلك بوصفه كائناً قد يملك أن يتعالى فوق كوابيسه، أو فوق همومه وغمومه، وأن ينتصر عليها. وعندي أن الأدب بخاصة، وهو ما لا يكون إلا حيثما كانت اللغة، لا يبلغ الأوج إلا إذا جعل الإنسان يقرأ العالم أو الحياة قراءة فؤادية أو ذاتية، تماماً كما فعلت أنت في زاويتك التي تحمل هذا العنوان: "لماذا بكى الشاعر». فالروح يبلغ ذروة نبوغه حين يبلغ إلى برهة التفاعل الوجداني مع واقعه المؤلم التعيس. ولهذا السبب حصراً كانت المأساة أرقى أصناف الأدب أو أجناسه.

أليس غريباً، يا غادة، أننا في البلدان الناطقة باللغة العربية عاجزون تماماً عن كتابة المسرحية المأسوية، حتى لكأننا غلمان قاصرون؟ وعندي أن عصراً لا يملك أن ينجز مثل هذا الانجاز هو عصر بليد بالضرورة، أو قل إنه كله بغير قيمة لأنه لا يستوعي الوجه البائس لتجربته التي هي تجربة مريرة دون أدنى ريب. وربما جاز القول بأن فحص الحياة الذي قال به أفلاطون لا يبلغ أقصى أشواطه إلا حين يكتب هذا الجنس من أجناس التعبير. ولكم أشعر بأنني منكود الحظ، لأن القدر حتّم علي أن أعيش في زمن بليد، أو تعوزه القدرة على تحسس الرعب والألم المتفشيان فيه من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي،

أي هو لا يملك أن ينهض بعبء الفعل الأصيل. ترى، لئن غابت الأصالة، هل يبقى شيء سوى الرماد ؟

وإذ تسألين، في نهاية الزاوية، عن مغيث يغيث البشرية التي تصفينها بأنها مريضة، فإنك أشبه بمن يبحث عن النخيل في أحد القطبين المتجمدين. ولكم أصاب ذلك الشاعر الذي قال ذات يوم: «إنني كسيح، ولكن ليس ثمة من مسيح».

ومع ذلك، فقد رحت أنا أنقّب عن مخرج بين ركام الأشياء. ففي هذه الأيام الماحلة، وتحت وطأة المرض التي اشتددت أثناء موجة الصقيع في كانون الثاني الأخير، أبذل جهداً كي أنجز كشفاً صوفياً كبيراً في عالم الباطن المستور. ويتلخص هذا الجهد بأنه محاولة تهدف – عبر التأمل الصوفي أو البوذي حصراً – إلى الاتصال بالسر السرير، ومعاينته بواسطة النور الفطري المركوز في الجبلة الأصلية. ثم بواسطة «الصدق في الطلب»، وذلك ابتغاء الخروج من الآلام المبرّحة التي يسببها غياب الله لروح الانسان الناجي من بلادة الوجدان. أليس هذا أفضل من ممارسة الثؤباء؟

وربما جاز لي أن أزعم بأن مثل هذه التجربة الرامية إلى الاحتكاك بالكنه، أو بعمق الأشياء، لا تقلّ عن كونها تزجية للوقت الذي يصير باهظ الوطأة إذا ما تركه المرء شاغراً، أو بغير حراك، مهما يك نوعه. فتحت ضغط الضجر الذي أعيشه في هذه الأيام الخاوية ألّفت هذا البيت من الشعر:

هـــل مــــن جلـــيسٍ مـــؤنسٍ، فأنـــا

أقـــضي النهـــار أمـــارس الـــسأما

إذن، لا أراني أبحث إلا عن السر القصي الوطيد، أو غير القابل للانتهاك الغوغائي، والذي من شأنه أن يجعل النجوم الزاهرة نفسها تلتحف بالظلام الدامس. وقد يجوز الزعم بأن كل إنسان في أمسّ الحاجة إلى من يوقظ روحه على السر، أو على الفحوى، وذلك لأن التهجس للسر لايقل عن كونه آية

على الصحة الروحية التي يندر أن يتمتع بها إنسان عصرنا الراهن البليد. ومما يلوح لي أن ثمّة صلة فقهية بين السر، من جهة، وبين السرير والسرور، من جهة ثانية. وإنني أستطيع أن أفض هذا الاشتباك، ولكن المجال لا يتسع لذلك في هذا الموضع.

وأمام عتبة السر، يتبدى العقل نفسه وكأنه في حالة اعتقال تحول بينه وبين التّماس مع المستورات. فالسر منيع حصين ولم تسمح قوة الابتكار بأن يمسّه غير المختارين، مع أنه يتلامح في الأشياء المرئية ويرعش. ولكم أجاد ابن عجيبة الحَسَني حين قال في «شرح الحكم»، وهو كتاب نادر نفيس قلّ أن يطالع المرء كتاباً في التصوف مثله: «الكائنات تكثيف للسر اللطيف».

وعلى أية حال، فإنني أنصحك بأن تحاولي الاتصال بالمستور المكنون، سواء عن طريق الدين أو عن طريق الخيال، وذلك لأنك تبحثين عن مخرج يخرجك من الأزمة الشاملة. فإذا ما اتصلت بالسر اتصالاً فعلياً، فإنك قد تجدين معاذاً تعوذين به من همجية هذا العالم وغوغائيته وبؤس محتواه.

لك الخير والمودة والتبجيل مرةً ثانية.

والسلام لروحك الموجوعة وطهرها الناصع النظيف.

المخلص يوسف سامي اليوسف

مخيم اليرموك،

يوم الأحد الموافق للسابع عشر من شهر شباط، سنة ٢٠٠٨.

الرسالة (١٢)

السيدة غادة اليوسف الفاضلة

تحية طيبة وبعد،

لا ريب في أن وفاة ميديا، المأسوف على شبابها، قد كانت فاجعة بكل مافي الكلمة من محتوى، مع أنها حادثة لا أحسبها مفاجئة قط. ولقد ذهبتُ إلى بيت الشهابي للتعزية، وقضيت هنالك ثلاث ساعات كاملة تحدثت خلالها مع أم علي وعلي وزوجته الشابة هوازن. وأتمنى لو كان في ميسوري أن أعزيك مباشرة، ولكن صحتي لا تسمح لي بالسفر. فإذا تعبتْ عضلة قلبي دخلتُ جهنم فوراً. وأظن أن هذه الرسالة هي أقصى ما أستطيع أن أفعل بهذا الخصوص.

لكم نحن كائنات مغبونة تكابد موتها وموت أحبابها مقابل لاشيء، أو مقابل شيء زهيد جداً، أقصد رعشة الحب السريعة الزوال. فالحب هو التعويض الايجابي للسلب الذي هو الموت، أو هو قطعة الحلوى التي تهبها الطبيعة لكائن حكمت عليه بالإعدام. ولكن هذا التعويض الطفيف الشأن لايكافيء الكفة الأخرى من الميزان بتاتاً. إنه كمن أضاع ديناراً ووجد قرشاً واحداً يكاد أن يكون بغير قيمة.

وربما جاز لي أن أزعم بأن الإنسان إذا مات شاباًُ، وهو ماحدث لميديا فعلاً، فإنه يكون قد ارتاح من مكابدة ذلك السلب البائس المرير الذي يسمى الشيخوخة. ثم إنني قد يحالفني السداد إذا ما ذهبت إلى أن الشيخوخة (وكذلك المرض) برزخ يتوسط بين الحياة والموت. فلا هو حياة ولا هو موت في الوقت نفسه. إنه الحال الثالثة التي هي لا هذا ولا ذاك، تماماً مثلما أن الأعراف حالة ثالثة لاتنتسب إلى الجنة ولا إلى النار. ولكن الشيخوخة المريضة هي الجحيم

الجاحم نفسه. فحين يتحالف المرض والشيخوخة على المرء فإنه يغوص في أثباج جهنم بكل تأكيد. يا إلهي! إن جسدي عبء باهظ عتلتْه روحي طوال عشرات السنين. فها أنا ا أقف على حافة الهاوية، ذاوياً ذابلاً، مضنى ومُثغّراً بعدد من الأمراض، وأوشك على الانزلاق إلى أسفل سافلين، أو إلى أرذل العمر الذي تَفْضُله جهنم بمسافة فلكية.

أتدرين البؤس عندي؟ أن تموت النفس ويبقى الجسد حياً يتنفس ويتحرك. ولكنني لا أريد أن أصدع رأسك بالمزيد.

أرجو أن تكتبي إلي، فأنا أحب أن أقرأ رسائلك. ثم أنك لم ترسلي لي أية رسالة منذ ثلاثة أشهر. أليست هذه مدة كافية للاستراحة من كتابة الرسائل ؟ لك المودة كلها والصدق كله. وإلى اللقاء.

أبو الوليد

دمشق في ٥/٥/٢٠٠٨

الرسالة (١٣)

عزيزتي غادة،

تحية من سويداء الفؤاد.

لكم آلمني أنك قد أبديت الكثير من الوجع بالأمس عندما اتصلت بك عبر الهاتف الجوال لأسألك عما إذا كان الكتاب الذي أرسلته إليك قد وصلك أم لا. فلقد كويت كبدي بحزنك الذي يلوعك ويعذبك دون أية رحمة. صدقيني أنني شعرت وكأن نياط قلبي راحت تتقطع لشدة ما دهمني من إشفاق عليك وعلى فؤادك الذي يعاني المرارة والكآبة.

ويلوح لي أن الفجيعة التي حلت بك، أقصد وفاة ميديا، هي حدث جلل أحال روحك إلى حطام. ولكنني أتمنى بحرارة أن لا تكون هذه الحال إلا عرضاً زائلاً، ولا بقاء له إلا مؤقتاً، وحسب. ولقد تأكدت من هول المصيبة وفداحتها حينما سمعتك تصرحين بأن قناعاتك اهتزت أيما اهتزاز بعد هذه الملمة التي ألمّت بك منذ فترة وجيزة.

بيد أنني طافح برجاء فحواه أن تتمكني من إحالة هذا الشعور إلى أدب مأسوي مترع بالفحوى والدلالة الروحية الأصلية النفيسة. ففي الحق أن الآداب كلها شعور وحسب، ولكنها شعور استحال إلى لغة بعدما طهته الحساسية على نار لينة.

وفي قرارة الوضع البشري يربض رعب حالك يشبه الوحل المتعفن، ومن مقاساة هذا الهول يتدفق المسرح المأسوي الذي أراه ذروة الفنون بأسرها. ففي الحق إن أسمى أنماط الأدب لا تدور على النعمة، بل على النقمة، أو على جميع السجايا الوثيقة الصلة بالشرور، أو المترعة بالجلافة والبذاء. غير أن

فطرة الأدب أن يضفي الجلال الفاجع ومهابته على جميع منجزاته المأسوية الرفيعة، أو ذات الفداحة الباهظة. وبذلك، فإنه يجعلها نفيسة أو مأهولة بالقيمة الباذخة.

عزيزتي غادة،

ليتك تعودين إلى ماكنت عليه من وضاءة وحيوية وفاعلية، وليتك تباشرين الكتابة من جديد، وبروح عارمة موّارة بالأنساغ الحية البهية. ولكم أتمنى لو أنني إلى جوارك عسى أن أتمكن من تخفيف حدة الصدمة التي تقاسين أوجاعها المريرة، مع أن صحتي لا تسر الصديق في هذه الأيام.

أرجو أن أتلقى منك رسالة ناجية من كل اكتئاب قاتم، أو من هذه المكابدة التي تجلد روحك المسكينة الطيبة. واسلمي ودومي لي أختاً وصديقة من شأنها أن تؤنس روحي على وحشة هذا الوجود الذي تفور فيه الشرور وتمور.

المخلص أبو الوليد

دمشق، صبيحة الأربعاء

الموافق للخامس والعشرين من شهر حزيران، سنة ٢٠٠٨

الرسالة (١٤)

عزيزتي غادة الغالية

لقد فريت كبدي عندما رحت تبكين وأنت تكلمينني بالهاتف منذ بضعة أيام. ولكم تألمت حينما سمعتك تقولين: «ليس هنالك في الوجود سوى أنا والفجيعة». يا إلهي! لماذا تلفظت بذلك القول المرير الحارق للمهجة الحساسة؟ أما خفت على قلبي المريض من أن يتأزم فيتفاقم الوجع وأنقل إلى غرفة العناية المشددة في أحد المشافي؟ رفقاً بنفسك قبل كل شيء. فما هذا الإفراط في البكاء، يا غادة، يا صديقتي الطيبة الجميلة.

أريد منك أن تخرجي خروجاً نهائياً محسوماً من هذه الحال البائسة اليائسة الخطيرة التي قد تفضي إلى أمراض قد يكون الجحيم أرحم منها.

ولهذا، فإنني أدعوك لقضاء أسبوع في بيتنا الذي لا تعرفينه. فلقد هدمنا المنزل القديم وبنينا مكانه بنايةً من ثلاث طوابق. ونحن اليوم نعيش في الطابق الأوسط، وهو الواسع الذي تبلغ مساحته مائتين وعشرين من الأمتار المربعة. وإذا كنت لا ترغبين في ضيافتنا فانزلي في أي فندق لليلة أو ليلتين، وبلغيني لأراك، علني أخفف عنك بعض مابك من لوعة وأوجاع. هذا عدا عن أن السفر قد يكون صنفاً من أصناف السلوان.

كما أنني أقترح عليك أن تعمدي إلى قطعة كبيرة من الذهب، ولتكن سواراً، مثلاً، وأن تنظري إليها كثيراً جداً. وحبذا أن تضعيها في كفك لساعات طويلة يومياً. فمن شأن لون الذهب أن يفتّح مسام النفس وينعشها ويبدّل أحوالها نحو الأحسن والأهنأ. نعم، قد يكون الذهب صنفاً آخر من أصناف السلوان.

أمّا الاقتراح الثالث فخلاصته أن تكتبي لي، أو لأي من ثِقاتك الخلّص،

رسالة تشرحين فيها ما تقاسين من حزن وهمّ وغم. فقد يتمكن تفريغ المحتوى النفسي الأسود على الورق من أن يخفض درجة التوتر والإكتئاب إلى حدها الأدنى. ففي معظم الأحيان يأتي التعبير ليريح النفس من شِحنتها وغمّتها، أو ليكون بمثابة دحر للشدّة التي تفتك بالصميم.

ولسوف أكرر مرة أخرى ما فحواه أن حياتنا مفروضة علينا فرضاً، فلا بد لنا أن نعيشها، سواء أعجبتنا أو لم تعجبنا. وبما أنها حتم واضطرار، فقد صار من الأفضل أن نعيشها بأخفض درجة ممكنة من درجات التوتر والمكابدة. ولهذا، أراني ناصحاً لك بأن تبذلي قصارى جهدك ابتغاء الخروج من هذا الكلوح الابليسي الذي يتلبس روحك من غورها العميق.

عزيزتي الطيبة.

ها أنا ذا أجزم بأنه ما من شيء ينفع أو يجدي فتيلاً. ومع ذلك فإنني أريد منك أن تعايشي التفور والرعش، التوقد والتوهج، ثم التدفق من الداخل إلى الخارج. والحياة هي الحرارة والتحمس لأمر من الأمور الكبيرة العظيمة. وأنا أريد منك أن تعايشي الفعل الأصيل الذي لايقوى عليه سوى الروح المطهم الأصيل. إن الإنسان الاقتحامي خير من الإنسان الراكد المتقاعس الهيّاب. ولما كان لابد من أن نعيش حياتنا فلنعشها على خير وجه ممكن. فالعمل أفضل من الكسل.

وهذا يعني أن تحيلي تجربتك الراهنة إلى أدب حي ذي كيفية رفيعة، بل سامقة نبيلة. فربما كان العيش من أجل هدف نبيل تعويضاً عن هذا البؤس الجامح المتفشي من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، ومحاولة لإحلال الملاء محل الخلاء الذي يجتاح الكون بمجراته التي لاتحصى ولا تعد.

لعل من الحكمة أن نعيش حياتنا بأقل كلفة نفسية ممكنة. فالهدف ليس الجداء، ولا الانتفاع، بل خفض درجة الألم، ولك لأن الألم من فيح جهنم، أو من طبيعة شيطانية. وأنا أسميه صليب الصلبوت، وذلك لأنه لا يقل عن كونه سوط عذاب يجلد الروح أكثر مما يجلد الجسد.

لكم أتمنى لو أنني في حمص، أو إلى جوارك بالضبط. بل لكم أتمنى لو أنني أستطيع أن أسافر، إذن لأتيتك فوراً، علني أملك أن أخفف عنك شيئاً من باهظ العبء الي تعتلين على كاهلك الموهون. ومما هو جد مؤسف أن مرضي يحول دون ذلك حؤولاً تاماً بكل صدق وجزم وتأكيد.

في الأسبوع الأول من شهر آب القادم سوف يصدر لي كتاب عنوانه " دمشق التي عايشتها"، وذلك في سلسلة الكتاب الشهري الذي تصدره جريدة "البعث" وتوزعه بالمجان. سوف أرسل لك نسخة فور صدوره، وذلك لكي أعيدك إلى السياق السالف، إن استطعت.

المخلص أبو الوليد

دمشق في السابع والعشرين من تموز (الأحد)، ٢٠٠٨

الجواب (١٤)

صديقي الطيب أبو الوليد الوحيد، النائي، القريب، في عالم بات فارغاً من كل فحوى.

سلام لروحك والجسد، إذ لاشيء كمثل السلام، فله - إن غمرَنا - أن يحيل ضرام الحياة إلى مايمكن احتماله لهجعةٍ، قد تمدّنا ببعض السكينة.

أرسلت لك ثلاث رسائل، وأنا ألوب على أصابعي علّها تسعفني والقلمُ لأقدر على أن أكتب ما يستحق، بعد أن صار كل مافي الكون هياكل شبحية كالحة، لامعنى لها. وبتّ أشعر كم هو صغير ووضيع وقاحل موحش هذا العالم. وكأن تجربة الموت التي أطاحت بي أيقظتني على حقيقة البؤس الذي يخوّض فيه ذلك الكائن الضعيف المدعو بـ(الإنسان). المحكوم بالفراق والفقدان الذي من شأنه أن يحيل الحياة إلى مرادفٍ للألم والحنين إلى مفقود هو بمثابة الروح، والذي لن يعود، أبداً.

أجل، إنه الموت، يشمخ بوجه عجزي، ويبعثر ما رصفته الأوهام من دروب. يخطف من نحب، ويفرغ حياتنا من النكهة. فتفقد الأشياء معناها إذ تفقد روحها. ويغادر كل موجود روحه. وكل ما يغادر المعنى عدمٌ يغوص في ظلمة لا قرار لها.

إن مابي أجلّ وأغمض مما تحيط به الكلمات. إنه الموت الذي كشف ما وصل إليه عقلي من حقيقة ضياعه في غمرة الغموض الذي يكتنف معنى الحياة – إن كان لها معنى – وأراني مُطوّحةً بين السماء والأرض.

إنه الموت، هذا العصي على الفهم، يخلخل ما كان يحسبه إيماني يقيناً، يشطرني إلى شظايا، تلوب على يقين يهدهد لوعتي. هلعي على من فقدت كشف لي أنني فقدت سعادة وطمأنينة البلهاء. وحنيني لابنتي ميديا يدفع بي لأبحث عن حقيقة مقنِعة بضراوة من يرعبه العدم. ويروّعني ارتطامي بفجيعة مماثلة، وهي أنني لن أنتهي إلى شيء.

أجل، إنني مطوّحة بين السماء والأرض، وبين الماضي والحاضر، والرعب من الآتي. فلا يقر بي إخبات المخبتين، ولا يريحني – لقصوره – يقين العارفين. خلاء يملؤه الشك الذي يحيل العقل إلى محرقة جنونية لا تهجع، ويلقي بالروح في ضرام يصبح معه برد السكينة حلماً مستحيلاً.

بعد رحيلها، أمسيت كائناً مبهماً، بلا هوية. كائن، هو مزيج من حطام بشري لا معنى له سوى صورة لتشظّي الروح وانخمادها بعد إعصار مدمّر، كشفتْ نيرانه كل شيء، وتركتني أطلال إنسان حاول أن يعيش كما يليق، ولكنه تاه في دروب ما يسمى بـ(الحياة)، وذلك حين غدرت به السدود منتحلةً هوية الأبواب المشرعة.

أتسوّلُها.. بين قامات الصبايا، وضحكات طفلة شقراء في بيت الجيران. أتسوّلها من نظرة عابرة لفارهة شقراء بعينين نزقتين، ترمق لهفتي بلا مبالاة.. ويطرِق الشارع خجلاً من يدي اللتين تعودان خاويتين من العزاء، مليئتين بالخواء.

أحنّ إليها.. ويتبارى الزمن واللوعة على حطامي. أشتاق لصوتها.. لرائحتها..رائحة الحليب الأولى، وبودرة الطفولة. وتختزن جدران البيت ذاكرة أيامها المدنفة. وبلاط البيت ما يزال ينبض بوقع خطواتها. لن تستطيع دموع العالم أن تغسل عن جدران روحي سجلّ أيامها. سكنتني، وخالطت الهواء الذي أتنفس.

لقد كان لنا مع الفجر ذات الأنين والدمع. رحلتْ، وبقيتُ أنا والأنين والدمع. أحلم برجوعها إلى حضني، بعد أن طهّرته عبقرية الألم من بقايا غباوته.

أتدثر بغربتي والفراغ المكتظ ببلادة المحيطين بي. وأنهمر على دروبي التي أضاعت وجهتها، دمعةً بحجم عمْرٍ التَهَمه الهباء والصمت.

ها قد رحلت كما رحلت شقيقتها منذ سنين، ترى، من يعانقني لتقديم العزاء!؟ أمدّ لهفتي بين موتين، وفاجعتين، يفصلهما اثنتان وعشرون سنة، فينساب نهر من دموع، يسقي ظلّين لوردتين مقطوعتين من رحمي. وأبقى بينهما سنديانةً اجتُثّت، وغادرتْ ظلها، وهي تهوي في غور عمر مضى مسرعاً، يحمل عكازه، ويغادر إلى ضفة مجهولة.

صديقتك غادة

حمص في ٢٠آب ٢٠٠٨

الرسالة (١٥)

غادتي الغالية والحزينة حتى التخوم القصوى للحزن والاكتئاب.

لكِ الصرف من مودتي وعاطفتي والمحض من وجداني ومحبتي. ولك تحية حميمة صادرة عن نواة روحٍ تتلهب احتراقاً لما أنت فيه من بؤس وألم مريرين.

طالعت رسالتك المؤرخة بتاريخ العشرين من شهر آب الجاري، فأيقظتْ فيّ كتلةً من الظلمات كانت غافية في قرارة الوجدان. ورأيت فيها من اللوعة والحسرة والحرقة ما يملك أن يطفيء كل رغبة في الحياة. يا إلهي، لكم تكابدين، أيتها النفس المسكونة بحزن له من القدرة ما يكفي لتمزيق نياط الفؤاد.

فأنا لم أقرأ طوال حياتي كلها كتابة تختزن هذه الدرجة من الكلوح الرمادي الذي تختزنه رسالتك هذه. ومما يزيد في الاحساس بالفجيعة أن بؤسك هو بؤس الثكلى، أي إنه من النمط الأمومي الذي له ذكريات أمومية قديمة، والذي لايستطيع أحد، حتى وإن كان يهودياً أزرق الناب، إلا أن ينفعل به وأن يتعاطف معه.

يا إلهي! إن البؤس الرابض في باطنك المحزون له حجم قد يضارع حجم جبل هملايا، أو يبذّه ضخامة وامتداداً وارتفاعاً. ما هذا !؟ فأنت تعلمين أنني أكره الحياة وأعتقد جازماً بأنها لاتستحق أن تعاش، أو لنقل إنها «ما بتسوى» بتاتاً، ولا سيما شطرها الخريفي أو الشيخوخي. فجاءت رسالتك الحزينة لتقنعني بأنني على صواب في هذا الموقف العدمي.

والحقَّ أُعلن أن رسالتك الراهنة قد أذهلتني، مع أنني مملوك، طوال حياتي، للشعور بكآبة هي من الفصيلة

الأكثر سواداً في هذه الدنيا بأسرها. ولكن أهم مافي الأمر أنني وجدت من يقف على يميني في التشاؤم والإزراء بقيمة الحياة. كما أنها أقنعتني بوجود

-٩٥-

مفارقة حادة في هذه الدنيا خلاصتها هذه الحقيقة التي لامراء فيها: بينما يحتاج المرء إلى أفراح زفافية فائرة وألوان وردية يانعة، وبينما هو ينتظر تلك الأفراح وتلك الألوان، فإنه لايأتيه شيء سوى الفواجع والكوارث ذات اللون الشيطاني الحالك. فمنذ ثلاثين سنة أتيح لي أن أقول: رهط من السعالي يرقص على سلاسل البروق، وأنا أريد بكارات زاغبة. فبدلاً من الزاغبات اليانعات لا يلاقي المرء سوى عنصر متفحم كالح، فكأن ما يجري في الوجود ليس شيئاً آخر إلا عرس الغيلان على السعالي.

فليتني أستطيع سفراً، ياغادتي المحتاجة إلى من يُعنى بروحك المألومة المفجوعة، ويحيطك باللطف والحنان الصادق النبيل. ليتني أملك أن أسافر، إذن لأتيتك فوراً، علني أخفف عنك بعض ما بك من كرب، أيتها المرأة الطيبة التي ما عهدتها إلا جميلة من الخارج ومن الداخل في آن معاً. وربما عانقتك العناق الذي تذكرين في رسالتك، أو العناق الأبوي أو الأخوي أو الرفاقي الصادق والمترع بالحنان المتدفق من سويداء الفؤاد، فلعل ذلك أن يكون صنفاً من أصناف العزاء. أوَ يعقل أن ليس ثمة من يعانقك من أجل تقديم التعزيز لروح أنهكها الكرب على هذا النحو المضني؟

أيتها الغادة الغالية.

إنك في أمسّ الحاجة إلى إجازة تأخذينها من هذه اللعنة التي تغمّسك، بل تغلغل في بنيتك النفسية حتى الصميم. وقد سلف لي أن دعوتك لقضاء أسبوع أو اثنين عندنا في منزلنا الجاهز لاستقبالك. وها أنا ذا أكرر الدعوة من جديد عسى أن يتيسر لك شيء من العزاء والسلوان في وسط أسرتك الثانية.

إن كنت تصومين فتعالي خلال رمضان القادم، وإن كنت لاتصومين فتعالي خلال تشرين الأول الذي هو شهر الاعتدال الحراري، بل إنه شهر لطيف جداً، ولاسيما نصفه الثاني.

فالجميع في بيتنا يصومون إلا أنا، وذلك لأن الصيام يخثّر دماء مرضى القلب بسبب نقص السوائل، وإذا ما تخثّر الدم فقد يفضي الأمر إلى الشلل أو

الموت. والمرعب هو الأول وليس الثاني، فأنا، والله، أحتقر الموت والحياة على السواء، وأعتقد جازماً بأنه ما من إنسان كبير إلا ذاك الذي يزدريهما معاً.

أمّا ما أود التنبيه عليه والتشديد في رسالتي هذه هو أن ما بك من كرب و توتر واكتئاب مرير قد يفضي إلى مرض عضال، لا سمح الله. وقد تجدين المرض جحيماً يسحق المرء ولايمحقه، فلو محقه لأراحه من وجوده ومكابدات عيشه. ولهذا أرى أن تتحملي المصاب، مع أنه جلل، أو باهظ لايطاق. وربما جاز لي أن أزعم بأن المطالعة قد تجدي نفعاً، أو قد تجلب شيئاً من السلوى ونسيان حدة الفاجع، أو اللهو عنها ولو قليلاً، فإن لها وطأة قد لاتتحملينها، بل قد لاتتحملها الجبال.

ومما هو جدير بالذكر أنني بالصدفة أطالع في هذا الحين مسرحية "هاملت" ذات الطابع الكئيب، فوصلتني رسالتك الكئيبة. وأنا أشاطر هاملت كآبته وبؤسه ونظرته السوداء التي ألقاها على سريرة الأشياء. إنه محكوم بنزعة متشائمة أو عدمية لاتقيم وزناً لهذه الحياة التافهة الفاسدة التي يراها وكأنها عجوز شوهاء ورهاء بالية، كما يرى الكون من حيث هو «غلطة ووباء وحشد من الأبخرة». ولقد رأيت أن هذا الوجدان الهاملتي شديد الشبه بوجدانك الراهن، وهو المترع باليأس والمرارة والشقاء. ولكنني أنصحك بالابتعاد عن هذه المسرحية مادمت في هذه الحال الكئيبة الخانقة.

اكتبي لي أو لسواي، علك تجدين عزاء في الكتابة للأصدقاء، أو عساك أن تتلهي عما بك من شدة مريرة خانقة.

المخلص لك جداً
والمشتاق أيما اشتياق لرؤيتك،
يوسف سامي اليوسف
دمشق في ٢٠٠٨/٨/٣٠

الجواب (١٥)

صوت الوجدان، نداء الحنين، برهة البوح، أبو الوليد، سلاماً.

رغم الحضور فالرسائل قليلة! هي حقاً قليلة، فلماذا، والحياة لاتنتظر!؟ ولكنه عتب على الوقت الهارب المكتظ بأعباء لاتجدي، هي ضرورة، ولكنها السجن الذي لا مفر منه، الضريبة الباهظة لتزيين عفونة الطين.

نعم، فالرسائل شحيحة، وعذري أنني لا أكتب إلا إذا غمست قلمي في الشريان، فكيف برسائلي إليك!؟ والتي لا أرضى لها أن تكون بطاقةً باهتة لمناسبة عابرة، بل نبضات ترفرف من فضاء الروح.

إن ما أكتبه إليك ليست رسائل، بل شيء آخر، إني أكتب اضطراب خطوات قلبي على شوك الوقت وأنا أعبر زقاق العمر المتلهف وهو يدق على أبواب قد تشرع أجنحتها لحروفي. وكثيراً ما أتردد وأحجم عن الكتابة وأنا أتقاتل مع ما تختزنه حروفي من عصارة الوجع، وأقول: كلٌّ لديه ما يكفيه، وأصمت، ولكنني حين يفيض بي الحال أعاتب صمتي، وأتمدد فوق صليبي، وأفتح للهيب الزفرات بواباتها، وأكتب كي لا أختنق، ولعل صدرك يتسع لما يتأكّلني من قلق، وما يمخرني من غربة، وأكتب إليك، فأصعد نحو الأقاصي قبل أن يغيّر الحرف لونه، وقبل أن تخبو قناديل البوح، وتُقفَل الدروب دون سفر الكلمات، وأكتب حين تغدو الكتابة وردة تليق بالجراح.

أشكر لك صدق دعوتك، ولكن، إلى أين أمضي!؟ وأية رحلة تقدر أن تحول بيني وبيني! وكل خطوة هي نبضة من نبضات الفجيعة؟؟ لقد جرّبت السفر، ولكنني كنت أنتقل وتنتقل معي الفاجعة خطوة خطوة، لحظة لحظة، نبضة نبضة، فصرت أحيا على نبضها كما كنت دائماً، وقد تلفّعت بالحسرة

والفقدان الوحشي لعمر مهدورٍ مدفونٍ تحت تربة مهجورة تصفر فيها الريح في مقبرة نائية شرقي المدينة. أرأيت؟ ها قد عدتُ ثانية للأنين. إذ كلما أمسكت بالقلم فإنه يسحبني ويغوص عميقاً في جرحي، حيث لا شيء سوى النواح، فاحتملني.

نصحتني بالقراءة كمَهْرب ألوذ فيه لأسلو حين كنت تقرأ هاملت، وقلتَ لي أن لا أقرأها في سواد لحظاتي تلك، وأنت لاتدري أنني كنت آنئذ أكتوي ألماً ينز بين صفحات الجزء الثالث من سيرتك «تلك الأيام» العارمة بقطر وجدانك تصهره تلك الأيام التي تنحو لتتخذ لنفسها إسماً آخر: «تلك الآلام». آلام مأساة حقيقية لم يصنعها خيال شاعر، بل مأساة مما صنعته أصابع الأيام بقلبٍ رهيف وحسّ ثقيف لشاعر عاش ملحمته الشخصية والعامة، وأدنفتْه التجربة لدرجةٍ انهمر فيها حنيناً لأيام أقل عبثية ولوعة وسواداً مما آلت إليه الحال.

كنت أثناء قراءتي له أقرأ شيئاً من أيامي، ماضيها، وحاضرها، وربما بعضاً من الآتي، والتي وإن تفارقت في الشكل فلقد توافقت في الجوهر.

فأنا يا صديقي من هناك، مثلك، قدمتُ من منفى الواقع ومقبرته الجماعية إلى فضاء القيم الكبرى، ورفضتُ الانتماء إلى أسنِ الحاضر. مثلك، أحتاج إلى الجمال كاملاً، وهو المفقود الأبدي في هذا العالم.

مثلك، أكتنه الروح الخفية للمرحلة، وأتألم من سفْري الفردي، ومن سفْرنا الجماعي، ونحن العاجزون عن صياغة مشهدٍ جديد لائقٍ للآتي، وأخجل، إذ أننا نستجدي أنفاسنا من (الآخر) المتوحش، المتربص بالهواء.

صديقي الطيب، في هذه الأيام أقرأ بقدر استطاعة الوقت، وإن كانت قدرتي على الكتابة لم تترمم بعد. وأتمنى لو أنه يتاح لي أن أكتب عن "تلك الأيام" بأجزائها الثلاثة كتابة تليق، فأنا لا قبل لي بالكتابة النقدية، ولا أمتلك مقوماتها وأدواتها. أمّا عن التكريم، فإنني أعمل ما بوسعي ليكون، وإن كنتَ تتعالى وتتسامى عليه فإنها رغبتي، بل ورغبة كلّ من تداولتُ معهم الحديث حول ذلك. وهذا في نهاية الأمر حق لك عليهم، وحقّ للكلمة، ولمن يمثلها بجدارة ولياقة،

وأنت خير من يمثّلها سموّاً. وأنا الآن بصدد كتابة مقال حول هذا الموضوع وقد أرسله إلى مجلة «الأسبوع الأدبي» أو جريدة النور. ولقد تكلمت في هذا الشأن مع عبد الله أبو هيف منذ يومين، وقال لي: إن التكريم محصور في جهتين هما: اتحاد الكتاب ووزارة الثقافة. وقال لي بالحرف: من لا يعرف الناقد الفلسطيني يوسف سامي اليوسف!!؟؟ ووعدني بأن يفعل ما بوسعه. وأنا سوف أرفع الأمر إلى اتحاد الكتاب باسم مجموعة من الأدباء الذين يعرفون فضلك وما أنجزتَه في مسيرتك الإبداعية المميزة والغنية والطويلة.

صورتي المرفقة بهذه الرسالة تاريخها يعود إلى سنة ٢٠٠٧، وكما تلاحظ فلقد صمدتُ في وجه مخالب الزمن طويلاً، إلا أن الفاجعة التي ألمّت بي برحيل ابنتي ميديا هشّمت كل شيء، ولم تبق إلا رُفاتاً من غادةٍ كنتُها، ولا أظن أن ما بقي من الأيام بقادرٍ على ترميم ما هشّمته هذه السنة.

لك العافية، والسلام، وصباحات تشرق بأيام أجمل.

صديقتك المُحبّة

غادة اليوسف

حمص في ٢٠/١١/ ٢٠٠٨

الرسالة (١٦)

عزيزتي غادة الطافحة بالحزن والمرارة، والتي تنضح لطفاً وحناناً في الوقت نفسه.

لكم راقني وأسعدني أنك أرسلت إلي رسالتك السابعة المؤرخة بتاريخ العشرين من تشرين الثاني (٢٠٠٨)، فابتهجت أيما ابتهاج، وذلك لأن لونك الباطني، الذي كان كامداً منذ برهة وجيزة، قد تحسن كثيراً، وإن هو لم يتغير على نحو جذري. ويبدو أن رضاً صغيراً أو كبيراً لامحيد عنه بعد فجيعة الفقد التي مررت بها هذا العام.

ولكم شاقني منذ زمن بعيد أن أحصل على صورة لك بالحجم الكبير، وذلك لكي أملأ عينيّ كلتيهما من سحنتك النبيلة. وها أنت ذي قد أنجزت لي هذه الرغبة الحارة. فلقد أمتعني حقاً أنك أرسلت لي صورتك الأنيقة الأنيسة التي تنضح أنوثة أو رقة وألطافاً حسنى. يا إلهي، ياغادة، ماهذه الوسامة وما هذا الشباب الفاتن المبهاج؟ إنك حقاً لم تتأثري بموكب الزمن إلا قليلاً، على الرغم من مرور أكثر من ربع قرن على آخر مرة رأيتك فيها.

كما راقني تماماً مطلع الرسالة أو استهلالها: «صوت الوجدان، نداء الحنين، برهة البوح، أبا الوليد». وأنا أفترض أن «ياء النداء» تسبق كل عبارة من هذه العبارات الأربع التي أشعر بأنها أجمل كلام سمعته طوال حياتي كلها. أن أكون مصب حنين، لروح مرهف كروحك، ذاك شيء لم أتوقعه ولم أطمح إليه.

غادة، يا أغلى الغاليات،

ثقي تماماً بأنني شديد التعاطف مع حزنك الذي صار شفافاً هذه المرة، والذي لمست أنه ينبَث في كل حرف يندرج على مدى النصف الأول من

رسالتك السابعة هذه. وأنا أومن أيتها الفاضلة بأن عطف الإنسان على الإنسان، وهو ما يتضمن محبة غير مشروطة، هو القيمة الأولى في سلّم القيم الإنسانية بأسره.

ولقد لمست الحنان والطيبة في كل كلمة من كلماتك المنبجسة من وجدان صادق دفيء. ولهذا اعتقدت بأنك لو كنت قريبة مني لصرتِ علالة لهذا الاغتراب المرير الذي أكابده في هذا الطور الأخير من أطوار حياتي، والذي أعتقد أن لا علالة له سوى إنسان استثنائي مثلك في طيبته ورقّته وحرارة وجدانه.

والآن أشكر لك إعجابك بـ«تلك الأيام»، وإني لأجدني مسروراً جد السرور لأنك وجدتِ في صفحاته عنصراً مشتركاً بيني وبينك. وحسبي أن أكون صوت وجدانك، وفقاً لرأيك نفسه. وهذا قول لم يخطر في بالي أن أسمعه من أي إنسان في هذا الزمن الماحل.

وبودّي أن أخبرك بأن مقالتي عن هاملت سوف تنشر في العدد القادم من مجلة "الحياة المسرحية"، وهو عدد سوف يصدر في كانون الأول أو الثاني القادمين. فليتك تحصلين على نسخة بغية مطالعتها وإحاطتي علماً برأيك بها، فأنا قلّما أكتب عن المسرح وإذا فاتك ذلك العدد، فإنني سوف أرسل إليك نسخة من النسخ عند الطلب.

أمّا عن رواية «يلسز»، فثقي تماماً أن نسختي العربية ضاعت منذ زمن طويل. وهي ترجمة قام بها مترجم مصري اسمه طه على ما أرجّح. وكنت دقّقت النص العربي على النص الانجليزي الذي أحضرته من لندن سنة١٩٧٨، وثبت لدي أن الترجمة ليست على ما يرام. وأظن أن هنالك ترجمة لبنانية قد تكون أفضل من المصرية. وأعرف صديقاً لديه نسخة عنها، وسوف أطلبها منه لكي أرسلها إليك برسم الاستعارة لمدة شهرين أو ثلاثة. فإذا وافقك هذا فبلغيني لكي أسعى من أجله.

أمّا بخصوص التكريم فإني شاكر على جهودك جزيل الشكر، ولكنني أرجوك أن تضربي صفحاً عن هذا الأمر. فأنا لا أحتاج إلى مثل هذا السخف

الذي لا لزوم له. ثم اسمحي لي أن أصارحك صراحة أماطت اللثام عن وجهها الناصع. أنا أشعر بأنه ليس هنالك من هو كفؤ لتكريمي في زمن الأقزام هذا.

حسبي أن تكرميني أنت بأي شيء من الأشياء الصغيرة(مثلاً: صورة، بطاقة، رسالة، كتاب، كلمة مدمثة) كي أشعر ببهجة غامرة قلما ينتجها في سريرة نفسي أي شيء من الأشياء. حين تختمين رسالتك بقولك «صديقتك المحبة»، فإن عمري كله يتجدد ويعود إلي شبابي بعد أفوله منذ زمن بعيد. وهذا هو التكريم الذي ما بعده تكريم. أنا كائن لغوي، يا غادة، تستولي علي الكلمة الصادقة وتسحرني الكلمة الأصيلة.

حين أسير في شوارع المخيم أثناء فوعة المساء وازدحامه الطامس للفروق، فإنني لا أجد مكاناً أضع فيه قدمي، وذلك لكثرة الناس والسيارات. وعندئذ أستوعب هذا الحديث النبوي المشهور: في آخر الزمان تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها. قلنا أمن قلة نحن، يا رسول الله ؟ قال كلا، بل كثر، ولكنكم غثاء كغثاء السيل.

في الحق أن ثمّة موتاً على مستوى الكيفية، ولكن الكميات تعيش طوفاناً لم تألفه الأرض من قبل، حتى ولا في أيام نوح. وما دام الأمر على هذا النحو المتداعي، ففيمَ التكريم ؟

ولقد شهدتُ تكريم الشاعر العراقي عبد الرزاق عبد الواحد في مكتبة الأسد، بل شاركت في التكريم وقدمت موجزاً لدراسة كنت قد أعددتها منذ أسابيع بتكليف من هيئة التكريم. لم يكن هناك سوى جمهور ضامر، ولاسيما يوم ألقيت أنا. فالجمهور لم يكن يزيد في ذلك المساء عن أربعين شخصاً، على ما أرجّح.

ويسعفني القول بأن معظم الدراسات التي قُدّمتْ ليست سوى مواضيع إنشائية كنا نكتب مثلها في المدرسة الإعدادية. فلا عمق في المعالجة، ولا منهج يتمتع بالحد الأدنى من الابتكار، كما أنه ليست هنالك لغة عذراء أو أسلوب مبتكر يدل على الخصوصية والتفرد. ولهذا كله، لم يكن للتكريم شيء مما يؤكد الاهتمام الشديد بالشعر والابداع. ومرة ثانية، فيمَ التكريم !؟

أرجوك اضربي صفحاً عن هذا الأمر الذي لاينفع ولا يضر، ولا أجد له معنى بتاتاً.

والآن، مادمت لا تأتين إلى دمشق، وأنا لا أستطيع السفر، سواء إلى حمص أو إلى سواها، فأنك تشبهين أولئك الفتيات اليانعات اللاتي رشقن عليّ نظرةً ذات يوم كنت في ميعة الصبا ثم توارينَ وراء المسافات الفلكية التي يتعذر عبورها، وبعدئذ لم تَلُحْنَ على أفقي بتاتاً حتى يوم الناس هذا. ومع ذلك، فأنا جد سعيد بهذه العلاقة الحميمة والنبيلة في آن واحد، وهي التي ربطتنا برباط المودة الأخوية النقية طوال السنتين الأخيرتين. ومن حسن حظي أنك ولجت إلى سياق حياتي، ولو من البعيد، في هذا الطور الشائخ الكئيب، أو حين صرتُ في أمسّ الحاجة إلى مؤنس يملك أن يقدم شيئاً من الطيبة والصدق، أو يستطيع أن يكون عزاء لي في عالم منهك يفتقر إلى كل عزاء. إنك حقاً تكسرين حدة عزلتي أو تخفضينها ولو قليلاً.

يا أفضل الغادات،

اكتبي لي دوماً وبغير كسل بتاتاً، فأنا أشعر بفرح أصلي لا أحصل عليه من أي مصدر آخر حين أستلم منك رسالة، بل أي شيء، مهما يك طفيف الشأن. وليتك ترسلين لي بطاقة بمناسبة العيد القادم بعد أيام معدودة، حتى لو وصلتني متأخرة بعض التأخر.

ومرة ثانية، أشكر لك حسن اهتمامك بي، وأحييك التحية صادقة حارة. وإلى اللقاء في رسالة أخرى عما قريب.

المخلص يوسف سامي اليوسف

دمشق في ٢٠٠٨/١١/٢٦

الجواب (١٦)

صديقي الطيب أبا الوليد،

لا أدري كيف أحييك في هذا الصباح الذي يقطر دماً، ويندحر فيه الكلام ذليلاً مُهاناً، إذ يتنازعني الهروب من المشهد الدامي خجلاً، واللهفة جزعاً على الجحيم الذي يستعر في غزة.

وأقسم أنني بتُّ أخجل من نفسي ومن أسمي ومن انتمائي إلى فصيلة المسخ المدعو بـ(الإنسان). وبتُّ أشك في هذا الصنف من المخلوقات التي تأنف من الانتماء إليها أحط الحشرات، إذ يكفي أنها نفسها الفصيلة التي ينتمي إليها الصهاينة و العربان والأمريكان.

وأحلم لو أنني كنت نملة أو ذئبة أو أي كائن آخر غير هذا الانسان. لأن تلك الحشرات والجوارح المكلّبة لاتعتدي، وإنما تسيرها غريزة الحياة، بل ولأنها أكثر إحساساً بالكرامة من أمثالي من البشر. فحتى النملة – كما قال الشاعر العراقي مظفر النواب ذات قهر مماثل – تدافع عن جحرها، والذئبة والكلاب والقطط تدافع عن جرائها، أمّا نحن فإننا على العكس تماماً: نهدر كل ما لدينا ونبدّده لنقتل أبناءنا، ونغتال أرضنا بأيدٍ تصافح منْ سيَلْتَهم ما بقي لنا من حياة ومستقبل إن بقينا على مانحن عليه من تخاذل وخنوع.

إن ما يرتكب في غزة ما هو إلا محرقة للضمير البشري، وصورة عن إنسان اليوم، الذي انعدم لديه أيّ إحساس بالظلم. وألف بؤس للآلاف التي خرجت إلى الشوارع. وماذا يعني إن خرجت الملايين!؟ ماذا يعني؟ ننبح وننبح وتبحّ حناجرنا، ونشجب الأنظمة والحكومات التي تتفرج علينا بضمير ميت وسخرية، تهزأ بنا وقد تدغدغ عجزنا المزمن ببضع كلمات إدانة، وتنديد وشعارات، ويموت من يموت، ويدمّر ما يدمّر، وتثكل من تثكل، ويتشوّه من

يتشوّه، ويختزن القهر في عيون من تبقّى من الرجال والأطفال زاداً لانتقام قد يدخل في أزقة تستثمرها إرادة المتأسلمين القتلة الذين يستفيدون من هذا القهر المخزون، ويوجهونه لبناء مجدٍ سياسي يفجرونه قتلاً وذبحاً وتكفيراً في ظلمة غياب القيادات الكفوءة الشريفة المؤمنة بحق الانسان بالعيش في بلاده بأمن وسلام وكرامة، هؤلاء المتدينون الذين لادين لهم، فهم لم يفكّروا بما يجري في فلسطين يوماً، ولم يقوموا ولو بعملية انتحارية واحدة من أجلها، ولايذكرونها إلا في معرض المزايدة على الدماء.

يا أبا الوليد، أكاد أتمزق مما يجري، وبماذا يرد على مذبحة غزة أكثر من ثلاثمائة مليون!؟ وصدقني لا أراهم إلا ثلاثمائة سفّود مشوي، كمشروع مستقبلي إن بقيت هذه الشعوب وهذه الأنظمة من الشرق إلى الغرب وكأنها أمّة من الموتى.

في اليوم الأول للمذبحة كنت ألوب كالملسوعة، كالمجنونة، اتصلت بشقيقتي،قالت: ماذا بإمكاننا أن نعمل؟ اتصلت بزملائي، بأصدقائي، اتصلت بكل من أعرف وكانت الاجابة ذاتها.

اتصلت بصديقي الشاعر علاء الدين عبد المولى وسألته: يا علاء ما رأيك الآن لو خرجت أنت وإبناك وزوجتك وأنا ونور الدين ورفاقه في الحي ومن ثم يلتم الناس بغريزة القطيع؟ وكنت لا أعرف ما أقول. ردّ عليّ بآه عميقة وقال: اهدأي يا غادة، اهدأي، ماذا سنفعل، ارتاحي، اقرأي بعض القرآن.. أو.......كدت أجن. صاح بي زوجي: ماذا حصل لكِ؟ أجننتِ؟ وتشاجرنا، وتشاتمنا... اتصلتُ بعضو في الحزب الشيوعي السوري قال لي: لقد أصدرنا بيان إدانة، شتمته شتيمة بذيئة، قال لي: أقدّر ظرفك ! ماذا في يدنا؟ اتصلت بمسؤول بعثي (أمين شعبة) أو ما شابه..فقال لي: ماذا بيدنا أن نفعل ؟ نزلت وحدي إلى الشارع تحت المطر وكان الوقت على مشارف المساء والشوارع خالية، استأجرت سيارة تاكسي وطلبت من السائق الذهاب بي إلى مخيم حمص، فلم أر في أزقته التي ماتزال تزداد وحلاً وازدحاماً وثراء ما يختلف عمّا

رأيت في شوارع قلب المدينة، وكنت أثناء الطريق أتكلم مع معارفي بجوّالي، فبادرني السائق الذي كنت نسيت وجوده: يا سيدتي نحن العرب لسنا بني آدم، نحن.... وبدأ يحكي ما ملّتْ منه أذناي عن الحكام العرب. قلت له: إن بقينا هكذا لاردّ الله عنّا شرّاً، على مبدأ يافرعون من فرعنك قال لم يردعني أحد. ثم عدت إلى البيت وأنا أشعر بالعار وبالذنب لأن لي بيت وله باب وفيه مدفأة وكهرباء وماء وطعام وسقف لا تنسفه بين فينة وأخرى قذيفة مجرمة، وشعرت بخجل وعقدة ذنب لأن لدي أبسط المتطلبات الانسانية ولكنها حلم فلسطينيي غزة. وكان زوجي مستلقياً على الأريكة وبيده جهاز التحكم يتابع ويقلّب بالقنوات التلفزيونية. لم ألق التحية، بل شتيمة صامتة أخرى، تناولت قرصاً مهدئاً وأعددت كأساً من الشاي.. لكنني لم أشربه إذ تذكرت الجرحى ومن هم بحاجة إلى ما يسكّن آلام أشلائهم المقطوعة وجراحهم، ومن هم بحاجة إلى أدوية لأمراض مزمنة ماتوا في الحصار والتجويع، وتذكرت ابنتي ميديا المتوفاة.ولا أدري كيف ولا متى غفوت تلك الليلة، بل أدري أنني غفوت على كابوس يتفنن فيه العربان والصهاينة.. واستيقظت مع الفجر.

لا أدري إلام ستنتهي الأمور؟ ولا متى يخلّصنا الله من (الغائط المصري وزير خارجية مصرأبو الغيط) ومن حرامي الحرمين الشريفين وغيرهما من غلمان ولوطيي العرب وهم أكثر هذه الأمة؟ وأتساءل إلام ستستمر هذه المذبحة وغيرها.. وغيرها.. بل هذه المحرقة حتى تصحو ضمائرنا وعقولنا ونفهم أنه بغير القوة، قوة السلاح والحرب لا يمكن ردع الصهاينة بكل تلويناتهم اليهودية والعربية والغربية والشرقية. فلا مظاهرات ولا بيانات، ولا اعتصامات ولا الاكتفاء بالمطالبة بفتح معبر رفح وغيره على مصر، ولا اجتماع لزعماء المهانة والعمالة والذي حفظناه عن ظهر قلب. ونحن الشعوب لسنا بأفضل حال من زعمائنا، فكما أنتم يولّى عليكم. فنحن أكثر خنوعاً وفساداً من حكوماتنا، لأننا قد نتظاهر وننزل إلى الشوارع، ولكن لا نجرؤ على الاضراب، أو حركة ما داخل أحد هذه الجيوش التي تعتاش كالطفيليات على المجتمع بلا فائدة ولا فاعلية غير قمع أيّ

كلمة (لا) للحاكم العربي. ليجرب انتحاري واحد من كل هذه الجيوش الطويلة العريضة ويخترق بطائرته ولو لمرة واحدة جبهاتنا الصامتة منذ عقود. ومما يؤلم أشد الألم هو الفلسطيني الذي يتعاطف باستحياء ويساوي بين القاتل والقتيل، وقد يدين أطفال غزة لا طائرات (تسيفي ليفني)!

ستنتهي المذبحة مؤقتاً، ستنتهي بعد أن تتخم إسرائيل وعربانها من الوجبة الفلسطينية الدسمة ومن الدم الزكي. أقول تتخم ولن تشبع وذلك لأنها موجودة لتكون وفية لتلمودها الذي يأمرها بإبادة الجنس البشري كي تبقى، وهذا ما تدرك إسرائيل استحالته، وهي ليست غبية للدرجة التي تتصور فيها أن ما تفعله يهيء لسلام تُحاط به في يوم من الأيام. هذا، إن قدّر للفلسطيني أن ينسى وهو يتجول بين الدمار والصمت والخرائب يبحث عن أشلاء أحبابه ويتلمس استصراخ دمائهم في عيون أطفالهم تطالب بالثأر.

الانتقام.. الانتقام.. الثأر.. كم هو ممتع ويشفي القلب، لأول مرة في حياتي أشعر معنى أن لاتهدأ نار المظلوم إلا بالثأر، إلا إذا استطاع الظالم إعادة الضحايا إلى الحياة، وهذا محال.

صديقي أبا الوليد، كنت كتبت بطاقة معايدة بمناسبة الأعياد، ولكنني حقيقة خجلت من نفسي ومنك، ولم أرسلها. فأية أعياد ونحن نغوص في هذه الرزايا والمآتم!؟ وكنت قد كتبت لك عن قرية جبلية زرتها في (الدريكيش) اسمها (حير برقّة). وعن زيارتي الماضية التي حدّثتك عنها إلى الجنوب اللبناني الذي وعدتك بالكتابة عنها، ولكنني خجلت أيضاَ، فكيف أتكلم عن عطر الياسمين وروائح الدم وأصوات النواح والاستغاثة تملأ ضمير الكون وما من مجيب!؟ حتى السماء لا تستجيب.

اعذرني يا أبا الوليد، لأنني أرهقتك بما يكاد يمزقني قهراً وعجزاً. ولا أستطيع أن أقول إلا ما أحس به، ولذلك ترى أن رسائلي تتأخر. واعذرني للنزق التي أكتب به هذه الرسالة، فأنا في حال لا يكفي أن أقول عنها بأنني أتمنى لو لم أخلق في هذا الزمان الأغبر الأجرب الشيطاني، وليتني لو كنت من سكان

الكهوف، أو خلقت في العصر الحجري عندما كان الإنسان لايقتل إلا دفاعاً عن نفسه، هكذا.. لو بقيت عارية، مقرورة، محرورة، تتربص بي وحوش وضواري البراري التي هي أشرف من وحوش المدن، ولكان ذلك أفضل بألف مرة من أن أعيش في زمن يدّعي الحضارة وهو من الهمجية ما لا تبلغ مدى وصفه اللغات. وأرجو من الله أن ينصر الحق قريباً، وأن لا تطول هذه المأساة أكثر. وأرجو من الله أن يفهم الفلسطينيون كيف يكونوا يداً واحدة، وكيف يبنون مقاومة يحسب لها الوحش الإسرائيلي الصهيوني ألف حساب.

إذن، ليس لدي غير الرجاء، والدعاء، وهو أضعف الإيمان.

ذات مرة جمعتني بالسيدة والدة الشهيد عماد مغنية، تلك المرأة المسنة المضيئة الوجه، الأسطورية الصبر، قالت لي: "كل واحد له حبة تراب مغصوبة أو مقدار ظفر مسلوب يجب أن يقاوم ليسترده، من غير مقاومة قوية ومتماسكة لا ترجع الحقوق. أنتم مثلنا وكذلك أهل فلسطين من غير مقاومة وقوة لا ترجع أرضكم. المقاومة يابنتي لاهي بنت يوم وليلة ولا هي سحر ساحر. كلّفتنا الكثير من التضحيات والسجون والضحايا حتى انتصرنا. وأنتم تريدون الأمور بسهولة، وهذا صعب. صحيح أننا أسسنا المقاومة في ظرف مناسب حين كانت الدولة اللبنانية ضعيفة، ولكن صبرنا، وكنا، ولا زلنا صابرين بإذن الله معتمدين على إيماننا بالله وبالحق وبصرخة الحق التي أطلقها الحسين ضد الظلم."

صديقي الطيب أبا الوليد، سأكتب لك رسالة قريباً، وأرجو منك أن تحتمل في هذه الرسالة شكواي. أي اعتبرها فشة خلق لصديق عزيز.

غادة

حمص في ٢٩/١٢/ ٢٠٠٨

الرسالة (١٧)

غادتي الجميلة،

تسلمت هذا الصباح رسالتك الثامنة، وهي المؤرخة بتاريخ التاسع والعشرين من كانون الأول سنة ٢٠٠٨. ولم أفاجأ بالاضطراب الذي عُرض على صفحاتها الأربع الكبيرة. فهذا أنت، وأنا أعرفك جيداً، بل إني أحفظك عن ظهر قلب.

ثقي تماماً بأنني معجب بموقفك هذا، بل معجب بك جملة وتفصيلاً، ولاسيما بميولك الانسانية النبيلة، أو بزخمها الذي يحرمك من الاستتباب. فبورك هذا الاضطراب لأنه يدل على نبل المقصد والهدف، وصدق التوجه ونظافة الموقف.

وما دمت مزودةً بهذه الحرارة وناجية من البلادة البقرية، فإنني أتوقع لك مستقبلاً أو نجاحاً باهراً في مضمار الكتابة. فالكتابة عندي حرارة تخارجت من نواة الذات على هيئة حروف لها دلالة ومغزى. بل إن الحياة كلها حرارة وحركة، كما أن "الحرية" لفظة تشتقها اللغة العربية من الحرارة والحركة.

وإياك أن تزعمي بأنك قد شخت، فأنت الآن في أوج العمر، وقدرتك على العطاء لا زالت بكراً. وبودي أن أذكّرك بقول ماركيز: «الرواية بعد الخمسين».

أيتها المرأة النفيسة،

بودي أن أؤكد لك ما فحواه أن الأمة العربية عنصران لا ثالث لهما: سلطات راكعة أمام اليهود وأدواتهم الغربيين، وشعوب مستخذية أمام تلك السلطات التي يملكها اليهود ملك يمين. فمن المغالطات التاريخية أن يقال

"الجيوش العربية" إنها جيوش بنتها الإمبريالية، ولهذا فإن اسمها الحقيقي هو جيوش اليهود. وفي قناعتي أن جميع جيوش العالم هي احتياطي للإمبريالية، وقد استثني الجيش الصيني وحده. وإني أتوقع للصين ازدهاراً بعد عقد من السنين أو عقدين.

وفي الحق أن مناوشة حزيران (١٩٦٧) التي افتُعلت بغية تسليم الصهاينة أرضاً تزيد مساحتها عن مساحة الغيتو الصهيوني ببضع مرات، ولكن دون أي قتال ذي بال، هي برهان ناصع أو حاسم على صحة ما أقول. فالخيانة تفوح من العرب الرسميين والاستخذاء واضح في العرب الشعبيين، فلم يبق سوى هذا الشعار الذي تبناه كوتوزوف، قائد الجيش الروسي الذي جابه نابليون وهزمه. وفي رأيي أن هذا الشعار هو ما يجب أن يتبناه المثقفون العرب، بل جميع الحسّاسين والإغترابيين في هذه البلدان المنكوبة بالأنذال من جميع الأصناف: " الزمن والصبر، الصبر والزمن".

أما ملوك العرب (وكل رئيس في البلدان العربية هو ملك ولكنه مملوك) فلا عمل لهم سوى تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من «المركز»، ومن تجرأ منهم وخالف الأوامر فمصيره الموت المحتوم. وفي رأيي أنه ما من حزب ولا من مؤسسة رسمية في العالم العربي بأسره إلا وهي مرتبطة بالإمبريالية وينفذها دون تردد أو تذمر، وإذا أبى فمصيره القتل أو الإزاحة أو التنحي جانباًً. ولا يفوت ذكاءك أن العقل من شأنه أن يستنبط الحقائق من الماجريات، أعني من الوقائع، وذلك بعملية استشفاف تتم بواسطة التلطف وحسن المأتى. فالتذهن والتفطن هو بيت القصيد.

أيتها الغادة الغالية،

في تقديري أن فحوى رسالتك الثامنة هذه يصلح ليكون محتوى لقصة جيدة، ولكن بعض إجراء بعض التغييرات على بنيتها أو على مضمونها. وأظن أن تصوير الاضطراب هو عمل إبداعي. ولكن الأمر الشديد الأهمية هو أن تظهر

النفس مضطربة مثل زوبعة صغيرة يأهلها ضمير راسخ يحاول أن يستقيم في داخلها دون أن يتمكن من ذلك بتاتاً. إن هذا الصراع بين الاستقامة والتموّر أو التزلزل هو صورة أحسبها شكلاً لقصة متميزة إذا أُحسنتْ صياغتها أو تشكيلها بواسطة الكنايات، ولا سيما باستخدام صورة قدرٍ يغلي ويفور. ففي نحلتي أن أنفس النصوص الأدبية تمتح أشكالها الفنية وفحاويها الذاتية من الباطن العميق النظيف الساجي أو العاصف، سيان. وربما لاحظ الحصيف أن الصليب (وهو رمز كبير جداً، وربما أكبر رمز صاغه الذكاء البشري) هو شيء مستقيم في سواء عالم شيطاني ساقط إلى الأبد.

ولقد كانت لفتة كريمة منك أن تستأجري سيارة وتذهبي إلى المخيم. وبوسعك أن تذكري تلك الأنسوجة في القصة التي أقترحها عليك. وأن تضيفي ما فحواه أنك تصفحت الوجوه وأدركت أن الزمن قد محاها وطمس قسماتها فصارت صفحة بيضاء لاتدل على شيء. وعندئذ يئست وعدتِ أدراجك مأهولة بإعصار يعصف بك من الداخل. بيد أن نصاً من هذا القبيل لايصير جميلاً، أو فناً أصيلاً إلا إذا انبث فيه لحن غنائي حزين مكتوب بلغة ناجية من النزق أو الهيجان. فالأسلوب هو كل شيء في الأدب والفن جملة.

أيتها المرأة النفيسة، يا واسطة العقد بين الغاليات النائيات، جاء في رسالتك الثامنة أنك كتبت لي عن إحدى القرى في منطقة الدريكيش أتيح لك أن تزوريها، كما كتبت لي عن زيارتك لجنوب لبنان، أرجو أن لا تخجلي من الحديث عن الياسمين وسواه من الزهور في وسط الكوارث والفواجع، وذلك لأن الحياة لا تتوقف، يا عزيزتي، حتى وإن استحال العالم كله إلى جحيم جاحم هائل مقيت. ثم متى كانت الدنيا بغير مصائب ورزايا، أو بغير هموم وغموم وآفات وطواعين وما إلى ذلك من دواهٍ.

وعلى أية حال، أتمنى عليك أن تكتبي لي الرسالة التي جاء ذكرها في رسالتك الراهنة، أعني تلك التي وعدتِ بأن تكتبيها، فأنا والله أنتعش أو أتجدد برسائلك وأشعر بأن يخضور الحياة ينساب في عروقي. وثقي تماماً بأنك واحدة

من أولئك النسوة القليلات اللائي أكن لهن شوقاً حاراً ومحبة خاصة. ولكم أتمنى أن ألتقيك ذات يوم، ولكن في القريب العاجل، أو قبل أن يدهمني صقيع الموت. فأنا أشيخ وأتآكل في هذه الفترة، فقد أنهيت عامي السبعين تماماً وبدأت بالعام الذي يليه. ومع ذلك، فليس في نيتي أن أُصدّع رأسك بهمومي الخاصة. فحسبك هذا الهم العام الذي أنقض ظهرك وجعل من فضاء نفسك سهوباً عاصفة هوجاء.

واسلمي لأبي الوليد الذي ينتظر مكالماتك ومراسلاتك بفارغ الصبر. فلكم أسفت يوم اتصلت في رأس السنة ولم يقيض لي أن أسمع صوتك.

أبو الوليد

دمشق في يوم الاثنين

الموافق للخامس من كانون الثاني، سنة ٢٠٠٩ للميلاد

الجواب (١٧)

صديقي وأستاذي (أبو الوليد)

وأصر رغم القاعدة على أنك العلَم، المفرد، المنادى، والمرفوع دائماً على ما ابتنته ذاتك المتفردة المهيمنة، المترفّعةعن نصب وجر وعن كلّ ما تتصرف به الأحوال.

ها قد مر شهر بتمامه على رسالتي الأخيرة، والتي سكبتُ فيها ما كان يغلي في داخلي من قهر سببه الاحساس بالعجز. وها قد توقف الدم في غزّة عن التدفق مؤقتاً. وقد تكون أقلام مستثمري الفجائع قد توقّف سيلانها لكثرة ما كتبت عن غزة. وأنت ترى أن الفواجع الوافرة بالأضاحي العربية والذبيحة الفلسطينية على وجه الخصوص تولِم للكثير من الأقلام، فينتعش الكتَبَةُ، ويسيل لعاب الأقلام بانتهازية أشعبية، بل يغدو أشعب عفيفاً ومسكيناً نزيهاً بالمقارنة. يعيدون، ولا يزيدون جديداً، ويصفون وينقلون على الورق ظلالاً باهتتة لما يحرق العيون، ولما تسمعه الآذان: يبعقون ويزعقون بما وعته الأسماع، وكلّه لم يصل إلى مستوى تلك الجريمة.

ولقد طُلب مني أن أشارك من قبل جهات عدة في كرنفالات الزاعقين والباعقين والناهقين فوق جرح غزة ولكنني رفضت لسببين: الأول هو أنني أرفض أن أكون ببغاء أكرر وأعيد ماقيل منذ دهر عن إسرائيل والكيان الصهيوني وهمجيته، ولا داعي لأن أصف الشهداء والذين ليس بمقدورهم غير أن يموتوا ب(الأبطال)، ولا أن أجترّ لعن الحكومات والأنظمة العربية وأحزابها ومؤسساتها المُسَخّرة للشيطان، ولا أن أحاول وصف ما لايوصف وهو يجري أمام أعين أهل المعمورة. فآثرت الصمت كي لا أضيف إلى قائمة المستثمرين اسماً جديداً يقاول على الدم الفلسطيني ويستثمر جراح الضحايا، إلى أن توقفت

مؤقتاً تلك المذبحة، فكتبت مقالة بعنوان: (وماذا بعد المحرقة) إلى جريدة الأخبار اللبنانية.

وإن ذلك الموقف من الكتابة عن غزة وإن كان يحمل ما يحمل من مزاجية، فإنني أعرف أنني لن ألقي بحجري في مستنقع الكتابة الراكد، وآثرت أن يحرّض القهر الوجعَ المائر فيّ لينبثق براكين من لعنات على صخر الضمائر المتيبسة. وكنت وبالرغم من هول ماجرى في غزة ومنذ اليوم الثاني متيقنة مما ستنجلي عنه سماؤها، ومُكْبِرة منذ البداية تلك الوجوه الصابرة التي تنحني لبلاغتها لغات الكون، وتتمسخ قامات الأقلام أمام صورة وصوت ذلك الطفل الفلسطيني الذي انتزع الفوسفور الأبيض ضوء عينيه البريئتين، وأمام وجه وصرخة تلك العجوز الفلسطينية التي ترفع وجهها المغسول بدموعها للسماء وتهتف من قلب الوجع: «إحنا فدا ترابك ياغزة». فتؤدي بجدارة رفيعة ما لن تتسامى إليه أبلغ الخطب وكلمات التنظير والتحليل في الصمود والصبر والتمسك بالحق والتبشير بأن الأرض الفلسطينية لن تكون يوماً إلا لأهلها الذين تصل أهدابهم بين السماء والأرض بوشائج وحُبُك لايحرقها الفوسفور الأبيض ولا الظلم الأسود، لقد علّمنا أهل غزة بجدارة وبساطة كيف تكون أقوى وأقصر وأجدى السبل لنتخطى الموت إلى الحياة. وذلك ما عجزت عنه الأقلام. هؤلاء الصابرون الذين بدأوا الآن يخوضون معركة البقاء بطقسها الجديد، وهو كيف يستمرون على ماهم عليه في جحيم حصارٍ هو من اللؤم يمنع عنهم نسمة الهواء لو استطاع.

على كل حال آسفة أشد الأسف أنني لا أكتب لك إلا مايجعلك تسأم، فاعذرني واحتملني، وأنت الصديق، وشرفة البوح، ورغم بعد المكان فأنت القريب.

أشكر لك تعاطفك مع نَزَقي في الرسالة الماضية، كما أشكرك على الكتاب الذي أرسلته مع الرسالة، والذي قرأته في ذات الليلة التي استلمت فيها رسالتك، وكنت ما أزال أقرأ في كتاب «فن الرواية» لكولن ولسن، فكانت قراءته مناسبة معها وأكثر سلاسة من كتاب ولسن.

صديقي الطيب (أبو الوليد). بالأمس هتف لي الشاعر ممدوح سكاف(*)، كي أمرّ على مبنى اتحاد الكتاب الفرعي في حمص. وذهبت فأهداني كتاباً جديداً له، وخلال الحديث الذي تشعّب في كل اتجاه حكى لي عن جائزة المزرعة للشعر، وأنه كان في لجنة التحكيم، وذكَرَك بكثير من الود والاحترام والتقدير وقال: أنك بانوراما عملاقة. فقلت له أنني سأرسل رسالة قريبة للأستاذ يوسف اليوسف فحمّلني لك نسخة من كتابه هدية، كما أنه حمّلني سلاماً حميماً لك، وأن أبلغك مدى تقديره واحترامه لك.

أحاول الآن أن أشتغل على المجموعة القصصية الجديدة، ولكنني، أشكو من أنني لا أستطيع إلا أن أغوص في التفاصيل الصغيرة فتخرج القصة محمولة على عدد من الصفحات يتجاوز الخمس والعشرين صفحة. وذلك بعد أن أكون قد حذفت وضغطت وألغيت الكثير مما أود كتابته فيها. ولا أدري إن كان ذلك من مثالب السرد، أم أن ذلك حقي وأنا التي أجنح إلى عدم الالتزام بالقواعد الصارمة التي تصنّف الجنس الكتابي وتُكبّله.

يا صديقي، رغم سبعينك التي بلغت، فإنني أرى روحك مشتعلة بالعطاء. وأرجو الله أن يدوم عمرك، فيدوم لي أفق أطير إليه، فبيتي أصمّ، وصمته لا بوح فيه، وضجيجه مرهق، ووقته استباحة للعمر بين أنياب الخراب، ولا أراني فيه غير أنثى بلا شِعر، وليلة قمرها بلا ضوء، ونجوم سمائه مطفأة في مدينة تغوص بوَحل وحشتها، أُغلّق جرحي كي أستريح، وأربط في قضبان الشرفات المغلقة جناحي وأوصد الوريد وأترك للحنين أن يسوقني مجراه بين ضفاف النأي والنسيان، أزاوج بين شكّي ويقيني، ويتيبّس السؤال الذي تأخر جوابه كما تيبّس حلم الوصول، وأنتظر ما ومن لن يكون.

لك المودة كلها

غادة

حمص في ٢٠٠٩/١/٣٠

(*) ممدوح سكاف: أديب وشاعر من حمص ترأس اتحاد الكتاب الفرعي في حمص – له العديد من الدواوين الشعرية والكتب والدراسات الأدبية والنقدية.

الرسالة (١٨)

إلى الغالية غادة

لست أدري على وجه اليقين لماذا يلح طيفك باصرار على الحضور الدائم أمام بصيرتي أو مخيلتي في هذه الأيام العصيبة التي استنزفت أعصابي دون جَداء، ولا السبب الذي جعلني لا أطيق عليك صبراً، مع أنني أُرصّن نفسي وأبذل قصارى جهدي ابتغاء طردك من حيّز البال. ففي الحق أجدني هشاً كالقش أحياناً، ولا جلَد لي في بعض الأمور، ولكن ليس في جميعها.

وبسبب طغيانك على ذاكرتي فقد شبّهتك بالبارحة التي تبارح ولا تبارح، أعني بالماضي الذي يزول، ولكن صوره تترسب في قاع النفس لاتريم. ولعل حضورك الباهظ والضاغط على خيالي المنهك هو ماقد حثّني كثيراً على كتابة هذه الرسالة، فلم أستطع المقاومة طويلاً ولا الانتظار ريثما تصلني منك رسالة أقوم بالرد عليها، فيصير الأمر عادياً أو مألوفاً تماماً.فكان أن رضخت لضغوط الحضرة أو الطيف الماثل أمامي على الدوام "حتى كأن لم تفارقي"، على حد عبارة المتنبي، وكتبت هذه الصفحات.

وها أنا ذا أشعر بأن زمناً مديداً قد مضى على رسالتك الأخيرة واتصالك الأخير، مع أن هذا الزمن لايزيد عن أيام. وفي الصدق أنه لنبل منك أو من روحك المطهمة أن ترسلي إليّ رسالة بمناسبة المجزرة الوحشية التي أنزلتها التوراتية الضارية بمدينة غزة في الشهر المنصرم. ولقد كان انفعالك نظيفاً وطيباً ازاء ما قد جرى على أرض الواقع. ولكن الأهم هو أنك رأيتني أهلاً لتلقي انفعالك النبيل. وهذا يعني أنني أحتل بالك كما تحتلين بالي سواء بسواء.

وبما أنني لا زلت مهموماً بهمّ غزة، بل مغموماً حتى عتبة الانهيار، فقد

ربطت صورتك بهذا الهم نفسه حتى كأنني جعلتك تقاسمينني الشعور بهذا المصاب مناصفة، أو قسمة عادلة. فعلى التخمين بدلاً من اليقين ظلت صورتك حية في ذاكرتي منذ وصول تلك الرسالة حتى اليوم، أو بسببها طبعاً.

وأؤكّد لك أن ذلك الهم قد أفضى بعدما غمّني كثيراً، إلى التهاب شديد في أذني اليمنى التي صارت تنز قيحاً ودماً في آن واحد. وإن لي أُلفة قديمة بهذا الالتهاب، ولكن الطبيب اعتاد أن يعالجه نهائياً خلال ثلاثة أيام أو أربعة. وها قد مضى زهاء عشرين يوماً والوجع مازال يزعجني كثيراً، مع أنه قد خفّت حِدّتُه إلى حد ما.

وذات صباح من صباحات الحرب أفقت فإذا نبض القلب خافت والتنفس مضطرب. وكدت أذهب إلى غرفة العناية المشددة، ولكنني عالجت نفسي بنفسي ودون أن أخبر أحداً بالأزمة الناشبة. فقد استخدمت أدوية احتياطية مخصصة للأزمات القلبية، ولا سيما الحبوب التي توضع تحت اللسان، وكذلك اللزقة الصدرية التي تغذي القلب وتمدّه بالطاقة، وسواهما من الأدوية والعقاقير التي لا لزوم للتخويض في تفاصيلها. فعاد القلب إلى العمل كسالف عهده. (لدي معيار يدلني على عمل القلب دون مغالطة بتاتاً.) ترى ماهذه العضلة العجيبة التي هي الحياة نفسها؟

أما الطامة الكبرى فهي أنني فقدت ثمانية أعشار سمعي، وها أنا ذا أكافح من خلال الطب كي أستردّه أو أستردّ شطراً منه، ولكنني لم أفلح بعد. إن أولئك اليهود الأوغاد المحترفين للنذالة لم يؤذوا غزة وحدها، بل آذوا أناساً كثيرين ومنهم أنا. وما كان لهم أن يفعلوا ذلك لولا هذه الأسلحة الفتاكة التي وضعها الغربيون بين أيديهم حتى كأن الإنسان الأورو- أمريكي هو الموجود من أجل اليهود. فبينما عملت الحضارات القديمة على توظيف اللاعقل (الخرافة، الأسطورة، الكرامة الصوفية).... من أجل العقل، أي من أجل جعل الحياة هنيئة مريئة، فإن الحضارة الحديثة، حضارة الصناعة والسخام والبلاستيك والايدز واليهود، قد وظفت العقل لا في خدمة اللاعقل (الحرب والمجزرة والعدوان على

الشعوب المستضعفة).

ففي الصدق أن روحي حزين كئيب على ما قد جرى من كوارث ونكبات في ذلك الإقليم الصغير. ولكم أتمنى لو أنني متّ وطواني النسيان قبل أن أشاهد جثث الأطفال وهي تتكدّس في مشهد يمزّق نياط الفؤاد. وكلما أبصرت تلك المشاهد تذكّرتك دون أن أعرف لهذا التذكر سبباً مؤكّداً، أللهم إلا أن يكون تلك الرسالة التي بعثت بها إليّ في تلك المناسبة الفاجعة. وفي الحق أنه تكريم منك لي أن تهرعي إليّ، ولو عبر رسالة، خلال تلك الكارثة الجارفة، حتى كأنني ملجأك الوحيد، أو كأنك أردت أن تبكي على صدري حصراً.

ولهذا أراني بالضبط، أراني أشعر بأن شوقاً عارماً صادقاً حميماً يتماوج في فضاء نفسي ويتجه إليك دون فتور أو انقطاع. وهو يتدفّق بشيء من الزخم والحميّة، حتى صرتِ مصبّاً من مصبّات حنيني اللاعج والمنقب عن أي سلوان أو عزاء من شأنه أن يهدّىء الشعور بالمصاب الجلل. فأنا دوماً أتساءل قائلاً:أما من تعويض؟ أما من شيء ذي بال؟ أليس في هذا العالم سوى اليهود وأدواتهم؟ ولكنني حين أتفقد التعويضات لا أكاد أن أجد شيئاً قيّماً باستثناء ما هو نادر أو طفيف. وربما جاز لي أن أصرّح بأن خير التعويضات هي رسائلك القليلة ومكالماتك الشحيحة.

يقول ابن عربي عن الشوق في الجزء الثاني من «الفتوحات المكية» إنه «هبوب القلب إلى غائب». ومع أن الغائبات اللائي أنا مشوق لرؤيتهن على الدوام لا يقل عددهن عن ثلاث من اليانعات الغاليات اللائي هن الدماثة نفسها، فإنك في هذه الآونة حصراً أكثرهن استحواذاً على البال والخيال. وفي الحق أن الذي أحتاج إليه اليوم هو الصلة الصادقة الدافئة، أو الاتصال الوثيق بمركز الأشياء ونواة الزمان. أو لنقل إن ما أريد هو الأنس حصراً. أجل، الأنس في عالم موحش أو متوحش، ولا يتوفر فيه إلا القليل مما هو من أجل الروح، أو من أجل السعادة. فقد ولّى طور تسيّد الجسد وشهواته، ولم يبق سوى الحنين يبرح بي إلى الحد المضني. (أستميحك عذراً أيتها النقية على هذا التصريح

الذي قد يخدش الحياء. فالكلفة بيننا مرفوعة لأن كلاً منا مفتوح على الآخر. ولا خير في حياتك إذا لم تنفتحي على إنسان آخر يكون لك بمثابة أمين للسر).

يا إلهي! إن معظم الذين أحبهم يقبعون وراء المسافات الفلكية التتي يتعذر اجتيازها بأية وسيلة من الوسائل. هذا عدا عن أولئك الذين واراهم الثرى إلى أبد الآبدين.

ومن العزاءات القليلة التي تدغدغ شعوري أنني أنفقت السنوات الأربعين الأخيرة وذهني يبذل قصارى جهده في تلقيح الأنثى الراخمة داخل فسحة اللغة كي تنجب كل ما هو نبيل وأصيل. وفي الحق أنني ما زلت أجد في اللغة وآدابها شيئاً من التعويض عن هذه الغُمّة المريرة التي تغمني على الدوام بسبب الشرط البشري الكئيب. ولست إلا صادقاً إذا ما صرّحت بأن اللغة هي منفاي الطوعي الذي اخترته لنفسي عن طيب خاطر. إنه المكان الذي لا اغتراب فيه ولا تشيؤ بتاتاً. ولقد تخيّرت اللغة خدينة لي كي أتمكن من تطوير أسلوب روحي أو شاعري مشبع بالنسغ الحي ومأهول بنازع الإيراق والازهرار، حتى كأنه ما نُسج إلا ليؤنس ويبهج في عالم مدلهم تعيس. فقد يحالفني السداد إذا ما زعمت بأن أخلاّء اللغة هم دوماً حسّاسون مغتربون ويكابدون غياب الأنس أو ندرته في عالم المياومة الشديد الضيق.

وفضلاً عن ذلك فإنني أجد شيئاً من العزاء والسلوى في الصداقة التي تربطني ببعض النساء اللائي أحاورهن بين الفينة والأخرى منذ زمن طويل. واسمحي لي أن أؤكد لك ما فحواه أن خير الساعات هي تلك التي أقضيها في حوار مع نساء ذكيات وطيبات في آن واحد. ولقد استخلصت من تلك المحاورات المتكررة كثيراً أن المرأة تملك بعضاً من الصفات الروحية التي يفتقر إليها الرجل. إن سريرة المرأة عالم غني قائم بذاته. ويختلف باطنها أيما اختلاف عن باطن الرجل الذي لايخلو من القسوة. وإن تأثير المرأة على الرجل ليس بالطفيف. وقد لاحظت أن عاطفتهن أقوى، وأن ميلهن إلى الجمال أشد. ولكن ما يؤسفني حقاً أن عدد النساء اللائي أحاورهن يميل إلى التقلص والضمور في

هذه الأيام، حتى لقد أوشكن على النضوب بالفعل. ويلوح لي أن من شاخ هجره أصدقاؤه، جلّهم أو معظمهم.

وبودي أن أنوه باسم واحد من أولئك النسوة النفيسات الناجيات من الابتسار الذي قد يربض في صميم شخصية الانسان، إلا من عصم ربك، واللائي لا زلت على اتصال دائم بهن، يشدني إليهن رباط المودة والإخاء الصادق الأصيل. إنها الدكتورة ماجدة حمود(*) التي صرحتُ في الجزء الثالث من "تلك الأيام" بأنها أختي، والتي أعدها واحدة من نخبة النساء اللائي تعرفت عليهن طوال حياتي. وإنني لراغب في أن تطالعي شيئاً من مؤلفاتها الكثيرة ابتغاء التعرف على هويتها الفكرية والأدبية. وفي سبيل هذا الغرض فإنني أرسل إليك واحداً من مؤلفاتها، ولكن على سبيل الإعارة، كي تطلي على أجواء هذه الكاتبة الطيبة والذكية في آن معاً.

وإزاء ظاهرة الشر المعربد في كل مكان وزمان، فإنني لا أجد لأحد قيمة جلّى واستثنائية ما لم يكن ممن ينتسبون إلى فئة الإخائيين أو الإخائيات اللائي هن مثلك أو مثل ماجدة، أو إلى فصيلة الحسّاسين من النوابغ، ولا سيما البودا والمعري وشوبنهور، الذين اعتدت أن أنعتهم بأنهم رجال الرصانة والوقار. وعندي أن الطيبين هم وحدهم البشر على الأصالة. أمّا أنفس الطيبين فهم أولئك الذين يتحسسون الحياة ويكابدون مافيها من شرور وآلام. ولا ريب في أن شكسبير ودويستوفسكي هما أقدر البشر على التعبير عن فعل التحسس هذا. إنهما فلتتان من فلتات الدهر حقاً.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإن الأشياء التي تؤنسني في هذه الأيام الشائخة شديدة الندرة. وحين كنت أكابد الأرق في ليالي الحرب ذات الظلام الموحش الخاتر الحرون، وحيداً بغير أنيس، فقد كنت أستمد بعض الأنس من صورتك المحفوظة لدي مثل كنز عزيز على فؤادي. والأنس كما وصفه شيخنا الأكبر في الجزء الثاني من «الفتوحات المكية» (طبعة دار صادر) هو «حال

(*) ماجدة حمود: أديبة وناقدة من سورية.

القلب مع تجلي الجمال». (يجب أن تدرسي هذا الجزء الثاني حصراً ولو صفحة واحدة كل يوم، فهو كتاب من أعظم الكتب التي قرأت طوال حياتي).

ولكن صورتك هذه ليست باسمة، وكل ما يفتقر إلى البسمة لايؤنس كثيراً. وفضلاً عن ذلك فإنها تستحضر نصفك الأعلى كلّه، ولا تكتفي برسم الوجه وحده. ولهذا أرجو أن ترسلي لي صورة أخرى لايظهر فيها منك سوى الوجه وحسب، أو الوجه والعنق وحدهما. وحبذا لو كانت البسمة تملأ المحيا إلى الحد الكافي للتعبير عن المسرة والغبطة، أو السعادة، وذلك لكي أمضغ لقيمة أنس أوحبور. فنحن البشر نحتاج إلى البهجة حتى في سواء المجزرة. ولئن فعلت ذلك، فإنك سوف تسهمين بعض الإسهام في كشف الغمة عن نفسي الحزينة والمغمومة على الدوام.

ولئن كان في ميسوري أن أُفرّج عنك همك، فاطلبي بغيتك دون أي ريث، فأنا أتمنى أن أعين الناس على احتساء جرعة من الفرح أوالسرور حتى وإن كانت نتفة ضئيلة.

ولكنني في كل نوبة من نوبات الأرق الكابوسية أعيش لحظة من لحظات الفتوحات الليلية، أعني أن الأفكار تنبجس من جوف كتلة المجهول، وتنثال علي الأخيلة أيما انثيال، وأحسب أنني أصطاد الحقيقة بشبكة من الفضة، أو كدت أن ألامس الما لا ينقال، فأجد نشوة من نوع خاص في بعض بوارق الإلهام العابرة أو السريعة الزوال. وهذا يعني أن الأرق ليس شراً كله، وأن السلب له دور إيجابي خلّاق في بعض الأحيان. فمن العجائب أن الظلام يكشف والنور يحجب.

وارسلي بطاقة بمناسبة عيد الحب الوشيك، وإن لم يكن بيننا غرام من الصنف المعروف، وذلك لأن الصلة التي تشد كلاً نا إلى الآخر صارت شيئاً روحياً يسمو على الحب، أو كما قال ابن الفارض «فالهوى دون رتبتي». إنها في أدنى وصف لها برزخ يتوسط بين الغرام وبين المحبة الأخوية، أو الصداقة الودية المؤصلة الجذور، أو الممتازة عما سواها من الصلات إلى أقصى تخوم

الامتياز.

وعلى أية حال، فإن الربيع آت بعد شهر واحد فقط. ولسوف تصير زيارة المجرى الأعلى لنهر الأعوج في السفوح الجنوبية لجبل الشيخ متعة خالصة. ولكن دمشق لم تتلق سوى القليل من المطر خلال الشتاء الراهن، ولهذا فإن ربيعها لن يكون على خير مايرام، وذلك على النقيض تماماً من حمص التي تلقت حتى الآن زهاء مائتين وسبعين ملمتر. وهذه كمية عملاقة إذا ما قورنت بالسبعين ملمتراً التي هطلت في دمشق. فالفرق هو مائتان من المليمترات تقريباً.

اكتبي لي، وأرسلي لي ما طلبته منك، وابق على اتصال معي. وإني أستعمل فعل الأمر لأن الكلفة بيننا مرفوعة، أو كما قال ابن الفارض في التائية الكبرى: لقد رفعت تاء المخاطب بيننا " أي لقد اندغمنا في كيان واحد على الرغم من المسافة والقصاء. وأتمنى ألا تكوني الشائقة وحسب.

ملاحظة:

نشرتُ في مجلة «الحياة المسرحية»، العدد ٦٦، مقالة عنوانها «هاملت أو نقاء الضمير». أرجو أن تقرأيها وتبلغينني رأيك بها.

ملحق بالرسالة:

أيتها الغادة الغيداء، أي الناعمة الناعمة..سوف آخذ بيدك إلى النضج، أو إلى العدم، وسوف تعيشين التدمير الذي أمارسه على دماغك البكر.فما لم تتقززي من جميع الأشياء، ولا سيما الزواج والأسرة والأمومة والمطبخ، فإنك لن تنضجي بتاتاً. ولئن نضجت فإنك سوف تتمنين الموت ولكن دون أن تجديه أبداً. فالراحة للأغبياء والبلهاء والسذج والخدّج. أما الجحيم فهو نصيب الناضجين وحدهم، وا أسفاه.

لقد اتخذت الحياة قراراً منذ البدء خلاصته أنها لن تكون إلا حقيرة أو منحطة على الدوام. ومع أن هذه التعاليم هي جوهر البوذية فإنني قد استخلصتها من تجربتي الخاصة الشديدة المرارة، والتي تقاطعت مع تلك الديانة

الموغلة في النضج.

لم تنضج منطقتنا التي بنت الأهرام وبرج بابل، ولم تنضج اليونان التي عبدت الجسد البشري، ولا أوروبا المادية إلى حد الخساسة، ولا الصين ذات اللون الفاتح. ونضجت الهند وحدها، ولاسيما يوم أنجبت البودا العظيم.فالبوذية ديانة تعبد الفراغ أو العدم، وتنكر وجود الله، أو تهمّشه، أو تنحيه جانباً.

أتدرين لماذا هزم العالم العربي على هذا النحو الواضح الشائن الحاسم ؟ لأنه يفتقر إلى الإنسان. وهو يفتقر إلى الإنسان لأن الطبقة السائدة فيه هي طبقة تاجرة. فنحن في ممر دولي للبضائع يتوسط بين الهند وأوروبا منذ ما قبل الميلاد بآلاف السنين. ومما يعرفه المؤرخون تمام المعرفة أن التجار السوريين قد استطاعوا أن ينهبوا جميع الذهب الذي نهبته روما من الأمم المغلوبة وأن يكدسوه في الهند بعيداً عن سطوة الجيوش الرومانية. وكان إفقار روما على أيدي التجار السوريين هو السبب الأول في جعل الإمبراطورية العاتية عاجزة عن حماية نفسها من هجمة العرب في القرن السابع الميلادي. إن التجار السوريين هم الذين مهدوا السبيل لانتصار الاسلام. ولولاهم لما وصل إلى الأندلس بتاتاً. وفي مدن هي بمثابة أسواق ومستودعات للمال منذ آلاف السنين يتعذر على الإنسان أن ينضج.

وأيّاً ما كان جوهر الأمر، فإنني أحذّرك من أن تصابي بالعدوى، فأنا أحمل جرثوماً نفسياً معدياً. وإني لأنصح لك بأن تفعلي كما قال امرؤ القيس لفاطم ابنة عمه: «فَسُلّي ثيابك من ثيابي تنسُل». ولئن أردت أن تواظبي على تدمير ذاتك بسبب تأثيري السيء، أو على يديّ البريئتين النظيفتين، فإبق معي في هذا الحوار الذي يغيرك تمام التغيير، والذي هو في مذهب ابن عربي نكاح معنوي»، أي تأثير روح في روح أخرى.

وأنا أتحداك، يا غادة، أن تتمكني من إنعاش روحي، أي أن تجعليني أغيّر هذه القناعات المستتبة استتباب جبال هملايا، وأن أعود إلى الهدأة البقرية. فأنا نبتتة عاسية، أو لحم تليّف لشدّة ماهرم أو لفرط ما نضج. ونحن لا

نهرم إلا بسبب النضج الذي هو كل شيء، كما يعتقد شكسبير.

سوف أحاول أن أجعلك عاجزة حتى عن إنعاش نفسك أو إنقاذها من براثن الموت في الحياة الذي سوف أكدّسه داخل كل خلية من خلايا روحك. وإني سوف أفعل ذلك لأني أربأ بك أن تكوني من فصيلة هذه البهائم التي تأكل وتنام. ماذا؟ هل ستهربين من النضج، أو ستعملين في سبيله ببطء شديد؟ فإن كنت تفضلين الماهية البشرية، فخير لك ألا تراسليني بتاتاً، وأن تقذفي برسائلي إلى سلال القمامة، ثم تغسلي يديك بعدئذ، وذلك ابتغاء النجاة من التبعات.

ولعلك أن تكوني أنجب تلميذة لأكثر الأساتذة قلقاً واضطراباً ورفضاً وشعوراً بالنفي والاشمئزاز. وليست بي رغبة أن أكون أستاذاً لأحد بعد أن مارست تجربة كئيبة من هذا القبيل. أمّا أنت فقد لبّيتك لأنك غالية عندي. ولكن، عليك أن تتحملي التدمير الذي أراه الاسم الآخر للتحول من مستوى وضيع إلى مستوى رفيع هو المستوى الانساني الذي ينبغي أن نبلغ إليه مهما يكن الثمن. وخلاصة الأمر أنني سوف أشحنك بقلقي حتى تصير كتابة نص أدبي ناجح أسهل عليك من تناول القهوة أو الشاي.

نحن العرب لم ننضج حتى الآن .... هل تعرفين أحداً كتب مسرحية لها مثل هذا الموضوع ؟ أتدرين لماذا لم نكتبها حتى الآن؟ لأننا نجهل القلق الأصلي، ولأن توترنا عشوائي زائف.

ما الذي سوف ينضجك، أو يدمّرك، يا غادة اليوسف؟ سوف تدمّرك أفكاري وقلقي واضطرابي. ألم تسمعي بتلك الحكمة التي تقول: نحن نكره من نحب؟

يا إلهي ! لابد لي من أن أتوقف، وإلا فإن قلبي سوف يكف عن النبض، أي سوف يتوقف. وليته يفعل. فهو يسبب لي آلامناً مبرّحة ثم يعود إلى العمل مذعناً راضخاً حتى كأنه لم يصب بأي سوء.

لعلك أن تكوني المرأة الوحيدة التي تعنيني هذه الأيام الشائخة البائخة. ولهذا، فإنني أريدك أن تكوني امرأة أباهي بها النساء في كل مناسبة. فدمّري ذاتك على يديّ، وإلا فلن يبقى هنالك سوى الرهل والبطن والكرشاء. ولئن بقيت

مستتبة الداخل قارّة الوجدان، فلا أنا منك ولا أنت مني .... ثقي تماماً أنني مازلت معك على الشاطيء، ولم أدخل في الأعماق بعد، فأنا أخاف عليك من الغرق، أو من المرض، أياً كان نوعه.

بعد أن وصلتني رسالتك التاسعة المؤرخة بتاريخ الثلاثين من كانون الثاني الأخير، مصحوبة بكتاب الشاعر ممدوح سكاف، طالعته بشغف وتمتعت به لأنه مكتوب بمحبة وصادر عن نفس ذكية. ولهذا، فقد كتبت له رسالة آمل أن يستلمها منك باليد. وها أنا ذا أرسل له هذين الكتابين ليكونا بمثابة هدية قد تكافيء هديته بعض المكافأة.

لفت انتباهي في رسالتك الأخيرة قولك بأنك تكتبين قصصاً مثقلة بالتفاصيل، فتجيء طويلة إلى حد لا لزوم له.

وأجدني أقول لك: إن قلمك منذور للرواية يا غادة، وهذا جليّ وواضح من سردك للقصص التي أتيح لي قراءتها، في المجموعتين «في العالم السفلي» والتي أراها من عيون الأدب العالمي في فن القصة القصيرة، وقصة "المنديل" وغيرها من قصص هذه المجموعة الباذخة لهي بزعمي درّة فنية نفيسة..ولم أر فيها رغم طولها.. وتفاصيلها أيّ رهل.

أرجو أن ترسلي لي كتاب كولن ويلسن «فن الرواية» على سبيل الإعارة، لأطالعه ثم أعيده إليك. كما أرجو أن ترسلي الصورة والبطاقة اللتين طلبتهما منك في رسالتي السابقة المؤرخة بتاريخ الثاني من الشهر الجاري، والتي أراها نصّاً جديراً بالصيانة من سطوة الزمان التدميرية، وذلك نظراً لما تدّخره من تفاصيل ذاتية لها قدرة خاصة على شرح ما يدور في الوجدان من رعوش وأشواق، ومن حنين إلى مناخات عزيزة على الفؤاد الباحث عن الأنس والاطمئنان.

كما أرجو أن تكتبي لي عن رحلتك إلى الجنوب اللبناني، وكذلك إلى

الريف، أو إلى الدريكيش، وهذان أمران وعدتني بالكتابة عنهما في رسالة سالفة، ولكنك لم تف بالوعد حتى اليوم. «لقد طال الأمد على لبد»، كما يقول المثل الجاهلي. ولعل من حقي أن أكرر هذا القول الذي اعتدت على ترديده: «كلّ شيء يخلّ بواجبه تجاه روحي».

أريدك أن تكتبي لي رسالة مطولة وغنية بالتفاصيل الحية الملونة الزاهية المنعشة والمشحونة بالمشاعر والعواطف الأصلية الطيبة، فأنا ألوب على الأنس، أو على أي شيء ذي بال في هذه الأيام الماحلة. ولئن لم تنعشيني أنت فلا أحد سوف ينعشني، يا غادة اليوسف. فالأشياء التي تجذبني شديدة الندرة، بل هي تجاور العدم. وإن الكائنات شاغرة إلى الحد المثير للصدمة. أمدّ يدي لألمسها فلا أصادف شيئاً سوى اللاشيء. أجل، اللاشيء وحده يقبع في كل مكان، رابضاً لا يريم. ولهذا أراني أشعر دوماً بأنني فريسة لخواء يسمل الحيوية من الشرايين ويحيل الحياة إلى وليمة من رماد. وعبثاً ألوب على قيامة من هذا الموت في الدنيا. فماذا عساك أن تصنعي لأجلي، يا أنفس النفيسات وأغلى الغاليات. لك المحض من مودتي ومحبتي، وتقديري، ولك سلامي وتحياتي وأشواقي الروحية.

صديقك الذي لم يشاهد منك منذ ربع قرن إلا صورة لك في صحيفة.

يوسف سامي اليوسف

٢٠٠٩/٢/٥

الجواب

أبو الوليد،

الأستاذ، والصديق العزيز،

أفرحتْني لدى مهاتفتك نبرة الانتعاش في صوتك بعد نزهتك الربيعية، وسررت وأنا أراك تتماهى بالخضرة والأنسام وأصوات العنادل، وتلاحق الجمال آن اكتماله في غوطتك التي تحب، غوطة دمشق.

سمّيتني الغادة الناعمة، فانداحت الحسرة على ما انحسر من نعومة ونعيم لم يكن إلا في نعميات الحلم الذي ما تحقق يوماً. فيا صديقي، لم يبق من تلك الغادة التي تعرف إلا ما يتبقى من الزهرة المقطوعة المرمية على رمل القفار.

تأخرت في الرد على رسالتك التي أربكتني. فالتدمير الذي ذكرتَ هو الذي هوى بي إلى سحيق لاقرار له، عبر تخويضي فيما حسبته آفاقاً في شعاب مسدودة، كنت أتقهقر منها إلى غيرها في قلق البحث عن هدفٍ بتُّ أدرك أنه لن يتحقق. وأمّا عن النضوج فهذا ما لن أصل إليه يوماً.

لم أستسلم لعبث العواصف بي، ولكنني أمسيت أرنو إليها وهي تلقي بي في كل مهب باستهتار، وببعض السخرية، وأعرف أن الحياة التي نحياها لا تستحق كل هذا العناء.

هذا الموقف هو موقف اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، وقد يختلف كلّية بعد قليل! هذه أنا..أجل..هذه أنا..أنا القلق والاضطراب الممزّق الذي لا قرار له، ولن يكون له قرار في يوم من الأيام. وأمّا عن التقزز فإن لحظات عمري مغمّسة به، وأشعر بلا جدوى أيّ شيء، وأهم ما أفعله لايتعدّى محاولة التلهّي عن الوجع.

أمّا عن نفورك من أن تكون معلّماً لأحد فهذا له ما يبرره، ولكن، هل يلوم

السحاب حقولاً لم تشطأ بالخضرة؟ وهو الذي ينهمر بخيره على الحقل والحجر!؟ أمّا أنا فإنه يسرّني، بل من شأنه أن يملأني زهواً أن تكون معلّمي، ولشد ما افتقدت المعلّم، ولعل أمّ المصائب في حياتي أنها كانت قفراً من معلّم. وإنّ من توهّمت أنهم معلمون كانوا دوماً مسوخاً لا تستحق غير التقزز والرثاء. ولكنهم، وللأسف كانوا عناوين لمراحل من حياتي المضطربة، ولوناً كدراً كابياً ملأها بالفوضى والبذاءة والإسفاف، وهدر النفيس الذي لا يستعاد. تأخرتُ، أعرف، والحسرة تمخر بي.

أمّا عن التدمير فقد حصل وانتهى الأمر، وكان نتيجة لحياة لا سلام فيها ولا تَصَالح. حياتي التي فقدت السلام والمصالحة مع محيطها. ولك أن تتملى ما بنيتُه ودمّرتُه مراراً وتكراراً لترى الباهظ الذي خسرته بلا طائل – وغير المأسوف عليه – وأنا أشقّ دروب الوصول بأنامل روحي، وما وصلت. وجدت نفسي في النهاية وقد راكمتُ ورائي سدود اللارجوع وسط الهباء. ولا أخفيك، فقد طال الطريق، وكلّت الساق، وحلّ المساء.

هذا شيء، والوصول إلى الحقيقة المطلقة شيء آخر. نستطيع أن ندنو من جوهر الأشياء وجدانياً، لا معرفياً، أي بالحس المرهف، فنحن يا سيدي مجرّد أدمغة مغروسة في محدودية طينها، ولكن حسْبنا أن نشعر أن هذه الحياة الغامضة الهشة الرقيقة سهلة العطب والقصيرة تستحق أن نبددها في التفكير والقلق عن بدَدِنا فيها، وأن نعذّب أنفسنا بهموم الأبدية؟ يا سيدي ليس بمقدورنا الآن أن نفهم ما نحن تماماً. نحن اللغز الذي لايفكك طلاسمه إلا القلة النادرة.

وأعتقد أننا مازلنا على الطريق، طريق الفهم، وربما في الطليعة، لكننا لم نبلغ النهاية بعد، ولا نعرف إلى أين نحن ماضون. وقد يحدث في لحظة غارقة في المستقبل ما يفسر ما نحن عليه الآن. وعلى كل حال، لنا عزاء في أن الانفجار الكبير للكون حصل قبل مليارات السنين قبل أن نعرفه. وإنّ مجرّد كون الإجابة خارج متناولنا لايعني أنها غير موجودة.

أخشى أنني أتكلم بسذاجة، وأنا يا صديقي سلّتي فقيرة بالفلسفة، وكل ما لدي

بعض من ثمار ربما تكون فجّة، لم، ولن تنضج. كل مالدي أنه سيأتي يوم تستنفذ فيه الأرض حصتها من الزمن. ومع ذلك فنحن نتكلم كثيراً. إذن فنحن قلقون حيال هذا الوجود الذي مايزال فيه العقل البشري بائساً يحارب ويجاهد بأسلحة مضحكة، محزنة، لا تزيد عن بضع تلافيف زائدة في الدماغ في خضمّ محارق ومغاليق الكون اللامحدود. ونحسب أن لاغيرنا في هذا الوجود.

لقد دفعني تكويني النفسي نحو البحث - وإن بسذاجة – لإدراك حقيقة العالم، ورأيت أن العالم – عالم الأحياء – الذي أسكنه الآن هرم، ومع ذلك فإن عمر الكون أكبر منه بمرّات لاحصر لها. وتمضّني فكرة فنائي يوماً، وأنني هنا الآن، وربما لمرة واحدة، وقد لا أعود أبداً، وهي فكرة وحشية وهذا ما جعلني ألتمس عزاءً في الدين الذي قرأته على هواي، ويكفي أن أقول أن لدي شعوراً دائم التنامي بوجود معنى يحكم حياتي، والعالم الذي من حولي. ولا أخفيك، فإنني أرى في فكرة التقمص والكارما عمقاً يصل إلى مايقارب القناعة. خصوصاً وأنني لازلت ومنذ أن تفتحت روحي وأنا أحن إلى زمان ومكان في البال. وقد يتاح لي الاستفاضة أكثر حول هذه التجربة في رسائل قادمة.

ما معنى الوجود؟ لاأدري، ولكنني أومن أنه (الوجود) ذو معنى. ومن ينظر في تطور الحياة سيراها عملية مذهلة إلى درجة تتجاوز في غرابتها وكمالها واتساعها أغرب وأكمل أساطير الخلق.

لا أزعم أن تفكيري متماسك منطقياً. والمنطق أداة لا روح فيها، فثمّة ما يتجاوز ماهو موجود..ثمّة معنى.

تطلب مني صورةً ضاحكة ! ضحكتُ بِلَوعة وحرقة. إذ كيف سأبدو وأنا أفتعل الضحك أمام الكاميرا وقد نسيته !؟ فغادة المبهاج كما تصفني ذهبت مع تلك الأيام التي كانت تخدعني بوهم الوصول إلى المسرّة. ولكن، قد أرسل لك صورة قديمة فيها ضحكة مما تبتغي. أمّا فلو فعلت الآن فسأبدو كالمهرّج.

أعتقد أنني بلغتُ مسائي، و"هاتف المساء" القصيدة التي أرفقها بهذه الرسالة، آمل أن تعجبك.

تحدّثت منذ أيام أنا والصديق الشاعر عبد الكريم الناعم عنك بمحبة وتقدير، وأحبّ أن يرسل لك ديوانَيْ شعره المرفقين.

حاولت أن استعارة "فن الرواية" ثانية ولكن تعذر الأمر لسفر صاحبه، وبالمناسبة فإن سمعة الكتاب متأتية من اسم مؤلّفه كولن ولسن، و لم أجد فيه ما يفيد، وأهم مافيه أنه يعتبر أن رواية (باميلا) هي التي أثّرت في المجتمع وفي كتابة الرواية، وبضع روايات أخرى لم أسمع بها أو لم أقرأها.

لك تحياتي.. وعلى كل حال سأحاول العثور عليه.

تغويني فكرةُ أن أكتب عنك وعن منجزاتك الإبداعية كتيباً (على قدّي) قربةً وعرفاناً بفضلك على الكلمة. وآمل أن أنجزه كما يليق.

مقالتي عن سيرة «تلك الأيام» في السي دي المرفق. أرجو الاطلاع عليها.. وبيان رأيك فيها.

صديقتك المحبة المخلصة، التي لا تلمح وجهك إلا في الصحف منذ أكثر من ربع قرن / منذ عام ١٩٨٥.

هاتف المساء

- ١ -

بيتٌ بلا وقتٍ

وسقفُ الرّوحِ منْ صمتٍ

ينوحْ

والبابُ أوصدَهُ الغيابْ

وقتٌ، بلا وقتٍ

و لا

لا مِنْ صباحاتٍ تهلُّ،

ولا مساءاتٍ تروحْ

والرّوحْ

تتداحُ في أطباقِ وحشتِها

وترفو جرحَها

في حلكةِ الأفقِ المغلّفِ بالرّمادِ وبالضبابِ

لتستريحْ

- ٢ -

وقتٌ بلا وقتٍ

تُراهُ البيتُ غابْ؟!

قمرٌ بلا ضوءٍ يتوهُ

ووحدهُ

في ظلمة الأمداءْ

والنجمُ مرتجفُ المفاصل في العراء

حيران.. ينتظرُ النداءَ

ولا يبوحْ

- ٣ -

مدُنٌ تُزاولُ وحْلها

ومساؤها المنسيُّ يخبو

علّها..

سَتدقُّ بابَ خرابِها

في هجعةِ اليأسِ المغلغلِ في الوريدِ

- ٤ -

صوتٌ يجيءُ مساءَها
و "هَيْتَ لكْ " يا سيّدَ الأبوابْ
فيسوقها مجرىً تخضّبَ بالأنينْ
ما بينَ تيه الضفّتَيْنْ
في الضّفّة اللهفى نداءٌ للقصيّ المستحيلْ
والضّفّةِ الأنأى انهمارُ صدى الحنينْ

- ٥ -

صوتٌ يجيءُ مساءَها المنسيَّ
يقطرُ بالضياءْ
عطرٌ تأخّر سكبُهُ
لكنّهُ
يطوي الضّفافَ
إلى حدودِ الياسمين المستباحْ
مطرٌ يوافي حقلَها
نورٌ
ويزهر نجمُها
وترٌ
يراودُ دمعَها
حَبَبٌ على شفة المساءِ
وصبوةُ العتباتِ

وجْدُ البابِ إذ يهفو
لخَطوِ الغائبينْ
صوتٌ
يؤاخي بين شكٍّ ويقينْ
ألَقُ المرايا في صفاءِ الروح
غدرانٌ منَ الألوانِ
ترقصُ في الضياءْ
نشوى يُنَمْنِمُها انسيابُ الماءْ
يلهو على أغصانها الطيرُ المُعَمَّدُ بالبهاءْ
حلمٌ تأجّلَ
أو تأخّرَ
أو تيبّسَ
فوق أمداءِ السؤالْ

- ٦ -

صوتٌ
يؤجّجُ حلمَها وقدِ استحالَ
إلى مُحالْ..
هلاّ دنوتَ قصيدةً ؟
فلَدَيّ ما يكفي من الأوجاعْ
ممّا قد يليقُ بنا
لكي نبقى على قيدِ التياعْ

- ٧ -

طيفٌ

بلا طينٍ يطوفْ

يسْري بليلتِها الصدى الماسيُّ

يطفرُ دنُّها

ويطوفُ بالكأسِ النبيذْ

آنَ اكتمالِ حلاوةِ العنقودِ

في دنّ الخريفْ

يتأرجحُ القمرُ المولّهُ في استفاقتهِ

يغربلُ دُرّهُ الصافي

وينثرُ ليلَها بالنيّراتْ

- ٨ -

صوتٌ

يؤذّنُ باسمِها

فتقوم تسجدُ للتجلّي في الحلولِ

بحضرةِ المحجوبِ

فوق الذروة القصوى

وتأتلِقُ الصّلاةْ

غادة

حمص في ٢٠٠٩/٣/١٢

الرسالة (١٩)

الغالية غادة، طابت أوقاتك بكل خير.

وصلتني رسالتك العاشرة المؤرخة بتاريخ الثاني عشر من شهر آذار الجاري، ومما راقني فيها إصرارك على أن أكون أستاذاً لك، على الرغم من المسافة الفاصلة، فأنت بهذا الموقف ترفعين معنوياتي التي قلما يرفعها أحد. ولكنني اضطربت حين قلت بأن غادة التي أعرفها لم يتبق منها إلا ما يتبقى من الزهرة الذابلة. يا إلهي ! أنت ما زلت في خلدي وردة لا تعنو للذبول بتاتاً، حتى ولا في المستقبل البعيد. وأرجو ألاّ تقولي هذا القول مرة ثانية، وإن يكن صحيحاً، وذلك لأنه يشيع الكثير من الحزن في فضاء نفسي التي ينهكها القلق والأرق في هذه الأيام.

ولكن أهم مافي الأمر أنني عاتب عليك أشد العتب. فلقد جئتِ إلى دمشق في كانون الثاني الأخير ولم تتصلي بي كي أراك لبرهة وجيزة، وكي أبتهج بحضورك وأنال متعة الالتقاء بك، وهو عندي أنفس من أي نفيس. يا إلهي، لكم أنت قاسية، يا غادة اليوسف.لقد كان عليك ألاّ تخبريني بمجيئك إلى دمشق خلال المكالمة التي جرت بيننا منذ حفنة صغيرة من الأيام. فلو تكتمت على الخبر لكان ذلك خيراً لي، لأنني لن أشعر بضياع فرصة سعيدة تصلح زوادة لما سيجيء من ماحل الأيام.

وعلى أية حال فقد طالعت القصيدة التي تصحبها الرسالة فوجدتها لاغبار عليها، بل جيدة، كما طالعت المقالة فوجدتها جيدة، إن لم تكن ممتازة. ولسوف أسعى في سبيل نشرها خلال أقصر مدة ممكنة.

فاجأتني قصيدتك هذه، لما فيها من نفحات صوفية.وأنا أتمنى أن تصيري روائية كبيرة، فلعلك تسُدّين هذا الفراغ الهائل الذي يملأ فضاء الفن الروائي

عندنا. وبودي أن تبدأ ملامستك لهذا الفن بكتابة رواية قصيرة لاتزيد عن مائة وخمسين صفحة تحللين فيها شخصية المرأة من الداخل، أو شعورك تجاه العالم أو تجاه الوجود. فلكم أتمنى أن تقدم امرأة ما على رسم صورة لغوية للرجل المثالي من وجهة نظرها. ما هي مزاياه أو صفاته؟ وماهي الأفعال التي تشتهي أن يفعلها؟

ولكي لا تجيء الحبكة نحيلة أو خالية من التجربة الحية والعلاقة بالأخر، أي لكي لايجيء النص كما لو أنه من فصيلة فقه النفس بدلاً من أن يكون رواية ذات طابع أدبي حقيقي، فإن في ميسورك أن تهتمي بصورة الآخر وكيفية انعكاسها على ذاتك أو على وجدانك، وإن لك أن تستنبطي هذه الصورة من الأفعال، وليس من التأمل المحض.

ولينصبّ اهتمامك على حالات التوتر ذات البنية المتناقضة من داخلها، أو المنسوجة من تضاد يتوتر بين حدين ينقض

كل منهما الآخر، فتمثل هذه البنية شديدة القدرة على اجتذاب النفس (أو القاريء)، وذلك لأن النفس، كالواقع سواء بسواء، مصوغة وفقاً لمبدأ الانشعاب والتناقض. وفي الحق أنني راض تمام الرضى عن عدم رضاك على الكينونة، أو على الكائنات، وكذلك عن غضبك أو سخطك الذي تلقينه أحياناً هنا وهناك. ولعل في ميسورك أن تنسجي رواية متميزة مضمونها الأول هو هذا الغضب الذي ينبغي أن يتراوح بين برهة عاصفة وأخرى مركبة من الهدوء والاحتدام في آن معاً.

فلئن بلغت إلى عمق الشعور المتوتر العارم، ولئن أحسنت التماهي مع اللغة عبر الجملة نصف المحجبة ونصف الجهرية، أو الجملة الشفافة التي تلمح بقدر ما تصرح، فإنك سوف تأتين بنص فريد من نوعه في هذا الزمان الماحل على نحو شامل. فهل ثمة من يجهل أن الساحة اليوم شاغرة إلا قليلاً من كل ما هو ذا بال؟ فمع وفرة الكميات التي لاقيمة لها تقريباً، فإن الكيفيات تعيش في ندرة لم يكن لها وجود خلال الجيل السالف. وأحسبك تعرفين اعتقادي

بأن الرواية العربية لم تولد بعد، وبأن الفن الروائي هو فن أوروبي لم ينجح خارج أوروبا إلا لماماً وحسب.

وبودي أن أشير إشارة خاصة إلى د. هـ. لورنس، الكاتب الانكليزي الذي لا أحب روائياً أكثر منه سوى دوستوفسكي، إنه يصلح كنموذج يمكن للمرء أن يستخلص من تراثه مجموعة من الصفات التي إذا توفرت في أي نص روائي جعلته إنجازاً عظيماً حقاً. فضلاً عن أنه متخصص بالأسرار والمستورات، وأنه ذو صلة بالمكان شديدة المتانة، وفضلاً عن ولعه ببهاء الحياة المتضرمة الدافقة اليانعة، ولا سيما الأشجار والأزهار والأطيار، فإن له ثلاث مزايا أخرى هي التي جعلته مقروءاً في العالم كله طوال مدة لاتقل عن ستين سنة أو سبعين:

أولاً - يكتب بأسلوب رشيق ولغة طرية دافئة مشحونة بالحيوية. فعلى يديه تصير الكلمة نقية لامعة لها رونق وبهاء حتى لكأنه قد زوّدها بزيت روحه.

ثانياً - له قدرة على خلق مناخ شاعري أو غنائي داخل فضاء الرواية.(إن هذه السمة تنقص دوستويفسكي. ويكتب حيدر حيدر بغنائية عالية، ولكن هذا الكاتب السوري يبخّر البنية الروائية ويحل محلها بنية شعرية. ولهذا يجب على المرء أن يحذر من التطرف، أو أن يكون هنالك شيء كثيف الحضور، لكن على حساب شيء آخر.)

ثالثاً - يتمتع بقدرة نادرة على خلق شخصيات نسائية لها جاذبية فاتنة من شأنها أن تهيمن على شعور القاريء. فهو يستطيع أن يرسم صورة نقية للفتاة الروحانية التوّاقة، أو ذات الفؤاد الحميم الحنون. كما يملك أن يرسم صورة أخرى للمرأة الناضجة القادرة على أن تجلب الكمال للرجل القابل للنمو والنضج والصعود إلى الذروة الروحية الشاهقة.

وما هذا بالصدفة قط، فلقد استمد هذه السمة الأخيرة من علاقة مع امرأة اسمها فريدا، تركت زوجها الأستاذ الجامعي وأولادها الثلاثة، وهربت مع الكاتب إلى أقاصي الأرض. وفي السنتين اللتين عاشها معها قبل طلاقها وزواجه بها

(١٩١٢ -١٩١٤، كتب أعظم روايتين بين جميع رواياته: «العاشقات» و«قوس قزح». والرواية الأولى مترجمة إلى العربية، ولقد طالعتها أنا مترجمة من عشر سنوات، أو زهاء ذلك.وفي ميسوري أن أزودك بنسخة من دار المدى في دمشق، عند أية إشارة منك.

فليس بالصدفة أن يكون لورنس أعظم روائي باللغة الانكليزية، فإن لديه تجربة فجّرت عبقريته. إنها فريدا العاشقة الدافئة الحنون." كتّابنا ليس لديهم مثل هذه التجارب الحميمة، وإن كانت لديهم علاقات مع نساء فاتنات. فالمرأة عندنا ليست (أو قلما تكون) ناضجة أو قادرة على تفجير العبقرية. وهذا يذكّرني بشاتو بريان الذي بلغ النثر الفرنسي أوجه على يديه، بعدما استطاعت مدام أريكاميبه أن تفجر عبقريته. ويصدق هذا القول على الكثير من كتاب فرنسا، ولاسيما روسو ولامارتين وهوغو، وكذلك دستوفسكي في ظلال زوجته الثانية.

ولا يخفى عليك أن الأشكال الأدبية في الجيل الراهن قد تيبست واستحالت إلى هشيم، وذلك بسبب فقدان الحياة و النفس لبراءتها وبساطتها في هذا التخشب الذي أصاب كل شيء خلال عصرنا الزنيم. فنحن في أزمة، ولا أدري "ما المخلص من هذا المقنص"، كما جاء في كتاب ابن عربثاه الدمشقي عن تيمور لنك.

ولكن، لربما كان نافعاً أن أشير إلى أهم السمات الصانعة للمزية، أو التي ينبغي أن تدشّن الكاتب الروائي بوجه خاص، والأدبي بوجه عام، وذلك وفقاً لرؤيتي الشخصية، أو لما استخلصته من إدماني الطويل على قراءة الروايات.. ففي قناعتي أن الكاتب الناجح يتميز بثلاث مزايا لابد منها:أما الأولى فهي الحساسية، وأما الثانية فهي الإرهاف، وأما الثالثة فهي القدرة الاستثنائية على التعبير.وبسبب الأولى فإنه يشعر بالاغتراب والتشيؤ والنفي إلى أقاصي الحاشية. وبفضل الثانية فإنه ينتج الرقة والدماثة والصور المطهمة الهيفاء. فما أحوجنا إلى روائي يرسم لنا صورة المرأة المثالية، وإلى روائية ترسم لنا صورة الرجل المثالي، وذلك انبثاقاً من الإرهاف والتلمس الدفيء. ولابد للمزية الثالثة

من أن تجعل روح الروائي متماهية مع اللغة إلى الحد المطلق، حتى لكأن كل ما لا يستطيع أن يصير لغة لا وجود له بتاتاً.ومما هو شديد الأهمية بالفعل، لأن القدرة على التعبير وثيقة الصلة بإنتاج الشكل الأدبي اللدن المرن المترع بالحيوية والنقاء، وذلك بعدما تكلست الأشكال الأدبية في هذه الأيام التي هيمن اليباس خلالها على كل شيء.

هذه هي الكتب الثلاثة التي أصدرتها في السبعينيات. ولسوف أرسل لك صوراً عن كتبي التي ليست في حوزتك. هل لديكِ كتاب لي عنوانه "مقدمة للنفري"؟ خبّريني، ولكن على مهل، فالأمر ليس ملحّاً.

راسليني دوماً، واتصلي بي دوماً، وكلميني، فأنا كائن لغوي أتحسس مجد الكلمة وأتلذذ بروعة اللغة وفتونها، وأنت تملكين كل هذه الكنوز الباذخة. ولا تنسي الصورة التي وعدتني بها التي لم تعد لدي من تتصل بي سواها.

المخلص دوماً يوسف سامي اليوسف

دمشق في ١٥/٣/٢٠٠٩

ملحق

في الليلة الماضية، وهي الفاصلة بين السبت والأحد، أصابني أرق شديد، وهو داء قلما يغادرني في هذا الطور من أطوار العمر. فما كان مني إلا أن قرأت مجموعة عبد الكريم الناعم، «مائدة الفحم». ولقد أعجبتني كثيراً، فرحتُ أتأمّلها وأتذوقها عدة مرات. والجدير بالتنويه أن محتواها الصميمي هو الشعور الصوفي، وأن الشاعر فيها يلوب على الحقيقة الغيبية، وكذلك على الله الذي تضعه القصيدة في مركزها وتدور عليه دوران العجلة على محورها.

تعلمين أن الشاعر عندنا يهوّم، في الغالب الأعم. فهو بلا اختصاص، أو قولي إنه بغير موضوع محدد. أما في هذه المجموعة حصراً فالشاعر يعرف

مايريد، بل يتخصص بالحقيقة الصوفية والتنقيب عنها، ولا سيما في سويداء الفؤاد.

لكم أتمنى أن يتخصص كل شاعر بموضوعة محددة من الموضوعات: الصوفية، الطبيعة، المرأة، الألم، الزمن وسرعة انقضاء الحياة، بؤس البشر التاريخي والوجودي.....الخ.

تحياتي إلى الشاعر عبد الكريم الناعم، وأرجو له دوام الصحة والسعادة.

يوسف

دمشق في ١٥/٣/ ٢٠٠٩

الجواب

الأستاذ والصديق العزيز أبو الوليد، صباح الخير.

اليوم السابع عشر من نيسان الموافق للرابع منه بحسب التقويم الشرقي، ويسمّى (الرابع) أو الربيع. وهو عيد سوري موغل في الزمن، ويشبه في جوهره ما يسمى عيد النيروز لدى بعض شعوب الشرق، وعيد شم النسيم في مصر، ذلك الذي يأتي في الحادي والعشرين من آذار، غير أنه يختلف عنهما من حيث التوقيت ومن حيث الطقوس. وأذكر أنه كان العيد الوحيد الذي يحتفل به أهل القرى بحفاوة لانظير لها ولا يحظى بها أي عيد آخر. بالرغم من التزامهم وتقديسهم لبقية الأعياد الدينية الإسلامية منها والمسيحية على السواء. والتي تبلغ اثني عشر عيداً على ما أظن: كعيد الفطر والأضحى والمولد النبوي والنصف من شعبان ويوم رأس السنة الهجرية ويسمى عيد الفراش نسبة لليلة التي افتدى فيها الإمام علي كرم الله وجهه النبي محمد (ص) حين نام في فراشه بينما هاجر النبي إلى يثرب. وعيد الميلادة وعيد الصليب في الخريف موسم قطاف الأعناب وتحويلها إلى نبيذ.. والبربارة.... وغيرها.. وغيرها... ومعظمها أعياد سورية قديمة مرتبطة بمناسبات تمجّد مواقيت الطبيعة والمواسم، لها قيمة روحية حيث تقام فيها الصلوات وتقرّب القرابين والأضاحي.

أما بالنسبة لعيد الرابع هذا فيكاد يكون العيد الوحيد الذي يحتفل فيه الفلاحون ببهجة منقطعة النظير بالرغم من طابعه الديني المبني على وجوب الشكر والحمد "لله باريء النسمة وفالق الحبة، بديع السموات والأرض الخالق، الحي، القيوم، الذي يبدأ الخلق ويعيد." فيلبسون الجديد، وتعم مظاهر العيد ومباهجه الريف، حيث يجتمع أهل القرى في كل منطقة قرب أضرحة الأولياء

والقديسين والصالحين ذوي الكرامات، ممن عاشوا حياة ملؤها الزهد والتصوف، وكانوا على علم غزير وعرفان تشهد له كرامات اجترحوها، يتناقلها الناس جيلاً عن جيل.

فتقام الدبكات والرقصات الجماعية، ومباريات العتابا والقصيد والسباق ويُرتَجَل سوق صغير تباع فيه الألعاب والحلوى المدينية بينما يبقى الكبار (المتزوجون) في البيوت يقيمون الصلوات ويقربون القرابين ويوزعونها على الفقراء والمساكين من ذوي القربى والأيتام والجوار بحيث يأكل كل بيت في القرية من كل بيت فيها، وذلك حتى المساء، إذ ينتهي اليوم، ويعود كل شيء إلى سابق عهده بانتظار نيسان آخر وولادة ربيع جديد. ومما يلفت أنه من المؤكد أن السماء تمطر في هذا اليوم حتى في سنوات المحل. فلا بد لها أن تمطر ولو بعضاً من رذاذ. فيقال: ريّة رابع نيسان تحيي الأرض والإنسان. لأنها استجابة السماء لابتهال البشر وفرحهم وقبول لصلوات الشكر. إنه عيد فلاحي سوري بامتياز.لأنني ما وجدت في أهل المدينة من يعرفه إلا على أنه عيد الجلاء بينما أن المتمدنين من ذوي الأصول الفلاحية يحافظون على طقوسه فيسافر معظمهم إلى أريافهم حيث يتشاركون جميعاً في الاحتفال بهذا الكرنفال السنوي، الذي هو برأيي احتفال بالتجدد والحياة. ولم لا؟ إنه نيسان مرهِق الفتنة، نيسان الذي أعرف كم تحبه لأنك تحب كلّ ماهو يانع ومتجدد وجميل. نعم، إنه نيسان يفيض على الكون نضرته وخضرته، نيسان رقصة الزهر ونفحة العطر، أنشودة التجدد والولادة، نيسان البداية والشباب، نيسان البلابل والشحارير والعنادل، وجوقة السواقي، نيسان اللوز، نيسان الذي فرد سجّادة الصبا، ولفّ بها أَحبَّ من أُحِب، و...غادرني..نيسان اللاذع الذي كما تقول: "أخلّ بواجبه تجاه روحي. ففي نيسان رحلت ميديا، ورحل هو مني.

اعذرني يا أبا الوليد. فإنني كنت أراه أغنية الحياة بصباها المتجدد، وصرت أراه توقيت الفقدان، وموعد النهايات، وكلّها نهايات حزينة، فكيف إذا كانت نهاية حياة مَنْ داخَلَ الروحَ؟ إني لم أعد أسمع ترانيم طيوره سوى ما يرشق

الروح من وخزات مسمومة في جناحي المكسور، ولم تعد السواقي سوى اندياح النواح للحن الوداع الجنائزي، وقطرات الطل على وريقات إزاهيره ما هي إلا دموع توقظ صباحاتي بشموسها المنكسرة، والتي تفضح كل مخفيات الحقائق الوجودية التي تتلخص بأن النقص هو الصفة الملازمة لكل مافي الوجود المنتهك بالفناء.

صار نيسان هو الربيع الكاذب، إذ فيه يحيا كل شيء، وأموت. وأسأله: لماذا تعود مشتعلاً بالبهجة!؟ ألتؤجج حزني!؟ ومهما حاولت فلم تعد في وجداني أكثر من ربيع منطفيء وشباب منكسر ذاوٍ. فما لهذا اللوز تلطم أزهاره روحي؟ أتراه مرّ الشتاء؟ فما زال الشتاء الكامد مقيماً في عيوني، فلا فرق إن أتيت يا نيسان أو مضيت. فسيّدة اللوز لم، ولن تأتي.

منذ شهر على وجه التقريب، وفي غروب أحد أيام الخميس وكنت عائدة من زيارة قبرها لاحت من خلف سورٍ أغصانٌ لشجرة لوز في أول ازهرارها، لطمتْ بهجتها روحي، فكتبت هذه القصيدة القصيرة بعنوان «ضحك اللوز... بكيت». وقد نشرت في جريدة العروبة الحمصية إلى جانب قصائد لشعراء حمص في يوم الشعر، في احتفالية سنوية تمتد على ثلاثة أيام. ولا أحسب نفسي بين الشعراء فللشعر عندي مكانة سامية. لكنني أرى أن كل ما ينبع من عمق الروح ويتجلى في لغة فهو شعر. إذ يصوّر ما يمور في وجدان الإنسان الذي يكابد الألم، فيبوح فيما يعتلج فيه. وأرجو أن تقول لي رأيك، فإن نفسي هذه الأيام تتوق لكتابة الشعر الذي هجرته، في الوقت الذي لا أرضى فيه للشعر أن يُهتَك، كما يُهتَك بأقلام الكثيرين والكثيرات ممن تطاولوا عليه وهم يدعون أنهم أربابه. أرجو منك بعد أن أرسل لك بعضاً مما أكتب (شعراً) أن تبين لي رأيك فيه.. وبصراحتك الصادقة رغم قسوتها.

ضحك اللوز.. بكيتُ

حينَ لاح اللوزُ غابتْ

لم تغادرْ

طيفها في العطر يغفو

فإذا ما خضرة الله

على الأكوان فاضت

روحها

في الماء.. تطفو

كلما أزهر غصنٌ

في بشاراتٍ تُزَفُّ

صارت الأفنان حضناً

لفراشاتٍ ترفّ

شبّتِ الآهاتُ في جذوة قلبي

رغباتٍ لزغابٍ

ينقر الروحَ، فتهفو

لصباحات المواعيد غدتْ

انكسارات مواقيتٍ، مرارات دموعٍ

لا تجفُّ

فإذا ما هلّ لوزٌ

شقّق القلبَ حنينٌ

وروى الأحداق نزفُ.

* * *

صديقي العزيز أبو الوليد:

لا أخفيك أنني شعرت ببعض الغبن حين لم ينشر من مقالتي عن كتابك

«تلك الأيام» سوى ذلك النذر اليسير، مجتزأة فاقدة أهم عناصرها، فبدت كأنها إعلان عن كتاب، تبّاً لهم كيف يتجرؤون على النص بحجة ضيق مساحة الصفحة وقريباً سأرسلها إلى جريدة النور، صفحة الثقافة والفنون، وقد تنشر في أوائل أيار القادم.

صديقي: إن الشاعر عبد الكريم الناعم يرسل لك شكره وتحياته. وقد سعد وفرح بمقالتك النقدية المنشورة في جريدة «البعث» حول ديوانه الشعري «مائدة الفحم» أيّما فرح. وأوكل إلي أن أرسل لك برفقة هذه الرسالة كتابَيْه: «المدارات – سيرة زمن (١)» وديوان «حريق الحانة، حريق الروح».

لك مني كل المودة والتمني بالصحة والسلام والحبور

أنتظر رسالتك.

غادة

حمص في ١٧/ نيسان / ٢٠٠٩

الرسالة (٢٠)

غادتي الغالية

أحييك تحية الرابع من نيسان البهيج، تحية الربيع والزهور ويانع النبات الأخضر الريان.

لقد عدتُ للتو من سفوح جبل الشيخ المغمورة بالثلوج الناصعة البياض، حيث شاهدت زهوراً لا يشاهد مثلها إلا في أعالي الفراديس. واستمتعت بدفء هذا النهار المشمس ونسيمه المنعش البليل، وكذلك بمشاهد الشجر المورق الفينان، ثم بمشهد نهر الأعوج المتدفق كثيراً حتى درجة الجيشان في مدينة سعسع.

يقيناً، رأيت اليوم أماكن أعدّها تجسيداً للخصوبة والحيوية وهدأة البال. ومما هو جد ناصع أن الفرق بين المدينة والريف شاسع البون في هذا الزمان، وربما في كل زمان. ولهذا، فإنني أستهجن أن لا يكون هنالك تيار رومانسي عارم في الشعر العربي الراهن.

ولكن، ثمة منغص ثلب الرحلة قليلاً. وقصارى الأمر أننا جئنا إلى مكان يسمى «المقروصة» وهي شديدة القرب من «بيت جن»، وكذلك من سعسع. ورأينا هنالك جدول ماء غزير يجري ويتدفق، وعليه مسمكة تبيع سمك الترويت. وسألنا عن ينبوعه فأخبرنا أحد الناس أنه ينبع من مكان لايبعد سوى مائة متر. ومشيت صوب الينبوع، ولكن الدرب كان وعراً وكله حجارة سوداء، فسقطت بين تلك الحجارة، ولكن دون أن أصاب بأي أذى، وحين نهضت من كبوتي قفلت راجعاً أدراجي، بعدما تخليت عن مشروع الالتقاء بالينبوع. وهذا خسران لايبذّه أي خسران آخر منذ أن خسرت الوطن. فأنا أحب الينابيع حباً جماً. ولقد أتيح لي أن أشاهد عين الفيجة، أو ينبوعها، فانتشيت بمنظره وجيشان مائه المتدفق كالسيل الجارف بزخمه وعرامه الموّار.

غادتي العزيزة،

لدى عودتنا في المساء الباكر مررنا بشارع الثلاثين حيث يتوضع مكتب الشركة الأهلية. وهناك تسلّمت الطرد الذي يتضمّن كتابَيْ عبد الكريم الناعم ورسالتك الحادية عشرة، وهي حلقة في سلسلة رسائلك التي أحسب كلاً منها لقيمة سعادة أو جرعة هناء أحسوها بين الفينة والفينة.

بيد أني شعرت بصدمة حين لم أشاهد صورتك التي طلبتها منك عدة مرات ومنذ زمن سحيق.

ولقد راقني كثيراً أن تتحدثي عن عيد الرابع، عند قيامة المسيح (وتموز، وأوزير، وأتيس، وأدونيس الجبيلي) من بين الأموات. إننا اليوم في عيد الفصح الشرقي، الذي هو عيد ربيعي بكل نصوع. فإذا ما تجول المرء في تلك الفراديس الخلابة، خطر في باله أن الطبيعة تنبعث من سباتها الشتائي، وأن الحياة تتجدد لتعيش دورة أخرى. كل شيء ههنا يتبرج ويتأنق أو يتأنث ويصير من أجل البهجة والمتعة والسرور في فورة الطبيعة خلال هذا الشهر المبارك الفتان.

ما أروع تلك السيارة التي اشتراها أصغر أبنائي، فلولاها لكنت في حالة حصار مطبق يتأبى على الاختراق، ولكانت جميع أيامي شاحبة شاغرة ذاوية صفراء، أو أقلّه متماثلة، وتتكرر هي هي، لايختلف أي منها عمّا سواه بتاتاً، حتى لكأنها كلها بالية كالأسمال المهترئة، أو حتى لكأن الأرض بأسرها في ركود سرمدي آسن. وعبثاً أبحث عن الأنس والأنيس في داخل مدن السخام الموحشة، بل في عالمٍ سرطَنَةُ اليهود وأحالوا عيشه إلى وليمة من فحم ورماد. فحين أسير في شوارع دمشق هذه الأيام أشعر بأن الكائنات كلها تزمجر وتدمدم وتهدد بأنها سوف تفترسني عما قليل.

وفي بعض الأحيان أفكّر بأن أستجم بشيء من الشر، عسى أن يتمكن أي استجمام من أن يكسر طوق هذا الحصار المحكم اللعين. ولكنني سرعان ما أرعوي وأعود إلى رشدي، بل إلى خندق الخير الذي أهاب بنا (زردشت) أن نحايثه على الدوام. ولكنني عبثاً أبحث عما هو ذو بال، أو عن أي شيء

يصلح أن يكون مركزاً أو مثابةَ أثوب إليها كمرجع دائم. فخندق الخير الذي تحدّث عنه ذلك الرجل الكبير لايعدو كونه تجريداً لا يتمتع بأي وجود عيني، ولا سيما في هذه الأيام الشبيهة بجلد الأجرب.

في الحق أنني أستجمّيت اليوم عبر الامتزاج بالطبيعة وبتفاصيلها الخيرة، ولا سيما بالروائح الزكية التي تنفثها جملة من النباتات، أو بالأريج الذي تنفحه الزهور المتألقة كالنجوم في سماء صافية. ولكن مثل هذا اليوم برهة عابرة سرعان ماتزول. فغداً يأتي الحرّ المقيت فتتيبس المملكة النباتية كلّها وتصير هشيماً لاخير فيه.

وربما جاز لي أن أقنع نفسي بأنني لا استجمام لي إلا في التنقيب الدائب عن الأصالة والنبالة والصدق، ولاسيما في إعداد اللغة لتنهض بمهماتها الروحية العظيمة. فأنا أشعر بأن وظيفتي الأولى في الحياة هي الغوص حتى سمت الرأس في الحقيقي، أو في الصادق الناجي من كل زيف وتزوير، وذلك ابتغاء إحراز نصر، حتى وإن يك صغيراً، على هذا الانحطاط الشامل المجتاح، بل على هذا الخلاء الأجردِ الذي يواظب على اندياحه وتوسعه دون ريث أو إبطاء. وإنها لوظيفة مقدسة أن يعمل المرء من أجل تسييج النفائس بحرز يصونها ويصدّ عنها قوى الانتهاك والتدمير.

وعندي أن هذا الفعل الأصلي هو وظيفة كل كاتب أدبي جاد، حتى في زمن انحطاط الكتابة هذا، بل هو وظيفة كل إنسان لم يتمكن الموت في الحياة من أن يمضغ نِقْي عظامه. ينبغي أن نحرس القيم العليا، يا غادة، فنحن سدنة الخير في هذا الزمن الرمادي اللون. نحن ورثة كل ما هو أصيل من ماضي الإنسانية الطويل.

ومع ذلك أراني أشعر بأنني أتفسخ وأتزنخ في عالم لا يأهله شيء سوى اللاشيء، أللهم إلا ماكان عرضاً سريع الزوال. ولهذا، أكاد أن أموت من السأم والتثاؤب. فليتك هنا في دمشق، يا غادة، لعلك أن تخففي عني بعض ما بي من

كرب واضطراب. فأنا أعرفك جيداً وأعرف قدرتك على التأثير والحضور.

والآن، ها أنت ذي ترين إلى أي مدى أنا متناقض أو مزدوج في الصميم. فمن جهة، ثمّة عزيمة تبتغي سدانة الحقيقة وتسويرها بسور صيني حصين، وذلك ابتغاء صيانتها من كل عطب أو تلف، ومن جهة أخرى، هنالك تقزز من الأشياء يدفعني حتى جوف القرف، ويثابر على طردي من المركز إلى المحيط. وفي قناعتي أن الحال الأولى هي الأصل الراسخ في هويتي الباطنية، أمّا الثانية فهي نتاج للشرط الخارجي، ولما أفرزه العصر الراهن من أحماض وأملاح وروائح منتنة. فالبحث عن الصدق في عالم زائف لا بد له من أن يصنعه حنين يتجذّر في أرضية النفس راسخاً على الدوام. أما الاشمئزاز فقد أفرزته الذات تحت ضغط المثبطات الكثيرة التي من شأنها أن تحيل إلى تجربة معكورة ينغصها ألف منغص على الأقل.

وتتكشف المفارقة أو المعضلة في هذا السؤال: كيف يسعني أن أوفق بين حاجتي إلى الفعل والحركة وبذل الجهد وبين شعوري بأنني زائد عن حاجة هذه الدنيا، بل بأن هذه الدنيا لا لزوم لها بتاتاً؟ كيف أوفق بين نزوعي إلى الحياة ونزوعي إلى الموت؟ إن التفكير بالمفارقات والأزمات وحالات التوتر الحادّة قد يكون أعمق مستويات التفكير التي يمارسها الذهن الحي، وذلك لأنه يجمع الفكرة والرعشة الوجدانية في بنية واحدة. إنهما تندغمان في برهة مركّبة فذّة نادرة.

إذن، ها انني لست متجانساً البتة. ففي لحظة معينة، وهي لحظة تتكرر كثيراً، أشعر بأنني أعيش حنيناً إلى الحب وآخر إلى الموت في آن واحد تماماً. وعندي أن أعمق حنين وآصل وجدان، هو ذاك الذي يؤلف الحب والموت في صيغة واحدة.

عزيزتي غادة،

طالعت قصيدة؟ ضحك اللوز "فوجدتها جيدة لولا صفة سلبية تثلبها وهي

أنها تحتوي على عدد ليس باليسير من الكلمات التي جاءت على وزن «انفعالات»، مثل «انكسارات».. وأرجو أن تضيفي إليها مقطعاً آخرعلى الأقل لكي تصير أطول...فهي قصيدة جيدة حقاً.

أرسلي لي شِعرَكِ لأقرأه وأبين لك رأيي به.فلَعلّي أكون نافعاً لك بعض الشيء، مع أنك ستظلين غير سعيدة في جميع الأحوال.

أرجو أن تبلغي تحياتي لعبد الكريم الناعم، وأن تشكريه بالنيابة عني على هذه الهدية النفيسة.

يوسف سامي اليوسف

المشتاق على الدوام

دمشق، مساءً الأحد، عيد الفصح الشرقي، ١٩/٤/ ٢٠٠٩

الجواب

الصديق والأستاذ العزيز أبو الوليد،

أسعدت صباحاً ومساءَ، وفي كل وقت. ولك المودة كلها وبالغ التقدير، ولك الشكر العميق على لفتتك الكريمة لزيارتك حمص. التي هي سانحة كانت على قصرها استرخاءة حبور في زمن انسحب فيه الناس كلّ إلى كهفه، ونأى بنفسه عن الأرض حتى غدا في وحشته أقرب إلى وحش البراري. وقد تمنيت لو أن تلك الزيارة الأنيسة كانت أطول، ولكن هواجسك المشروعة بترثْها، ولولا ذلك لما كنا طاوعناك بأن لا تمنحنا سوى ماهو أقل من سويعات يوم واحد.

إن زيارتك لنا بيّنت وبوضوح كيف يكون انتماء الانسان للانسان. فنحن من فصيلة المحبين، ننتمي للحب وما فيه من قيم، وما يمليه علينا من استحقاقات، بالرغم من أنه وقف، وما يزال يقف وراء هزائمنا، ولكنه، وبه وحده نستطيع أن نؤسس لعالم أرقى سواء نجحنا أم فشلنا. وبه وحده نبني العلاقة والانتماء على أساس يعيد النظر في الانسان والعلاقات والحياة برمّتها. ولعلّنا بالحب وحده يمكننا أن نستنبت الزهرة من صلد الحجر، حتى لو خسرنا، ولكن أرى أننا في النهاية أننا نحن الرابحون. لأن من يربح بالحب يربح نفسه حتى لو خسر العالم كله.

لذا علينا أن نحتفي بالحب في الوقت الذي تحتفي فيه مدينة العالم الرصاصية بالقتلة من كل صنف. فلعلنا نعيد ولو على سبيل الحلم نبضة الروح لهذا العالم الذي يجف حين تلحُّ الحاجة إلى رفيق مؤنس وصديق له من رهافة الحس وذكاء الوجدان ونبله مايضفي على الحياة نداوة ونضرةً أمست حلماً في بلقع الواقع المتليّف اليابس.

صديقي الكريم، ها هي ذي الأيام تمرّ عجفاء خاوية إلا فيما ندر. ولقد أيقنت بعد زيارتك حمص حجم وفداحة الخسران في أن لايرى الصديق صديقه الذي يسكن إليه. ولعلها نعمة من النعم وجود الهاتف الذي يتيح لنا أن نتواصل بالصوت مما يندي يباس النأي.

أيها الصديق الطيب، لم أكن أعلم قبل زيارتك كم يكنّ لك الجميع هنا من مودة وتقدير. حتى أن الأديب الشاعر ممدوح سكاف اتصل بي بعدها على الفور كي يعبّر عن أسفه للظروف الطارئة التي حرمته من لقاء أطول معك. وقد اتصل بي منذ يومين يرجوني أن أتذكّر بدقة تاريخ زيارتك له في مقر اتحاد الكتاب في حمص ليوثق ذلك اللقاء الذي كان بحضور فراس السواح[*].. وفرحان بلبل[*]، والذي اضطررت أنا فيه لتركك معاً بسبب ظروف عملي في المحكمة في ذلك اليوم، ولأن هنالك جلسات البت في قضايا، وإخلاءات سبيل لبعض الموقوفين. يريد ممدوح السكاف أن يوثق ذلك في مذكراته التي يكتبها مضافاً إليها رسالتك التي كنتَ أرسلتها له وما فيها من آراء وتوجيهات قيّمة حول كتابه الذي أرسله لك.

صديقي، لا أدري لماذا في هذه الأيام، بل ومنذ فقداني لإبنتي ميديا بتُّ أشعر أن القلم يجافيني، وأن لغتي باتت أقل نداوة. وأتساءل إن كان السبب ما أنا فيه، أم أنها فترة عابرة وتزول مع الوقت؟ فهل مررتَ بحالة كهذه يوماً ؟ فإنني أكاد أختنق، لأنني أشعر أنني حتى الآن لم أكتب ما أريد، أو مايعبّر عن أعماقي. وستكون كارثتي المنتظرة إن لم أقدر على ذلك في يوم من الأيام. خاصة وأن الكتابة هي الفضاء الوحيد الذي يمكنني أن أتلهى به عمّا بي. ولا شيء غيره على الإطلاق. وأنا، لا أطلب مجداً، فالزمن لم يعد فيه متسع لهذا،

(*) فراس السواح: مفكر وباحث وأديب من سورية -حمص. تناول التاريخ القديم وله مقارباته المتميزة في هذا المبحث وخاصة في عالم الأسطورة.

(*) فرحان بلبل: كاتب ومخرج مسرحي – مدّرس في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق- له عدد من المسرحيات والأبحاث. سورية – حمص.

ولكن أطلب مَن..وما يشعل لي قنديلاً في ظلمتي التي أكابدها، والكتابة، وحدها هي ما يمنحني الانشغال عن فجيعتي، ولكن في معظم الأحيان تلقيني في أتونها، فيا للتناقض. وأنا على يقين أنني لن أشفى من الجرح الذي سببه فقدان ابنتي ميديا..رفيقة عمري. بل أظن أن نزفه يزيد مع الأيام.

لا أدري كيف أخوض في طريق عمري معه، وبه، ولا أدري أيّنا يجر الآخر: أنا أم الحزن !

صديقي.. وأستاذنا. إن المجموعة القصصية هي ذاتها التي قرأتها مضافاً إليها قصة واحدة بعنوان (من سفر المكابدات). أتمنى أن تحوز على إعجابك ورضاك.

هذه صورتي في العشرينات، والثانية في الثلاثينات..وفي الخمسينات لديك. وبعدها لن أجرؤ على الوقوف أمام عدسة الكاميرا، لأنك وكما رأيت فإن الزمن وما حمّلنيه كسر ماكان شامخاً، ويبّس ماكان يانعاً، وهرست أقدامه الجلفة ماكان لدناً طرياً.

بانتظار رسالتك.. لك مني المودة والتقدير.

غادة

حمص في ١٦/٥/٢٠٠٩م

الرسالة (٢١)

عزيزتي غادة،

أحييك بحرارة وصدق، وأرجو لك أوقاتاً سعيدة.

ما أود أن أبدأ به رسالتي هو رحلتي إلى حمص في التاسع عشر من أيار الجاري، وهي التي كانت عملاً ممتعاً كسر روتين حياتي الرتيب الممل. وأهم مافي أمرها أنني لاقيت أناساً طيبين، بل إن لهم من الطيبة الشيء الكثير، ولا سيما أنت ونورس والفتى الصغير الأسمر الجميل نور الدين وعبد الكريم الناعم، فقد منحتموني الكثير من الحفاوة والإكرام.

ربما كنت تعلمين أن الطيبة عندي هي القيمة الأولى في هذه الحياة، وليس الحب هو الذي يحتل هذه المرتبة، ولا الذكاء، ولا الحساسية، على ما لهذه السمات من قيمة جلّى. وفي الحق أنني جد فخور بأن تكون لي صديقة جيدة وطيبة مثلك. ولقد برهنت رحلتي إلى حمص على صحة فكرة أتبناها منذ زمن بعيد وخلاصتها أن الإنسان الطيب موجود في كل زمان ومكان.

ومما هو جدير بالتنويه في هذا الموضع أن جميع أفراد الأسرة قد لاحظوا ما فحواه أن الساعات الثلاثين التي قضيتها في حمص جددتني وأنعشتني كثيراً حتى لكأنها قد كانت بمثابة إجازة من العزلة، بل من اللعنة.

* * *

وأما موضوعي الثاني فهو قصصك الخمس التي قرأتها بإمعان وتؤدة :

القصة الأولى، «إيقاعات الليل»، جيدة لأنها تدور على التوتر والاضطراب اللذين يكابدهما الفنان في عالم لا يجيد شيئاً سوى صنع التوتر والاضطراب داخل نفوس الناس، واللافت للانتباه ههنا أن الزوجة لا تملك أن تفعل أيما

شيء ذي بال لزوجها المضطرب، حتى درجة المرض. وهذا يعني أن قدر الناس هو التخبط في بؤسهم دون أمل في الخروج منه.

القصة الثانية، «الخيام»، هي نص يفتقر برأيي إلى التراص، أو إلى ما يلحم بنيته ويجعلها أشد تأثيراً.

القصة الثالثة، «جسر الشوك» جيدة بالفعل. إن هذا الصنف من أصناف الأدب يسعني أن أسميه باسم " أدب القاع"، أي قاع المجتمع، أو قاع الحياة. إنه أدب يختص بأناس قلما يُعنى بهم أحد، أو لعله أن يكون بمثابة تأريخ لمن لا تاريخ لهم قط.

القصة الرابعة، "سارة التي أعرف"، رغم فنيتها العالية، ولغتها الباذخة، إلا أنها ليست على مايرام، وهذا رأي مزاجي يخصني وحدي، لئن كانت هنالك امرأة فلسطينية لها صديقة يهودية فهذا هو الاستثناء، وليس القاعدة، وعلى أية حال، فإنها قصة أقل جاذبية من قصصك التي تجذب القاريء منذ السطر الأول إلى آخر حرف.

أما القصة الأخيرة، أعني " أنين القاع"، فهي في قناعتي نص متميز، وذلك لأنها صورة عن وضع أناس القاع الذين يهملهم الجميع. وهي مثل القصة الرابعة، من أدب المسحوقين الذين أحالتهم الحياة، أو القوى الجائرة، إلى فتات ولا مرية في أن الانتباه لشؤونهم من شأنه أن يؤشر إلى ضمير حي. وحيوية الضمير أمارة على أن الانحطاط لم يلتهم الحياة بأسرها.

حبذا لو صار أدب المسحوقين اختصاصاً لك، ففي هذه الحال سوف تتميزين عما سواك من القاصين. وأرجو أن لايأخذك الشعر إلى خارج القصة التي أبدعت بها وتميّزت.

عزيزتي غادة،

بعد لأي، عثرت على قصيدتين لك محشورتين بين كوم رسائلك الإحدى عشرة. وعنوان أحدهما هو "ضحك اللوز بكيت" والثانية "هاتف المساء وسبق لي أن أبديت رأيي بهما، وأعيد: هما جيدتان. ولكن أرجو أن لا تأخذك غواية الشعر خارج حلبتك التي تسيّدت عليها، أقصد القصة.

ربما لم يكن في صالحك أنك قد رحلت من دمشق إلى حمص ذات يوم. فلو بقيت ههنا قريبة مني لحاورتك طويلاً، فمن شان ذلك الحوار أن يبقيك متوّجة على عرش الكتابة المتميزة.

أمّا آخر موضوع لدي فهو رواية" أشرعة ممزقة"* لسوزان مصطفى، مأثرة هذه الرواية هي أنها جهد من أجل الحرية أولاً، ومن أجل الحب ثانياً، بل إنها تقدم الحب والحرية، وهما أعز الموضوعات على أفئدة البشر، بوصفهما صفحتين لورقة واحدة. ولكن لايكفي أن يكون الموضوع كبيراً أو مهماً، لكي يكون هنالك أدب فذ. ولايكفي كذلك أن يكون التوجه حاراً وصادقاً من أجل تحقيق هذا الغرض نفسه فلا بد من قدرة على التعبير. لابد من نص لا يأهله الفتور والسأم بتاتاً.

العنوان متشائم. ومع أنني متشائم وأكره الحياة جهرة، فإنني أحب ألا يتشاءم أحد. فالأشرعة الممزقة مثل الأجنحة المتكسرة، سواء بسواء، والشيئان معاً يؤشران إلى تعذر الحراك أو السير بأي اتجاه، حتى الاتجاه إلى الخلف. وهذا يعني الركود الخانق المقيت.

ثم إنها رواية تقليدية جداً، أقصد أن موضوعها مستهلك، أو أن كتاب الرواية العرب قد استنزفوه خلال السنوات الثلاثين الأخيرة. فهي تدور على هموم المرأة التي يكبحون حريتها ويرغمونها على الحجاب ويمنعونها من اللعب مع الأطفال الذكور، وما إلى ذلك من مشاكل صار الحديث عنها أمراً مملاً بعدما لاكتها الألسن كثيراً.

على الرواية أن لا تتألف من أحداث تتراكم وتتراكم حتى لاتكاد تنتهي. إن المسرود المزدحم بتراكم الأحداث لا يصنع نصاً أدبياً جذاباً. فلا يكفي أن تختزن الرواية أزمة تتخارج على هيئة حوادث، وذلك لأن من واجبها أن تجعل القاريء ينخرط في الأزمة التَّي تعرضها وأن يشارك فيها ويشعر بأنها أزمته

(*) "أشرعة ممزقة": رواية. د. سوزان مصطفى. سورية- حمص.

الخاصة، بل أزمة كل إنسان على الأرض، وإلا فإنها سوف لن تكون لها أية قيمة استثنائية قط.

أما عيبها الأساس، عيبها الذي تشترك فيه مع الغالبية العظمى من الروايات العربية، فهو أنها تصب جل جهدها أو اهتمامها على الخارج بدلاً من الداخل. ولهذا، فقد جاءت محرومة من الشعر الضمني وكذلك من أي تحليل للشخصيات والوجود. وفي الحق أن أدب الخارج ليس أدباً من الدرجة الممتازة.

إن النص الجيد هو ذاك الذي ينصهر في وجدان القاريء أو يتماهى مع بنيته الروحية العميقة.

أرجو أن أكون قد بينت ماهو مفيد، كما أرجو أن تكوني مقتنعة بآرائي أو غير نافرة منها، على الأقل.

هاتان صورتان لي، أرجو أن تحتفظي بهما من أجل المستقبل. أُخذت أولاهما سنة ١٩٨٨، وأخذت الثانية سنة ١٩٩٩. وعلى الغلاف الأيمن للكتاب " تلك الأيام" صورة لي أخذت سنة ١٩٥٥، وعلى الغلاف الشمال للكتاب نفسه صورة أخذت سنة ١٩٧٢. إذن، لديك أربع صور تنتسب كل منهما إلى مرحلة من مراحل عمري: الأولى من طور المراهقة، والثانية من طور الشباب، والثالثة من طور الكهولة، والرابعة من طور الشيخوخة الباكر، يوم كنت أودع الشباب.

تحياتي إلى نورس ونور وعبد الكريم الناعم

واسلموا لي جميعاً

لكم قبلاتي ومحبتي والمحض من أشواقي الدافئة.

المخلص يوسف سامي اليوسف

دمشق، صبيحة الخامس والعشرين من نوار، ٢٠٠٩

يوم الاثنين، بعد بزوغ الشمس بقليل.

ملاحظة: لامانع من أن تبلغي سوزان مصطفى برأيي الذي أبديته للتو.

الرسالة (٢٢)

عزيزتي غادة

لقد تسلمت للتو رسالتك الثانية عشرة وقرأتها بنهم، كما هي عادتي حين أقرأ رسائلك التي تنقل إلي الكثير من البهجة عادةً. والغريب أن الرسالة مؤرخة بتاريخ السادس عشر من نوار الأخير. وأظن أن هنالك سهواً أدى إلى هذا الغالط القابل للاستدراك. كما أن ثمة أمراً آخر مثيراً للاستهجان. ويلوح لي أن ذهنك يشرد كثيراً في هذه الأيام. فلقد جاء في رسالتك الثانية عشرة قولك: "هذه صورتي في العشرينيات والثانية في الثلاثينيات".والحقيقة أنه لا وجود لأية صورة في المغلف كله. وما لم تكوني شاردة اللب، فإن مكتب الشركة الناقلة قد اختلس الصورتين.

أما زيارتي القصيرة إلى حمص فقد تمت يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من نوار سنة ٢٠٠٩. ولقد قضيت في مدينة ابن الوليد ثلاثين ساعة كاملة. أما لقائي مع ممدوح سكاف فكان صبيحة الأربعاء الموافق للعشرين من نوار.وإنني أفكر بزيارة ثانية في تشرين الأول القادم، أي بعد انقضاء فصل الحر الشديد، وهذا يشترط أن يكون وضعي الصحي على ما يرام. ففي الحق أنني قد أصبت بمرض شديد إثر عودتي من حمص، أو حصراً في الخامس والعشرين من نوار، وما زلت أتردد على الأطباء منذ ذلك اليوم وحتى هذا اليوم الراهن، لأنني أعاني من سوء التنفس. معنى ذلك أن الاتصال بالحقيقي له عقابيل وخيمة قد تنهك الروح والجسد في آن معاً. ولهذا أراني أعتقد بأن قدر الانسان الحساس يتلخص في أن يظل مضطرباً متوتراً، يلوب على الصادق أو على الأصلي في هذا الزمن المزوّر. وحين يخسر المرء عنصر النضارة والفتاء، أو عنصر الحيوية الذي هو أس الوجود البشري بأسره، فإنه يكون قد خسر كل شيء وصار لقمة سائغة للعدم أو للشقاء.

عزيزتي غادة

لقد لاحظت أن هنالك حزناً، بل كآبة شديدة في رسالتك الأخيرة. وأنت ما فتئت تذكرين ميديا التي جلبت لك وفاتها هذه التعاسة كلها. ولكنني أنصحك بنسيانها واستئناف الحياة من جديد. ولئن لم تفعلي فإنك قد تصابين بأمراض فتّاكة، ولا سيما مرض القلب الذي أصابني نتيجة غمّ لا فداء له بتاتاً.

الحياة قاسية، يا غادة، وما وُجدنا إلا لكي نطيق أو لنجابه بصلادة وإباء رواقيين. وأخشى ما أخشاه أن أكون أنا، أو أن تكوني أنت، من أولئك الذين يفترس كل منهم نفسه بنفسه، أو يتآكل من داخله بفعل اضطرابه الخاص. وحين يكون الانشطار في الداخل، فأنى للمرء أن يجابه الخارج بجلد وإرادة مهما يك مستواهما؟

والحق أن في جوفي اللامرئي (وربما في باطنك أنت أيضاً) يتدفق شعور هو مزيج من الغموض والحزن والرعب والغضب والشوق الأزلي إلى الحياة الأصلية الغائبة أو المقصاة على الدوام. وإنني أتساءل دوماً: كيف يسعه أن يستسيغ العيش من كان مسكوناً بهذا المقدار من النيران اللاهبة. فكأن قميصي مسرودة من لهيب يحيق بي من جميع جهاتي، ولا خلاص لي منه بتاتاً. وكثيراً ما تساورني فكرة مؤداها أن الجحيم لايكون إلا حيثما كنت.

وإني لأشعر دون انقطاع بأن روحي عطشى إلى الصدق والصفاء الرائق كالماس، وكذلك إلى محبة تشع من مركز الأشياء فتغمر الأرض كلها بعذوبة مذاقها العسلي. وأحسبني ألوب على جرعة تنبجس من ينبوع الينابيع. (لاأعرف من يحب الينابيع أكثر مني.) ألوب على جرعة إذا ما شربتها فلن أظمأ إلى أبد الآبدين. وأنني ألوب كذلك على مخرج يخرجني من هذه اللزوجة التي تدبقتُ فيها حتى صارت كأنها فخ تورطت بقيده دون أن أصادف من يفكني من شدقه ذي الأنياب الفولاذية. وها أنا ذا اليوم واحد من المهمَلين المهجورين "الملحوشين" على رصيف الحياة بدلاً من مجراها العريض. ولكن العزلة وحدها مبدعة، أما الاحتكاك الطويل بالناس فلا يزيد عن كونه مضيعة للوقت. ففي العزلة اكتشفت أن اللغة العربية ما انفكت عذراء يانعة كالعسلج في الربيع الباكر، مع أن الذين كتبوا بها قبلي من الكثرة بحيث لايحصيهم الاحصاء. فما كان إلا أن استمتعت ببكارتها

ومخمل نسيجها اللدن طوال عشرات السنين. وهذه حظوة حظيت بها وحدي من دون سائر الناس.

ولو لم تكن هنالك أية نتائج لهذه الحظوة سوى أنني أمارس اللذة حين أمارس الكتابة والتفكير، لكان ذلك حسبي، بل لكان مكافأة عظيمة من شأنها أن تكافيء ما أبذله من جهد. بيد أن أعظم لذاتي هي مراقبتي للأغبياء والزائفين وهم يجهرون بالضغينة التي يكنونها للأذكياء والمتفوقين، وبخاصة حين يستطير شررها من عيونهم، وعلى نحو أهوج في بعض الأحيان.

وعلى أية حال، فإنني أشد منك مكابدة للبؤس والتوتر والاضطراب. ومع ذلك فإنني ما زلت أكتب وأقرأ حتى اليوم. وإني لأنصحك بأن تُقبلي على الحياة بكنه الهمة ودون كمد أو احتدام. وحاولي أن تطالعي روايات من القرن التاسع عشر الأوروبي: دوستويفسكي، تولستوي، هيغو، بلزاك، دكنز...الخ. وإني لأنصحك برواية لبلزاك عنوانها "الزنبق في الوادي". إنها مما يملك أن يولج النسيان والسلوان في جوف النفس. فمما راقني فيها أن بطلها قد وصل إلى أحد الأودية الجميلة، فقرر ما فحواه أن المرأة التي يملك أن يعشقها لابد لها من أن تكون مقيمة في هذا المكان حصراً، وذلك لاعتقاده بأن الأماكن الجميلة من شأنها أن تنجب كائنات بشرية جميلة. وبالفعل أصاب حدسه وعثر على امرأة جميلة وعشقها في ذلك الوادي الفينان. إنه روح المكان الذي تحدثت عنه الصوفية العربية قديماً، كما تحدث عنه الأدب الحديث أيضاً. وقد كانت هذه الرواية في حوزتي ذات يوم، ولا أدري ما إذا كنت أستطيع أن أصادفها في مكتبتي الآن. وربما جاز لي أن أزعم بأن بعدك عني ليس في صالحك بتاتاً.

عزيزتي غادة،

راقني كثيراً أنك كنت أريحية أو شديدة الطيبة معي يوم زرتكم في حمص.

تحياتي إلى نورس ونور وعبد الكريم الناعم وممدوح سكاف وعلاء الدين عبد المولى وكذلك للسيدة منى وإبي عبد الله، وجميع من يسألون عني. واسلمي على مر السنين.

يوسف سامي اليوسف

دمشق في ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٩

الجواب

الصديق العزيز الأستاذ أبو الوليد

أسعد الله أوقاتك بكل خير وسلام.

مؤكد أن رحيلي عن دمشق لم يكن في صالحي ككاتبة، لم يكن في صالحي في شيء، سوى في استعادة غلالة اجتماعية تنسجها (العائلة) كقيمة، أو هامش حماية اعتباري، جّردتني منه دمشق، ومزّقتْ مخالب غربتي فيها كل ما يستر عريي كامرأة شابة على مسحة من الجمال، تعيش وحيدة وسط محيط يلفظها، أو يفتح شدقيه ليبتلعها بوحشية، وقد قالوا «الغربة تضيّع الأصول».

أنا لم أغادر دمشق مختارة، في الحق هي التي غادرتني، وأقصتني بقسوة، وأنا التي أَمَمْتُها حاملة في قلبي آمالاً وأحلاماً لم يتحقق منها شيء، بل على العكس، فدمشق كانت مضيعة الأحلام، وبئر الأمنيات المهجورة، دمشق كانت لي مجزرة لم أشف من جراحها، ولن أشفى. وكانت الصحوة المؤلمة على واقع مرير، في هجيرها احترقت كل البراقع الهشّة التي كانت تستر إهاب القبح الذي صوّرتْه لي رؤاي جمالاً في يوم من الأيام.

لا أدري إن كنت تعرف يا أبا الوليد كيف ذهبت إليها، ومؤكد، أنك لا تدري كيف غادرتها. فلقائي بك لم يكن أكثر من بضع مرات في زياراتك القليلة لبيتنا برفقة أصدقاء ومعارف من كان زوجي (علي الشهابي) في المخيم، وهو ابن بلدتك الفلسطينية (لوبيا)، وزميلك في سلك التعليم في مدارس الاونروا.

ارتميت فيما حسبته حضنها، عارية من كل سلاح سوى الحب، والأمل، طرقتها أحمل آمالاً وأحلاماً وعشقاً ماعرفته النساء، وعدت منها أنوء بآلام وانكسارات، وخيبة، لاتقدر على حملها نساء الأرض قاطبة. خيبة بالحب، والزواج، والأسرة، والأصدقاء، والرفاق، وبمن يتنطحون لتغيير العالم وهم

محاصرون ببدويتهم المتأصلة. خيبة بدمشق ذاتها.

لن أكشف الآن ما اختزنته ذاكرتي من وجوه تعرّت من قبح أخجل كإنسانة حتى من أن أتذكّره ! وأسماء أشخاص مايزالون فيها وقد تكشّفت عن عهر وغدر وصفاقة وانحطاط وتلوّن لم، ولن أبوح به الآن...إلاّ، ربما في رواية ما،إن قدرتُ على كتابة رواية. حاصرني القبح والعهر من أقرب الناس، وكذلك الوحدة، والفقر، الذي سببه مرض البنتين ميديا وليديا، لروحيهما الرحمة والسلام،وما يستجرّه علاجهما من تبعات ناء بها مرتّبي، في ظل تخلّي الأهل والجميع عني، إنه التخلي والنكران..أقبح مافي البشر.

خيبتني دمشق، وأنا التي ذهبت إليها يسحبني عطر يا سمينها، ورحلت عنها، ولم أزل حتى اللحظة أختنق برائحة احتراقي.

نكصتُ إلى حمص، مدينة الريح والغبار والبرد، حيث الأسرة معتدّةً باسمها وأصولها، والتي كانت قد تبرّأت مني، وهجرتني، ورجمتني.

لن أثقل عليك في استرجاع صراع لا إرادي عشته في تجربتي الشخصية، وما رزحتُ تحت ثقله منذ سنين طويلة من الألم..والاضطراب، والانشعاب والانشطار، وأنا أبحث عن مساحة دافئة تؤويني، وللأسف، لم أصل، رغم كل مايراه الناس من مظاهر استتباب خادعة.

الآن، وقد تساوت الأشياء، لم يعد في روحي مكان أحن إليه، أو أي مكان أحبه. وصدّقني إذ أقول أنني أحسد اللاجيء لأن بباله مكاناً يحن إليه، ويحلم بالرجوع إلى دفئه.

أَتُصَدّق؟؟ كم هو كارثي أن ليس من مكان أحبّه، أو أحنّ إليه !؟

ولا أدري يا أبا الوليد إن كنت تذكر يوم ذهبت إلى بيتكم، وكان ذلك في خريف ١٩٨٦ على ما أذكر، أحمل دفتراً فيه بعض القصائد الشعرية التي كتبتها، وقد أطلعتك عليها. يومها، قلت لي بالحرف: "إنها جيدة، ولكن تحتاج إلى شد في بعض المواضع." يومئذ لم أكن أرتدي الأسود كحالي الآن، بل كنت ألبس الأبيض، وهو أفضل وأحب الألوان إلى قلبي، بعد الأخضر. وكادت الفرحة تطيّرني، لكن

فوجئت بقرار علي بالإنفصال عني، وهو في السجن. وكان ذلك قاصماً بعد وفاة ابنتي الصغرى ليديا بأيام قليلة، والتي توفيت حين كنت أرزح في عذابات السجن، أضف إلى فقدان الأمل بشفاء ميديا، أضف إلى ذلك كله حقارة أصدقائه الذي لايزالون يظهرون له المودة والإخلاص، وقد اعتزلتهم جميعاً، وأغلقت بابي، ولم يكن لي من مكان أتنفس فيه سوى بيت (أبو علي حسن عودة) وشقيقته فاطمة التي ما أزال أكن لها الكثير من المودة. وعدت إلى حمص لأعيش غربة مضاعفة، غربة بين أهلي، وغربة عن ذاتي، وعن كل شيء.

والآن، وقد استعدت قليلاً من موطيء قدم فيها إلا أن الحياة فيها تماماً كمن يشرب ماء السراب.

الكتابة وحدها هي ماتنفض عن روحي مايخنقها ويكبّلها، وأحياناً تحقق لي بعض السلام الخاص، ومؤكد لو أنني مازلت في دمشق لكنت استثرت بفيض ضوئك في تجربتي الإبداعية، ولكنه لعمري خسران كبير يضاف إلى ذخيرتي المترعة بالخسارات.

صديقي العزيز. هذه هي الصور بكل المراحل. مضاف إليها صورتان جديدتان (خلنج)، سحبتهما من أول تموز هذا العام.

أتمنى أن لاتضيق بكثرة الصور، ولا بصاحبتها.

مجموعتي القصصية "أنين القاع" ستصدر قريباً جداً. وأنا الآن أفكر بالرواية. روايتي الشخصية. ولكنني في أشد التهيب، يربكني البناء والبداية. فهي سفْرٌ يتفوّر بالأحداث، والشخصيات، ولا أعرف، وأجدني كمن يتخبط في لجة لا وجهة لها، ولكنني سأحاول الرواية رغم هذا التهيب والخوف. فبماذا تنصحني ؟ بانتظار رسالتك.

لك مني كل التقدير والمحبة والإخلاص.

صديقتك المخلصة

غادة اليوسف

حمص في ٦/٧ / ٢٠٠٩

الرسالة (٢٣)

الغالية غادة،

في السابع من تموز الجاري تلقيت رسالتك الثالثة عشرة التي كتبت قبل يوم واحد من إستلامها. وحين أبصرت صورك البهية فقد شربت من الفرح والبهجة حتى الثمالة. للحق أنني انتشيت بصورك الطافحة بالحيوية والثقة بالمستقبل، وذلك يوم كنت في العشرين والثلاثين من سنوات العمر.

ولكنني حزنت كثيراً حين سردت قصتك مع دمشق. وإنها لحكاية مكروبة حقاً. أن تموت ابنتك وأنت في السجن، إن في هذا مأساة بشرية مروّعة. وإنني أتعاطف معك إلى أقصى حدود التعاطف. وأرجو أن تثقي بأنني قد حزنت كثيراً لهذه الحكاية، أو لهذه التجربة التي مررت بها في دمشق. ولكنك قد تجدين عزاءً في هذا المثل الشعبي: " هنيئاً لكل من بات مهموماً بهم عتيق." أي، إن ذلك كله قد مضى وانتهى الأمر.

ومما هو مفرح أن أخبارك الجديدة مفرحة. فأنت سوف تنشرين مجموعة قصصية عما قريب،كما أنك سوف تباشرين بكتابة رواية بعد برهة وجيزة. حسناً!

تسألينني قائلة: بماذا تنصحني؟ ببساطة أجيب: أنصحك باقتحام الدائرة الروائية دون خوف أو وجل أو تهيب. كما أنصحك بأن ينصب اهتمامك على هدف واحد: بناء شخصية متينة رصينة لا تنسى، وذلك عبر تزويدها بالمزايا الانسانية العميقة و الأصيلة في آن معاً. ففي مذهبي أن الروائي المتميز هو ذاك الذي يملك القدرة الكافية على إنتاج شخصية روائية عظيمة ينظر إليها القاريء كما ينظر إلى تمثال منحوت بأناة وباتقان شديد يدعو للإعجاب.

أعتذر عن قصر هذه الرسالة، فأنا اليوم مريض جداً. ولسوف تكون بيننا

مراسلات كثيرة في القريب العاجل، دون أدنى ريب، فأنت تحملين لي عزاءً كبيراً، ولهذا فإنني لا أملك أن أنفك عنك بتاتاً.

لقد كتبت الجزء الرابع من "تلك الأيام". وهو يتألف من مدخل وثلاثة فصول وخاتمة. وكان الفصل الثالث عنوانه "رسالة إلى سيدة". وفي الحق أنه رسالة إلى المرأة الأولى التي بادلتني الحب العذري سنة ١٩٥٧. وبودي أن أرسل لك صورة عن هذا الفصل الذي يقع في عشرين صفحة أو أكثر بقليل، من القطع الكبير. والهدف من ذلك أن تطالعيه بإمعان وتؤدة، وأن تقولي لي رأيك دون مواربة أو مراوغة. فإذا راقك نشرته، وإن قلت إنه "بايخ" فإنني سوف أقذف به في سلال القمامة. وأنا أستشيرك في هذا الأمر ليقيني بأن لك ذائقة نبيلة. إذا وافقت على هذا الاقتراح فبلغيني لكي أحيل النص إليك فوراً.

بخصوص الرواية التي تزمعين كتابتها، فإنني أنصحك بأن تباشري بذلك فوراً، وحبذا لو أنك تكتبين عن ذاتك، وهو فعل عسير، ولكنه أصيل ولايستطيعه إلا الأصلاء من البشر. وأنا أثق بأصالتك وحساسية روحك. وليتك تنوهين بي في روايتك التي سوف تكتبين أو تنجزين، حين التطرق إلى المرحلة التي كنت تقيمين فيها بدمشق. ولا أحسبك تعتقدين بأنني أسأت إليك منذ تعرفت عليك سنة ١٩٧٩ وحتى رحيلك عن العاصمة السورية بعد ذلك بعشر سنوات.

صحتي ليست على مايرام، أصبت باحتباس السوائل الذي من طبعه أن يحيل التنفس إلى عذاب مقيت، بل إلى صنف من أصناف الولوج إلى سقر. فبطني وصدري مترعان بالماء الذي لايخرج إلا بكل مشقة وعسر. وإذا ماخرج فأن ماءً جديداً سرعان ما يحتشد في البطن والصدر حتى الاكتظاظ. وقد ذهبت إلى أحد الأطباء منذ أسبوعين، ولكن المعضلة بقيت على حالها. وسوف أذهب اليوم إلى طبيب آخر. أجل، اليوم، الأربعاء الموافق للثامن من تموز الذي يشويني كأنه أتون، بل كأنه جهنم.

قبل زيارتي لحمص بأيام قليلة تعرفت على امرأة شديدة الطيبة اسمها (ن.ي) من السلمية. وإني أراها تجسيداً للعذوبة والبراءة وصفاء الروح، فضلاً

عن أنها ذكية وحساسة وشديدة الحضور. لكن المرض أفسد عليّ متعة الالتقاء بها، وذلك لأن عسر التنفس يمنعني، حين يشتد، من مغادرة البيت، بسبب عرقلته للحركة الطبيعية.

وعلى أية حال سوف أرسلها إليك لتتعرفي عليها بالدرجة الأولى، والجدير بالتنويه أن هذه المرأة النقية السريرة عاطلة عن العمل في هذه الأيام التي لاترحم. وللحق أنها نبيلة الروح، فقد عرضت عليها مساعدة طفيفة تتبلغ بها، ولكنها أبت ورفضت وأصرت على الرفض مع أنها في الضيق.

ليتك تستطيعين مساعدتها.

بالنسبة لمقالك المكرّس ل"تلك الأيام" والمنشور في جريدة "النور" للحق إنه مقال جيد جداً. وإنني أشكر لك هذا الصنيع الجميل. تحياتي إلى الجميع وأرجو أن تكونوا على خير مايرام.

صديقك العجوز يوسف سامي اليوسف

دمشق في يوم الأربعاء، ٢٠٠٩/٧/٨

الرسالة (٢٤)

غادتي الغالية، صديقتي الرائعة،

طابت أوقاتك بكل خير. وأتمنى أن تكونوا جميعاً على أحسن مايرام.

لا أحسبك تعرفين مقدار الحبور الذي رشفت قطراته المثلجة للصدر، حيث شاهدت صورك الفاتنة مرفقةً برسالتك الأخيرة. ثم إن بينها واحدة لها من السحر ماخلب لي لبي حقاً. وأظنها مؤرخة بتاريخ العاشر من أيلول، سنة ١٩٩١.

صديقتي الصادقة،

حاملة هذه الرسالة هي السيدة ن. ي، الصافية كمالربيع، أو كثلجٍ على جبل شاهق. وهي المرأة التي حدثتك عنها في رسالتي الأخيرة. وإنها اليوم – وأيم الحق – أعز امرأة في دمشق كلها، ولولاك لقلت في الدنيا بأسرها. فقد اجتذبتني بلطفها وكياستها منذ أن رأيتها لأول مرة في نوار الأخير.

وأشهد فيها أنها العذوبة تمشي على الأرض، أو تتجسد للعيان. ثم إنها النقاء الماسي والبراءة والطيبة وكل ماهو إنساني نبيل. وفي مذهبي أن البشر يعدون بعضهم بعضاً، سواء بصفاتهم الإيجابية أو السلبية. ولن أخجل إذا ما صرّحت بأنها قد راحت تؤثّر علي بصفائها وعذوبتها وتحيلني إلى كائن يشبهها بعض الشبه من الداخل.

ولاغرو إذا ما زعمت بأنها جاءتني لتكون بمثابة عزاء أو تعويض مناسب عوّضته علي قوة الحدوث، أو طبيعة الأشياء، عن خسارة عظمى تكبدتُها في الآونة الأخيرة. وإنها واحدة من بضع خسارات جسيمة منيتُ بها خلال عمري كلّه. وقد جاءت (ن) في الوقت الملائم لتؤكّد صحة اعتقادي بأن الإنسان الطيب يظهر عند شدة الحاجة إليه تماماً.

أرجو منك، يا صديقتي، بل يا أصدق أصدقائي من الذكور والأناث، أن تأخذيها بالأحضان، وأن تكرميها أيما إكرام، بل أن تبالغي في إكرامها إلى أبعد حد ممكن.

ثم إني لأرجو منك أن تساعديها بكل مافي مقدورك من إمكانية على المساعدة، لأنها عاطلة عن العمل، ومتورطة في أزمة مادية ليست بالطفيفة. وليتك تجعلينها تشعر بأنك أختها الكبرى بالضبط، أختها الشبيهة بأم حنون رؤوم. فالإنسان بغير سمة الإخاء الصادق الودود لا يزيد عن كونه وحشاً من الوحوش الكاسرة.

أمّا آخر أخباري فهو أنني قد تجاوزت أزمة المرض الأخيرة العاتية، وانفكت معضلة احتباس السوائل التي عذبتني حتى العياء خلال الأيام الأربعين المنصرمة. ومع أن هذا الشفاء السعيد ليس نهائياً على ما أرجّح، فقد جاء بمثابة انفراج، أو بمثابة إجازة من اللعنة التي لاتستقيل بتاتاً، بل هي لاتهجع إلا على ندرةٍ وحسب.

مساء الأربعاء الموافق للثامن من تموز الجاري، وبعد ساعات قليلة من مغادرتي لعيادة الطبيب، مشيت بصحبة (ن. ي) اليانعة من حديقة تشرين حتى بيتنا.

وهذا حادث مفاجيء لي قبل سواي. فالمسافة لا تقل عن سبعة كيلو مترات وربما أكثر بقليل. وجدير بالتنويه إلى أن ذلك المسير ما كان له أن يتم لولا صديقتي التي شحنتني بالطاقة النفسية، أو بتلك القوة الداخلية التي تؤسس كل إنجاز، مهما يك نوعه. وفي صلب الحق أن صحبة (ن. ي) ممتعة جداً، ياغادة، وذلك لما يندرج في روح هذه المرأة من حنان وعذوبة وصدق.

ولعل من شأن هذا المسير الطويل نسبياً أن يؤكد ما فحواه أن الطبيب كان على حق حين وضّح لي أن القلب، على اعتلاله، لا يعرقل خروج السوائل من البدن بعد تناول المدرّات. ولهذا، فلا سبب للأزمة في رأيه سوى توتر نفسي يضغط على الجهاز العصبي فيجعله يتشنج ويحبس السوائل في مجاريها. فلا

بد من استرخاء، أي لابد لي من أن أضرب مآسي العالم كلها عرض الحائط. وهذا ما لا أستطيع بتاتاً.

والآن اسمحي لي أن أزعم بأنه لولا الظهور المفاجيء ل(ن) النقية كالندى، منذ زهاء شهرين، لأكّدت أن كل ماهو حقيقي أو حميم، غائب أو مفقود إلى الحد المطلق. إذن، ليتك توصينها بي خيراً، تماماً كما أوصيتك بها خيراً، فهي الكائن الوحيد القادر على أن يخفف عني وطأة الغموم والتوترات النفسية الخانقة. ولهذا فإنها تعني لي كثيراً، بل كثيراً جداً.

أما مقالك عن "تلك الأيام"، وهو المنشور في جريدة النور، فقد جاء مأهولاً بثلاث مزايا إيجابية: (١) إنه منصف تماماً، و(٢) ممتع جداً، و(٣) إخائي أو حميم وصادر عن عاطفة صادقة، بل قد يجوز لي أن أقول بأنه قد كتب بمحبة. ولهذا، فقد أنعشني كثيراً ولكنه مثلوب بمثلبة واضحة، ولعلها أن تكون مثلبته الوحيدة. وخلاصتها أنه وجيز جداً، فلا يغطي كتاباً من ثلاثة أجزاء. ومما هو محسوم عندي أن الجريدة نفسها هي التي فرضت عليك هاتيك المثلبة التي أحالته من مقال استباري إلى زاوية في صحيفة.

تحياتي إلى نورس ونور، وإلى كل من سألك عني، ولاسيما عبد الكريم الناعم وممدوح سكاف وعلاء عبد المولى. واسلميلي غادة يانعة مادمت على قيد الحياة، بل حتى إلى أبد الآبدين.

صديقك المشوق (لأن الشوق يهدأ باللقاء، أما الاشتياق فلا يهدأ بتاتاً)

يوسف سامي اليوسف

دمشق الساعة الخامسة من صبيحة يوم الجمعة،

بعد الفجر بقليل، العاشر من تموز ٢٠٠٩

الجواب

صديقي الأستاذ الغالي يوسف أبو الوليد،

مساء النور، النور الذي يغمرني هذه الليلة، والتي ينسكب بدرها على الكون بروح النور. إنه بدر منتصف شعبان، وأحسب أنك الآن ترنو إليه من ذروتك وهو يغدق الجمال و الصفاء على الكائنات. غير أنني لا أظن أن بدر دمشق المدينة، دمشق الصخب والضوضاء، والأدخنة، واللهاث، كبدر هذه القمم المتعانقة مع السماء، هنا، حيث أقف على واحدة منها، هنا حيث ينسكب بنوره الإلهي متأرجحاً على حرير غيمة ناعمة البياض معلقة على وجنة الجبل الذي أمسّد شعره الفضي بأناملي كما لو أنني عدت إلى طفولة غابرة في زمن غابر لحبورٍ في حنايا الوجود.

صدّقني، وليس مجازاً – أنه قريب وأسمعه يوشوشني: "اطلبي ماتشائين، فالسماء قريبة الآن، وهي بين يديك". في هذه اللحظة، أنا على قمة من قمم جبال مجبولة صخورها بتسبيح الكائنات، والبسطاء، ولامست معنى أن يسبح لله مافي السموات والأرض، ولقد فقهت تسبيحها، هنا تختزن هذه الصخور والأشجار تسبيح البسطاء، الفقراء، المتصوفة بالفطرة، وتحتزن توق الانسان إلى الأعالي عبر الدهور. هنا، أيقنت أكثر من أي وقت مضى ماذا قصد الرحابنة حين غنوا: "هون السما قريبة".

ها قد بدأ يعلو الآن عن الجبل الذي أتكيء عليه وهو يتهادى فوق أرجوحته البيضاء، ليغمر الجبال الثلاثة المتحاضنة، وينساب إلى الوديان السحيقة يغسل ماء ينابيعها الماسية المتراقصة بين الصخور التي تتلألأ كالدرر في حضرة الماء والنور.

هنا، حيث أقف الآن لأكتب هذه السطور. أجل أقف، ففي حضرة هذا البهاء لا أجرؤ على الجلوس بل أقف وروحي تسجد في برهة انخطاف لتتوحد مع كل شيء، مع صوت الشجر والتراب، وتَحاضن الصخور، ومع صوت الجنادب والدويبات والوحوش البعيدة والقريبة، صوت الماء الذي ينساب من كل ناحية ينبع مباحاً للشاربين زلالاً صافياً، السناجب التي تعاينك من بين الأغصان، فتدرك بذكائها الفطري أي كائن أنت، تقرؤك بعين خبرت لغة الوجود، تلقي عليك عيونها البريئة ترحاباً عاجلاً وتتابع مايسرت له بطمأنينة، هنا، أنت واحد في كلّ، وكلُ في واحد، جميل، أليف، أنيس، متناغم، لا أذى، ولاخوف، ولااستعلاء، ولا استصغار، أنت في قلب الكون، والقلب في قلبك، كلانا نذوب في نهر حليبي نوراني، هذا هو بدري الليلة. ولقد أدركت الآن علّة تلك القباب المتناثرة على أعلى هذه القمم مقاماتٍ لقديسن عاشوا في الجبال صياماً قياماً، وقيل عنهم مالايقدر عقلنا القاصر على استيعابه. فهم، والعناصر واحد، أصدقاء، يتواصلون، ويحفظون لبعضهم الود، في لغة نسيها الانسان، يتخاطبون ويتفاهمون مع التراب والغيم والمطر والنهر والنجم والحجر والخضرة، ويستجيبون لنداء العناصر، فتردّ لهم العرفان عرفاناً، ويقولون للشيء:"كن فيكون" بلا وساطة ولا عناء. هنا، تدرك الصلة العميقة بين النبي والشاعر، والمتصوف، فأولياء هذه القمم كلهم شعراء ومتصوفة، لم تحفظهم الدفاتر، وحيطان المكتبات، بل حفظت آثارهم حافظة أهل هذه الجبال وصخورها وأشجارها. هنا، يتساءل المرء كم هو صعب أن تنجب المدينة الآن شاعراً حقيقياً، هنا تدرك حجم البؤس، وفداحة الكثافة التي تخنق إنسان المدينة وتبعده عن فطرته، وطفولته، وذاته،.

هنا، أرفع صوتي بلغة لا أرفعها، مجرد صوت أشارك تنادم الجندب والضفدع والشحرور وزيز الحقل، وجرذ الأرض، وابن آوى، وحفيف أوراق الشجر، وهرير الكلاب ومواء القطط، وسقسقة الينابيع، وهمسات النسيم،في غمرة هذا النور أدرك ماذا يعني أن الأرض للكل، للجميع بنفس الأحقية وبعدالة التوزيع والمشيئة والكفاية.

على مقربة من هذه الجبال البكر، أو على جبالٍ كانت لها ذات البكورة، على مسافة أكثر من نصف ساعة بقليل تقطعها السيارة تصطخب الوديان بمهرجانات (الوادي والقلعة) التي لا أستطيبها بتاتاً، والفرق كبير بين هنا وهناك، حيث الرقص والغناء و افتعال الجمال والمتاجرة به واستثماره لصالح سوق السياحة.

هنا، لا أثر لسيارة نفطية، أو جلابية يخفي بياضها مازاده النفط على سواد روحِ صاحبها. هنا، لا أثر لجلابية بيضاء أو لحية محنّاةٍ بدم الخطيئة، لا جلباب ولا نقاب النفاق، فلا يزال أهل هذه الجنة البكر حريصين على صيانتها من دنس خطوٍ يغضِب طمأنينة المكان، بالرغم من فقرهم وبساطتهم، وحاجتهم، وبالرغم من طمع وجشع أهل المال الذين يتكالبون على شراء أمتار منها، فلا يجابَهون إلا بالرفض، وخصوصاً لأصحاب السيارات ذات النمر النفطية، وآمل أن يصمدوا أمام إغراء تلك الأموال الطاغية، وأن يصبروا على لسعات الفقر. لأنها هي الجنة ذاتها.

صديقي، كنتُ قد زرتها منذ أكثر من سنتين على ما أظن، وقد وعدتك أن أرسل لك ما كتبته آنئذ، لكنك يا سيدي تعرف ما حلّ بي، ومن انسلخ مني، وها أنا ذي الآن زرتها ثانية استجابة لإلحاح شقيقتي. كم أتمنى لو يتسنى لك أن ترى البدر في ليلة قمراء صافية من هنا حيث أقف، غير أن الطريق إليها مرهق، وهو من أعقد وأوعر طرقات سوريا.

مع رسالتي هذه مجموعة «أنين القاع» التي أعلنت معظم الصحف عن صدورها، وكتب عنها مقال يغالي في المديح، بقلم كاتبة لا أعرفها تدعى (سمر مهنا) في صحيفة تشرين.

وقد استشهد الجميع بكلمتك النقدية التي على الغلاف.

فأشكرك كل الشكر.

صديقتك المخلصة غادة اليوسف

دريكيش،

الخميس في ١٥/ شعبان/ الموافق ٧/ آب ٢٠٠٩

الرسالة (٢٥)

عزيزتي غادة

طابت أوقاتك بكل خير.

لقد سررت أيما سرور بصدور "أنين القاع" الذي تسلّمت منه نسخة، وأتمنى أن تواظبي على ممارسة هذا الفعل الشريف، أعني فعل التأليف والنشر، دون أن يصيبك الملل.

عزيزتي،

لست بقادر على أن أكتب رسالة مطولة في هذا الظرف العصيب الذي أعايشه في هذه الأيام القاسية، أعني ظرف المرض الذي أخذ يفتك بي منذ بداية آب الجاري، فيجلدني ليلاً ونهاراً دون أية رحمة. فأنا لا أمارس الثؤباء وكفى، ولا أقضي النهار أكابد السأما، كما اعتدت أن أقول، بل إنني أقاسي أوجاعاً شديدة في صدري لم يستطع الطب حتى أن يخفف من وطاتها وحدّة همجيتها. فالقلب مصاب باعتلال في عضلته نفسها، مما يجعل نهوضه بوظيفته أمراً غير متيسر إلا على نحو منقوص. وفي هذه الأزمة العصيبة فإنني أتذكّرك كثيراً وأتمنى لو أنك قريبة عسى أن تخففي عني بعض مابي من ألم وضيق. وأعدك بأنني إذا ما شفيت سوف أجيء إلى حمص لزيارتكم خلال تشرين الأول، يوم تنخفض الحرارة وتصير مما يطاق.

وعلى أية حال هاتان نسختان من "مقالات صوفية"، أرجو تسليم واحدة منها للسيد عبد الكريم الناعم، والثانية للسيد ممدوح سكاف فهما شاعران محترمان ويستحقان أن أخصهما بشيء من كتبي.

واسلمي لأبي الوليد

وتحياتي إلى نورس ونور

دمشق في ٢٠٠٩/٨/٢٥

الجـواب

صديقي العزيز أبو الوليد،

لك أعذب وألطف وأدفأ تحية في هذا المساء الحمصي القارس البرد. وأرجو أن تكون في أحسن حال من الصحة والعافية والطمأنينة. ولقد أسعدتني المكالمة الهاتفية الأخيرة، حين وصلني صوتك مفعماً بالحيوية، متدفقاً بالبهجة، فلعل لديك ما من شأنه أن يعدّل ما يأتي به تشرين، وما تحمل سماؤه الربداء من أسى يحاصر الروح فيبكيها وهو يفتح برياحه الباردة مزاليج الشتاء، وبوابات الوحشة. فلحمص يا صديقي تشرينها المختلف، ولسمائها ومواقيتها عبث يبعثر الملفات الهاجعة. المطوية كجراحٍ مطمورة في عمق الأوردة.

أعرف أنني تأخرت كثيراً في كتابة هذه الرسالة، وليس ما يبرر لي ذلك سوى انشغالات تافهة تسرق الوقت، ولا أعلم كيف! أو كأن الزمن ككل شيء صار يمضي بمجانية، وبسرعة تشبه أنفاسنا المتلاحقة ونحن نركض خلف اللاشيء، ونعلم أنه سيأتي وقت نندم على ما ضيّعنا، إذ لاشيء في الدنيا يعدل أن يفوز المرء بكلمة ود صادقة، أو صلة تبث فينا دفقةً من دفء العلاقة الانسانية الصافية.

ولكن؟؟؟ ظلال عتب تعبرني، فلماذا لم ترسل لي ولا رسالة خلال هذه المدة التي تجاوزت الشهرين؟ أم أنك تكتفي بالرد على رسائلي!؟ وماذا لو كسرت هذا النظام؟ فأنت على الأقل سيد وقتك. ولا يهم إن كانت رسالتك طويلة أم قصيرة. المهم أن لاتنقطع. ألم يقل ذات يوم الشاعر عمر أبو ريشة: «يكتفي الزنبق في صحرائه بندى الفجر وأنسام المغيب؟؟

أنتظر بشوق صدور الجزء الرابع من «تلك الأيام». أما بالنسبة لي فإن غواية الشعر التي وأدتها من سنين، عادت وانتعشت وبُعثت، فتلبّستني ثانية.

وقد كتبت مجدداً مجموعة من القصائد نشرت بعضها في جريدة العروبة الحمصية وبعضها في جريدة «الأسبوع الأدبي»، مما فاجأ من يعرفني قاصة وحسب لدرجة أن الشاعر ممدوح سكاف اقترح أن ألقي بعضاً من قصائدي في أحد أنشطة اتحاد الكتاب الفرعي في حمص في نشاط تشرين، وقد فعلت بعد تردد، وذلك لأنها المرة الأولى التي ألقي فيها شعراً على منبر رسمي على غير ما يحصل في القصة التي أرى فيها نفسي فارسة الحلبة. والأهم من هذا كله أن ما ألقيت من قصائد لاقى استحساناً.. وصدى طيباً لدى الحضور، وكنت وقتئذٍ ألقي مع مجموعة من الأسماء الهامة من الشعراء.

أرفق رسالتي هذه واحدة من القصائد التي ألقيتها، وقد كتبتها بمناسبة، أو على أثر اتصال هاتفي مع الشاعر الحمصي علاء الدين عبد المولى(*) لأطمئن عليه وعلى زوجته الشابة المريضة الشاعرة سوسن السباعي(*)، التي تعاني كثيراً من مرض خبيث يفتك بصباها وبهناءة عمرهما، وهو يعاني معاناتها ويكابد مكابدتها، حيث لم يقبل أن يرد على هاتفي، بل اكتفى برسالة نصّية على الجوال قال لي فيها: «لم أعد قادراً على الرد، رأسي يكاد ينفجر، لقد تعبنا أكثر مما نستحق، فاعذريني».

حينئذ، أعادت لي كلماته تلك كل الأوجاع والتعب والقلق والرجاء المغمس باليأس، وكل تداعيات مرحلة كابدتها أثناء مرض ابنتي ميديا قبل أن ترحل، تداعيات جحيم لاينتهي إلا بجحيم آخر سرمدي. فكتبت قصيدة بعنوان «على أهبة من وداع» أرفقها برسالتي هذه ، وأرجو أن تعجبك.

(*) محمد علاء الدين عبد المولى: شاعر وناقد وباحث في الأدب من سورية – حمص. له العديد من الدواوين الشعرية والمؤلفات النقدية.

(*) سوسن السباعي: شاعرة سورية من حمص. لها دواوين شعرية أخرها «بأناقة لا تغتفر» زوجة الشاعر محمد علاء الدين عبد المولى وقد توفيت في زهوة شبابها بعد معاناة مريرة من المرض.

عبد الكريم الناعم يحييك، ويرسل لك نسخة من ديوانه الجديد «مهرجان الأبواب». كما أن الشاعر ممدوح سكاف يسلم عليك ويتمنى لو أنه يقرأ "تلك الأيام"، وذلك بعد أن خضنا معاً في حديث عن المكان والارتباط، بل الالتصاق به، والحنين إليه في القصة والرواية والسيرة الذاتية.

وسوف أعيره النسخة التي بحوزتي إن لم تتوفر لديك نسخة له.

بالنسبة لقصيدتي المرفقة «على أهبة من وداع» فلقد ألقيتها وقد كنت أود أن أشير إلى أنها مهداة إلى علاء الدين عبد المولى في لحظة وجعه، ولكنني أحجمت عن ذلك في اللحظة الأخيرة، كي لا أزيد في وجعه وجعاً.

هذه هي القصيدة

على أهبةٍ منْ وداع

تعبتَ؟!
احتَمِلْ
إذا ما الضَّنا منْ ضناكَ اشتكَى
وأنت نبيٌّ اصطبارٍ
ودربُ اختبارٍ
على صبركَ اللهُ كانَ اتّكا
وسرُّ ارتحالٍ
إلى ذروةٍ منْ بُكا

فكنْ في جحيم انصهارٍ
لهيباً يشقُّ سوادَ السّما
وأتلقْ أنْجما
واحتَرِقْ

وانصـهِرْ
وانسَكِبْ وانـهمرْ
بَلْسما
وامتَشِقْ
مِنْ على شرفةٍ منْ سفرْ
لفحةً، منْ أنينِ الوترْ
بوجهِ القضا المنتَظَرْ
وارتَحِلْ شـهقةً
وانـحَفِرْ بصمةً
في ضمير القدرْ
واحتفِلْ
خفقةً منْ وداعْ
وارتجِلْ رقصةًًًً
منْ جنونِ الجناحْ
قد تصلْ
للّذي لمْ يصلْهُ الشراعْ
وقد مزّقتْهُ الرياحْ
فاشتعلْ
وأتلقْ أنجما
واحترقْ
وانصـهرْ
وانـهمرْ بلسما
وامتشقْ لفحـةً
وارتحلْ شـهقةً
وانحفرْ بصمـةً

واحتفلْ خفقةً
وارتجلْ رقصةً
منْ جنونِ الجناحْ
مريرٌ هو الرقصُ فوقَ الجراحْ
على حزن أغلى العيون
لتلقِ السّلامْ
وأنت على أهبةٍ من وداعْ

أوانَ الحمامةُ تنأى
ويقفِرُ عشُّ اليمامْ
ويذبلُ وردُ
ويشحبُ خدُّ الصباح الرّهيفْ
ويرحلُ حضنُ الحنانِ الشّفيفْ
ويُزهرُ وردُ الأسى اللا يُحَدُّ
ضريرٌ هو الوقتُ يغدو
نهارُكَ ليلٌ
وليلك سهدُ
وأنت على أهبةٍ منْ وداعْ
ادّخِرْ، ما تمكّنْتَ زادَ الغيابْ
لك العارياتُ الليالي وعدُ
تزوّدْ قُبيلَ الشّتاءِ
بما يقتضيهِ صقيعٌ وبردُ
إذا راحَ يهمي الحنينُ عليكْ
ستصحو غدا
ولستَ بدارٍ معاني الرّدى

تمدُّ اشتياقاً يديكْ
ينابيعُ طلٍّ على راحتيكْ
تلوبُ على مستغيثِ الندى
فيُقصيكَ فَقْدٌ
ويُدنيكَ فَقْدُ ٌ
سَتَعْرى يداكَ عطاشى الصّدى

تعبتَ؟!
احتمِلْ
ذراعاك حضنُ الحياة
وصدرُكَ بيتُ الفضا
فأيُّ صليبٍ يليقُ،
بهذا المدى؟!!..

* * *

ربما حين أحقق صبوتي بطبع ديوان شعري/متواضع/ قد أنوّه في بداية القصيدة: أنها مهداة إلى علاء الدين عبد المولى "الشاعر في محنته" وأتمنى من كل قلبي أن تشفى زوجته الشابة الرائعة الشاعرة سوسن السباعي، كما أرجو أن يمدّه الله بالصبر والاحتمال. فإنه شاب رائع وشاعر مجيد. وكم أتمنى أن تعجبك القصيدة.

بانتظار رسالتك، لك مني مودتي وتقديري

غادة اليوسف

حمص في ٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٩

الرسالة (٢٦)

عزيزتي غادة الطيبة جداً جداً.

تحياتي واحترامي، وأسعد الله أوقاتك بكل خير.

وصلتني رسالتك المؤرخة بتاريخ العشرين من تشرين الثاني (٢٠٠٩)، فابتهجت بها كثيراً، وأنت تعلمين أنني أبتهج بكل ما يأتي إلي من قبلك. ولكنني أعترض على أنك عاتبة علي لأنني لم أرسل لك رسالة خلال الفترة الأخيرة التي تزيد عن شهرين أو ثلاثة. وفي الحق أنني أرسلت لك رسالة خلال الشهر الماضي مع ابني وليد الذي سافر إلى حمص في عمل للاونروا ولكنه تقاعس ولم يتصل بكم لاستلامها، وأعادها إلي فمزقتها وتخلصت منها.

بيد أن أهم مافي الأمر هو هذا: لقد تدهورت صحتي ابتداءً من آب الأخير. فقد كشف ايكو القلب أن نسبة القصور في التاجي هي ثلاثة من أربعة، أي ٧٥/ وهذا يعني أن قلبي يعمل بربع طاقته وحسب، وأنه قد خسر الأرباع الثلاثة المتبقية، وربما إلى الأبد. وأنا الآن أعيش في حال من اليأس والإحباط والعزوف عن الدنيا لم أعرف لها مثيلاً من قبل.لقد كان لدي حد مقبول من الاضطراب والاستتباب النسبيين اللذين يعدل كل منهما الآخر. أما الآن فلم يبق سوى الاضطراب وحده. فها أنا ذا أرجو الله صبحاً ومساءً أن يخرجني من هذه الدنيا التي لا لزوم لها بتاتاً. صدقيني أن لهاثي قلما يتوقف.

أعاني من احتباس السوائل في البدن، كما أقاسي من الأرق. صدقيني أن بضع ليال متلاحقة مرت علي دون أن أنام ساعة واحدة، ولقد خسرت شهيتي للطعام، فأنا لا آكل سوى ربع الكمية التي كنت أتناولها قبل آب الأخير. ولا يعرف الطبيب نفسه ماذا يفعل إزاء هذه الحال البائسة.

كان الله في عون علاء الدين عبد المولى. أرجو أن تبلغيه تحياتي وتعاطفي معه إلى آخر مدى. وأرجو لزوجته شفاء ولو بمعجزة.

أما قصيدتك التي وصلتني فهي مثل ما ينشر من شعر هذه الآونة، إن لم تكن أحسن من الكثير منه. ولكنني أود أن أعاود التشديد والتنبيه على أن موهبتك قد لاتتجلى على نحو متميز إلا في ذلك النوع من القصص التي تتناول الفقراء والمسحوقين والأطفال المشردين. فقد لاحظت أن عاطفة الأمومة عندك شديدة القوة وصافية العاطفة، ومن بين هذه العاطفة يمكن لأدب جيد أن ينبثق ويتخارج. ثقي تماماً بأن الصدق والنبل هما كل شيء.

في رأيي أن الأدب الأصيل، أدب الدرجة الممتازة(المعري وشكسبير، مثلاً) هو ذاك الذي يتحسس آلام البشر ويتلمس الشرور المتفشية في العالم من قطبه الشمالي إلى قطبه الجنوبي. فالضمير الإنساني لابد له من أن يهتز أو يستنفر جملة محتوياته حين يرى الشر يسفع هذه الدنيا بأسرها، أو أقله شطراً منها، مع أنها قد لاتزيد عن كونها رغوة سريعة الزوال. وهذا يعني أن الأساس الأخلاقي للفن هو من النصوع والرسوخ بحيث لاينكره إلا معتوه.

فيكتور هوغو وروايته "البؤساء" نموذجاً لجهة اهتمامها بالشر، ولذا فأنا أصنفها في فصيلة الأدب الزردشتي، إن صحت مثل هذه العبارة. فمما هو معلوم أن زردشت الجليل قد أهاب بكل إنسان كي يصطف داخل خندق الخير ضد خندق الشر في هذه المعركة السرمدية الدائرة بين القوتين المتنازعتين إلى الأبد، قوة الرحمن وقوة الشيطان.

ولقد كان ذلك الرجل طليعياً أو سباقاً إلى هذا الموقف اللبابي أو الجوهري ذي الأساس الأخلاقي الأصيل، فهو ينتسب إلى القرن السابع قبل الميلاد.

أما هوغو فقد وصل إلى الفكرة نفسها من خلال الموروث المسيحي النبيل الذي كان يغمس أوروبا كلها. ولكنه وصل إلى إنسانيته هذه بفضل مصدر آخر، وهو عشقه العميق لامرأة عظيمة اسمها جولييت دورين، وهي من استطاعت أن تفجر عبقريته حتى جاء بوصفه أعظم كاتب أدبي في تاريخ

فرنسا كله. وسبق لسيدة أخرى اسمها مدام ريكامييه أن فجرت عبقرية شاتو بريان، فوضع واحداً من أجود الكتب التي صنفها الجنس البشري، وهو «مذكرات مما وراء القبر».

ربما حدثتك عن رواية «البؤساء» وعن بطلها جان فالجان، الشبيه بالسيد المسيح، في رسالة قادمة، وذلك لأبين وجه العظمة في الرواية والبطل معاً. ولعل في ميسوري أن أصرّح بأنه ما من إنجاز أدبي عظيم في تاريخ أوروبا بأسرها، ابتداء من دانتي وانتهاء بإليوت، إلا وهو وثيق الصلة بالمسيحية والمسيح. ويصح هذا المذهب بالدرجة الأولى على المسرحيات الأربع الأقوى في تراث شكسبير، فلقد نشرت مقالة عن «هاملت» في العدد السادس والستين من مجلة «الحياة المسرحية» وبينت فيه أن شخصية هاملت يتعذر فهمها على خير وجه ممكن إلا في السياق المسيحي، أو إلا على ضوء شخصية السيد المسيح

أما عن الشعر، ففي الحق أن هذا الشعر الذي ينشر في هذه الأيام الراهنة قلما يتحسس ألماً أو يتلمس شراً أو شقاء. وبذلك، فإن معظمه ليس سوى زبد أو رغوة هو الآخر. ولهذا، فإنه لايتمتع بأية قيمة جليلة من شأنها أن ترسخه على المرتبة الأولى. أما داؤه الحقيقي فهو التجريد الأجرد أو الأبكم. إنه لايقول أيما شيئ ذي بال إلا لماماً. وبسبب هذه المثلبة فإنه لا يعلق في الذهن، أو لعله أن يفعل ذلك على ندرة وحسب.

ولهذا كله، أرجو أن تكتشفي الموضع الحقيقي الذي يمكن لموهبتك أن تتجلى فيه.

وربما كانت الرواية، ولاسيما الرواية القصيرة هي خير مجلى لطاقاتك الغنية التي تتدفق كالسيل في معظم الأحيان.

حاولي أن تكتبي رواية قصيرة يتراوح عدد صفحاتها بين مائة ومائة وثلاثين صفحة من القطع المتوسط. ولئن لم تنجحي فإنك لن تكوني قد خسرت كثيراً أو قليلاً. أجل، حاولي...حاولي، ولا تتهيبي، فقلمك خلق للرواية.

وإن لك من مودتي ما تعجز اللغة عن تخريجه لفرط غزارته وشدة زخمه.

أنا لا أملك نسخة من كتاب "تلك الأيام" وليس لدي أحد لأرسله لدار كنعان ليأتيني بنسخة أرسلها للسيد ممدوح سكاف. فالجميع مشغولون، وأنا لا أستطيع السير، ولا أستطيع صعود الدرج بخاصة. ولقد هبط وزني كثيراً حتى صار دون السبعين كيلو غراماً. وعندما استحميت اليوم الأحد ظهراً، تأملت جسمي فوجدته كاالحطبة اليابسة.

إن الكتاب موجود بوفرة في دار كنعان، وسعره ليس بالباهظ، فهو ثمانمائة ليرة سورية، أو هكذا كان منذ مدة يسيرة. وأما الجزء الرابع من الكتاب فقد أنجزته تماماً ونضدته وصار جاهزاً للطباعة. ولكن الناشر يتذرع دوماً بالحاجة إلى المال. فقد أعدت كتابة الجزء الأول ونضدته وسلمته نسخة حاسوبية عنه منذ سنة أو أكثر. ولكنه لم ينشره حتى الآن، متذرعاً بالذريعة إياها، أعني النقص في السيولة المالية.

أنت تذكرين سميرة أخت علي الشهابي. زوجها علي الكفري هو ابن خالي. وقد أصيب بسرطان المثانة، فذهبت لزيارته في بيته الذي هو بيت علي الشهابي القديم في شارع فلسطين. وهناك أخبروني أن هوازن، زوجة علي إياه، قد أنجبت طفلاً ذكراً، وذكروا لي اسمه ولكنني نسيته، وأظن أنه إياس. كان ذلك قبل أن تشتد على وطأة المرض في الشهر الجاري.

اشكري الناعم بالنيابة عني من أجل ديوانه الذي أهداني نسخة من نسخه. وبلغيه تحياتي، هو وزوجته منى، وكذلك بلغي أخاه أبا عبد الله (حسام) تحياتي وأحيي ممدوح سكاف أيضاً. وأرجو أن يرسل لي شيئاً من شعره. تحياتي إلى نورس ونور.

أرجو أن تصادفكم رسالتي هذه وأنتم بألف خير. تحياتي لكم وللجميع.

المخلص يوسف سامي اليوسف

دمشق في ٢٢/١١/٢٠٠٩

الرسالة (٢٧)

السيدة غادة اليوسف العزيزة الغالية.

تحية فحواها التقدير والاكرام والاحترام.

لعله فعل من تلك الأفعال التي يحبّذها العقل كثيراً أن أكتب إليك رسالة بمناسبة حلول السنة العاشرة من القرن الحادي والعشرين. يا إلهي ! أبهذه السرعة الشبيهة بسرعة البرق انصرم العقد الأول من هذا القرن الذي أشعر وكأنه قد بدأ للتو؟

ماهذا، يا غادة؟ إن الزمن ينزلق من بين أصابعنا دون أن نتمكن البتة من الهيمنة على أية برهة، بغية إرغامها على التلبث ريثما نشبع منها ولو بعض الشبع. فالأيام تتجاوزنا، أو تجرفنا جرفاً، دون رحمة أو ملاطفة، بل هي تجيء على نحو عشوائي حتى لكأنها الفطور والأعشاب البرية التي تنبت على المزابل بغزارة تشبه فورة الماء في المرجل. بيد أنها سرعان ما تتلاشى أو تتوارى، كأنما هي تسقط في بئر بغير قرار، بئر لايشبع حتى لو قذفنا بجميع المجرات إلى جوفه العديم الجدران. وعندئذ لابد للمرء – إن كان مرهف الإحساس – من مقاساة الشعور بأن الأشياء كلها متحجرة في عالم كابوسي خانق، وبأن ما يسوّغ مثول الكائنات أمام الذهن المتذهن اليقظ (أو لنقُلْ: حي بن يقظان) لا وجود له بتاتاً.

ولعل مما لايخفى على أحد أن ممحاة الزمن وراءنا على الدوام. وهي تمحو كل ما نفعل أو تزيله من الوجود، ولكن بكل سهولة ويسر. أجل، إن ما فعلناه بمنتهى العسر، يزول بمنتهى اليسر (معركة كاناي، معركة حطين، معركة المارن......الخ) تخيلي، ياغادة، حتى أولادنا الذين أنفقنا أعمارنا في خدمتهم وتنشئتهم سوف يشيخون ويضمحلون، ويخضعون للفناء الأبدي. فنحن نعيش

مأساة تنكرت في وهمنا على هيئة مقبولة، وذلك لأنها بغير دليل قط. ألا يفضل على الموت والفناء عيشاً في قفص، أو في كهف، أو حتى على مزبلة ؟

لقد سئمتُ لكثرة ما حدّثتك عن مرضي الآخذ بالافتحال يوماً عن يوم، ولا سيما منذ بداية تشرين الثاني الأخير. وأحسب أنني أضجرتك بهذا الحديث إلى حد أسرف في التطرف حتى ماعاد في ميسورك أن تتحمليه إلا على مضض. ولكنني لا أملك أن أتجاهل أوضاعي وأوجاعي التي أقارفها كل يوم مكرهاً، ودون أن يكون لي أي خيار آخر. فلا غلو إذا ما زعمت بأن حياتي راكدة مثل مياه المستنقعات الآسنة. وفضلاً عن ذلك فإنني تتعاورني الأحوال المتباينة، كما السجين تتعاوره الجلاوزة والجلادون.

فأنا خلال الشهرين الأخيرين لا أنام طوال الليل، اللهم إلا لسويعة، أو لهنيهة وجيزة، أنالها بالصدفة في بعض الليالي فقط فأشعر بلذة لا تبذ حقاً، تمضي ليلتي وأنا أنتظر الفجر وبزوغ الشمس بقلق وتوتر بينما ينام الناس جميعاً، تغمرهم سكينة بقرية هانئة عميقة تشبه الغيبوبة. وهي ما أغبطهم لأجلها، وأتمنى أن أنال ولو نتفة منها. ولكن ذلك لايجديني إلا إذا التجأت إلى المنومات ذات العيار الباهظ، وهي عقاقير من شأنها أن تنزل بالقلب أذى ليس بالطفيف. ومع ذلك، فإنني ألجأ إلى تلك الأدوات أحياناً لكي أكسر حدة الأرق وبؤس اليقظة الطويلة المضنية. وبينما أكابد الوحدة في غرفتي، وكذلك حصار الليل الخانق فإنني كثيراً ما أشبه نفسي ببرومثيوس المشدود إلى صخرة في القفقاس، بينما يلتهم أحد النسور كبده باستمرار ودون رأفة أو شفقة. وكذلك، فإنني كثيراً ما أردد قولاً لامرؤ القيس: «فلو أن نوماً يُشترى لاشتريته». بل لقد غيرت هذا الشطر فجعلته هكذا: «فلو أن موتاً يشترى لاشتريته». ومما هو ناصع (مؤسف ؟) أن الموت والحب والصداقة حاجات لا ترضخ لنواميس الأسواق بتاتاً.

ولكنني، مع ذلك كله، مازلت مغرماً بمشاهدة الأخبار على شاشة التلفاز، وكذلك النشرة الجوية، أسمعها من الفضائية السورية لأعرف أخبار المطر القادم وكمية المطر الذي سقط على الأرض بالفعل.

وأياً ما كان جوهر الحال، أود أن أنقل الحديث من هذا الموضوع البائس إلى موضوع آخر قد يهم الكتاب جميعاً. فأنا أقرأ أو أتصفح الكثير مما يهدى إلي، بين الفينة والأخرى، من المجموعات القصصية والشعرية والروايات والدراسات النقدية. والانسان حين يطالع كتاباً أو يتصفحه، يشكّل لديه انطباع أو رأي حول ذلك الكتاب، وبنهج تلقائي أو آلي هذا يعني أن ما أريد الحديث عنه الآن هو مستوى الكتابة الراهنة، أو حقيقتها وما هي عليه في واقع الحال. وبداهة، ليس هذا بالموضوع الجديد وذلك لأنه محل إهتمام الكتاب منذ آلاف السنين.

لست أعرف من أهل هذه الأيام البالية من يجيد التعبير عن الوجدان ومحتوياته الثرية العارمة، وبخاصة وجدان الغرام، وعلى نحو أخص ذلك الهيام الصبوي، هو ماقد عشته أنا بالفعل، - خمسة وخمسين سنة. أو أكثر. إنني لأعرف من يتقن تخريج هذه الفحوى بلغة مدمّثة وثرية بالعنصر الشاعري اللون، أو بذلك الضرب من الخيال الذي يسع المرء أن يصفه بصفة الخيال الموحي أو الملهم، وهو القوة التي قد تجعل من النص شيئاً مؤنساً، بل يشع أنساً، في عالم موحش مرير. وهو ما يملك القدرة على استبطان النضارة الراخمة في كل شيء.

فحين يقرأ المرء رواية لكاتب من هذا الزمن السوقي، فإنه يشعر، في كثير من الأحيان، بأن مافيها من غرام، بل حتى من محتوى، أياً كان نوعه، لاينال سوى تعبير حسي ضحل، وتعوزه أصالة العمق وحرارة الدم الطازج المعافى، حتى لكأن الاكتهال قد التهم نضارة النفس وينعها الذي هو ينبوع الوجود البشري بأسره، بل حتى لكأن العالم كلّه قد رُدّ إلى أرذل العمر.

وفي بعض الأحيان يتبدى الأسلوب وهو يتكلف التعبير عن الجوانية وأصالتها وزخم فحواها، ولكن في غير طائل. وليس مما هو نادر أن تجيء لغة النص وقد تدثّرت بالأريب من الحذلقة والتفيهق. فكأن الإرهاق أو خسران

العزيمة الجادة بادٍ على الغالبية العظمى من الكتّاب في هذه الآونة الرثّة، بل كأن ثمة تشيّخاً شاملاً، قد أخذ يجتاح الكائنات بأسرها، فلا ينجو من سطوته سوى النذر اليسير.

ويلوح لي أن قدر البشر هو الارتهان للمياومة المقزعة المبتذلة والواقع الموغل في ميله لاستضافة الخواء. ولا يخرج من هذا القفص، أو هذا القماط الحابس للدورة الدموية، إلى رحاب الوحي أو الإلهام الطليق السراح، سوى حفنة صغيرة من الأفراد الأفذاذ. فأولئك وحدهم يقدرون على الكتابة بأسلوب مخضل ومأهول بنازع الإيراق والازهرار، أو يفكرون بعمق يثير الدهشة والاعجاب.

فمنذ حفنة من الأيام طالعت كتاباً نفيساً لروجيه غارودي، المفكر الفرنسي المرموق، عنوانه "نحو حرب دينية" وخلاصة هذا الكتاب أن رأس المال، الذي وحّد السوق العالمية، قد جرد الحياة من المعنى فصارت بغير لون ولا طعم ولا رائحة. ولهذا، فقد صار واجباً على النخبة، أو على النفوس المطهمة الأصيلة، أن تنشيء خلايا تشبه الخلايا الحزبية، مهمتها بذل الجهود الكبيرة من أجل استرداد المعنى المفقود، أي لكي تستعيد الحياة نكهتها التي كانت لها قبل جيل واحد فقط. وهذا يعني أن أصدقاء المعنى ينبغي أن يشنوا حرباً مقدسة ضد السوق والسلعة ورأس المال. وبذلك يكون المعنى قد صار الاسم الآخر للإله، وأن المال هو الاسم الآخر للشيطان. إنه الصراع بين الخير والشر، وإنه استنفار لكل إنسان وحثّه على الانحياز إلى خندق الخير ضد خندق الشر، أي إلى النور ضد الظلام.وهذا بالضبط ما فعله زردشت في القرن السابع قبل الميلاد. أليست هذه فكرة رائعة من شأنها أن تثير الدهشة والإعجاب، حتى وإن كانت لاتقبل التنفيذ، يا غادة، يا من يجب عليها أن تحاور أعماقي الرابضة في غور سحيق ؟

في قناعتي أن الخيال الملهم، والقادر على إنتاج أسلوب مترع بالأنساغ الحية، هو تعبير عن رفض الروح النبيل للقبول بالمياومة ومباذلها وضيق ساحتها الجرداء، بل لكل ما يأهلها من عوز وافتقار إلى كل ماهو ذو قيمة أو جداء. كما أن العالم الداخلي زاخر بالقوى الملجومة أو المشكومة بألف شكيمة

وشكيمة. وهي تموج وتفور وتزبد وترغي في قاع النفس، وتظهر أحياناً على هيئة أمراض جسمية، كما تظهر على هيئة أمراض نفسية في أحيان أخرى.

ولكنها قوى يلتغم في بنيتها شوق متأجج إلى سلام دائم ورائق، وكذلك شغف لصنف من أصناف الراحة الفردوسية التي لاوجود لها على الأرض، والتي لا أحسبها إلا عشقاً من ذلك النمط الذي لاينشأ إلا بين الأبرار والحور العين في أعالي الجنان. ولست لأبالغ إذا ما زعمت بأن هذا العالم الداخلي أغنى بكثير من العالم الخارجي الذي لايتبدى أمام بصري إلا بوصفه مريضاً بداء عضال لا شفاء له آخر الدهر. وعندي أن اكتشاف الفحوى الثر لهذا العالم الداخلي لايقوى عليه إلا الأقوياء، وهم المزودون بالخيال الملهم أولاً، خيال الزكانة والحدس الغنائي أو الوجداني الرهيف، وهو ما يفتقر إليه عصرنا الراهن، أقصد عصر العلم والصناعة والمال. فمما هو مؤسف حقاً أن الكاتب الأدبي لايملك القدرة على تخريج هذه الثروات الباطنية – اللهم إلا نتفاً ضئيلة طفيفة الشأن – مع أنها مخزونة في جوفه بالضبط.

ومما هو في الصميم من مذهبي أن حارس الإلهي ليس الكاهن، بل الفنان، ولا سيما الكاتب الأدبي الذي لاوظيفة له قبل تصوير الروح في صراعها ضد المادة، أو ضد الشر، سيان. وهذا الصراع في نظري هو أسمى أنماط الحب أو الحنين إلى البراءة المفقودة إلى الأبد في عالم ساقط إلى الأبد. وحتى حين يطرح الكاتب أسئلة بغير أجوبة، إلا ماكان تخميناً فقط، أو حين يصرّح بإيمانه الجازم بأنه ما من حقيقة سوى الموت في عالم عبثي أو خلائي، فإنه يبقى ضمن مجال التنقيب في فسحة الإلهي الصوفي ذي الطبيعة الغبشية شبيهة بلون الجو في الفترة الفاصلة بين الفجر وبزوغ الشمس.

وعلى أية حال، فإن ما أود التشديد على أهميته هو فكرة تأسيسية فحواها أن غاية النص الأدبي النهائية هي إيقاظ الانسان على إنسانيته. وفي الحق أن معظم ما ينشر من أدب في الزمن الراهن لاينجز هذه الغاية ولا يؤدي هذه الوظيفة على خير وجه ممكن، وذلك لافتقاره إلى السمو في الشكل

والمضمون. ولهذا، فإن في ميسور المرء اليوم أن يتحدث عن استفحال الكميات واضمحلال الكيفيات في آن معاً.

ليتك، يا صديقتي، تبلغين الشاعر عبد الكريم الناعم بأنني قرأت بإمعان مجموعته الأخيرة، أعني «مهرجان الأبواب»، وأعجبت بها أيما إعجاب، ولا سيما بنزعتها الصوفية التي أحبها كثيراً، والتي يفتقر إليها عصرنا الموغل في توثين المادة على حساب الروح. ولا غلو إذا ما صرّحت بأن عبد الكريم الناعم يخوض، من خلال هذه النزعة الصوفية المتعالية فوق الدنيوي واليومي، حرباً ضد الشر المتفشي في هذا الزمان الطافح باللاعقلاني الذي جعل نسيج الحياة متهتكاً، مهلهلاً، بالياً. كما أنه يجسد حالة اللوبان على الدفء المفقود.

ففي قصيدة عنوانها «أدركني» ثمة حوار مطوّل بين الروح وبين الله الذي يجيء نوره كالطوفان، على حد عبارة القصيدة نفسها. ومن شأن هذا الحوار أن يذكّر المرء بقدماء الصوفيين وبكفاحهم من أجل البلوغ إلى رتبة القرب. ولهذا، يلوح لي أن كلمة «الأبواب» القائمة في العنوان هي إشارة إلى أبواب الحضرة العلوية حصراً.

أشعر بأن من واجبي أن أكتب شيئاً ما عن هذه المجموعة المتخصصة بموضوع هجرة الشعر العربي منذ زمن بعيد، والتي لايجوز أن تمر دون أن يعمد النقد إلى الإفصاح بصراحة عن أهميتها الاستثنائية في ساحة الابداع الراهن، وذلك على الرغم من أن الأسلوب السديمي الحاجب للرؤيا، والذي يسود معظم الشعر الحديث، يهيمن على شطر ليس بالطفيف من صفحاتها. ولكن العلاقة بيني وبين الصحف في هذه الأيام منبتّة منذ زمن بعيد، وذلك لأنني أقبع في المنزل معزولاً، لا أغادره بسبب المرض الذي تفاقم منذ زهاء شهرين. وليس لدي من أرسل معه أية مادة إلى أية صحيفة. وحين يعتزل المرء الساحة الثقافية، فإنه سرعان ما ينسى، ثم لايعود شيئاً ذا بال في نظر أهل الثقافة والكتابة.

إنني مضطر على الاحتجاب والعيش داخل سجن المنزل، وذلك بسبب المرض الذي أفقدني توازني. فلا أحسب أن دماغي يسعه أن ينجو من الآفات

المدمرة أو الأوجاع المبرحة. ولايمكن لأي شيء في الدنيا أن يخلص من فرقه الذي هو خصمه الملازم له إلى الأبد. فلئن كانت كلمة «السعادة» أو «المتعة» هي الكلمة الإيجابية الأولى في المعجم البشري كله، فإن كلمة "الوجع" (الألم، المرض، السقام....الخ) هي الكلمة السلبية الأولى في المعجم إياه، أو قل في جميع اللغات دون استثناء. أجل، إن الوجع، يا غادة، هو بيت القصيد في التجربة البشرية منذ بدايتها وحتى نهايتها القادمة حتماً.

يقيناً، أيتها الصديقة الطيبة، إن عبد الكريم الناعم في أعماله المتأخرة هو شاعر حقيقي فعلاً، أو لعله أن يكون شاعراً كبيراً في سوريا الراهنة. وتلكم سمة لم تكن متوفرة تماماً في كتاباته السالفة التي لاتخلو من فتور. ولو سمحت صحتي لكتبت دراسة مطوّلة، أو كتاباً ليس بالصغير من الناحية الكمية، تحت هذا العنوان: «مقدمة لعبد الكريم الناعم». ولكن طبع الأشياء قد حتم أن لايعود الانسان صالحاً لغير الزوال عندما يبلغ نهاية نضجه الخاص، تماماً كالثمرة التي تسقط عن الشجرة من تلقاء نفسها حين تكون قد استوت فبلغت الطور الذي ماعاد في ميسورها أن تتجاوزه إلى طور أعلى ولو قليلاً.

وبعيداً عن كل ذلك أود أن أخبرك أنه منذ مدة وجيزة زارني علي الشهابي، أو عادني بمناسبة مرضي الذي بات معروفاً في أوساط الأقرباء والأصدقاء. وفي تلك الزيارة أكد لي ولادة ابنه إياس، وذلك في واحد من أيام شهر نيسان الأخير.

أنصحك بالحصول على كتاب غارودي الآنف الذكر، وذلك ابتغاء مطالعته بإمعان. وهو صادر في دمشق عن دار عطية (١٩٩٤)؟

والطريف أنه يبذل جهداً ملموساً كي يؤكد على أن المسيحية كلها ديانة هندسها بولس وليس المسيح. وهو يتهم ذلك الرجل بأنه شوّه تلك الديانة وحرفها عن غايتها الانسانية النبيلة.

فإذا ما طالع المرء الكتاب بتؤدة شعر بأن ثقل الفكر الفرنسي، منذ روسو وفولتير، يدشنه أو يؤسسه.والفكر السياسي الفرنسي، الذي لايسبقه أي فكر سياسي في العالم الحديث، هو فكر فلسفي واجتماعي في آن واحد.

أنصح لك بالتخلي عن القصة القصيرة، رغم إبداعك في هذا الصنف الأدبي الصعب، وذلك لأن هذا الفن قد استُهلك لكثرة ما تداولته الأيدي. كما أنصح لك بالابتعاد عن الرواية الطويلة، وذلك لأن إنسان عصرنا، الذي قلما يطالع كتاباً، لاوقت لديه لمعايشة رواية طوال مدة لاتقل عن ثلاثة أيام. فلا يبقى هنالك سوى الرواية القصيرة المكثفة القادرة على أن تعرض محتوى كبيراً في لغة مقتصدة. ولهذا، فإن في ميسور المرء أن يقرأها خلال سهرة واحدة.

حبذا لو تكتبين رواية قصيرة عن ذلك الطور الذي مرت على انقضائه مدة لا تقل عن ربع قرن، يوم كانت الدنيا ما تزال بكراً، وحبذا لو تصفين عالم تلك الأيام، وهو ما شاهدت جذوره وهي تموت وتتيبس ببطء شديد دون أن تملكي أية قدرة على فعل أي شيء من أجل إنقاذه. ثم حبذا لو تصفين هذا العالم الفارغ الجديد الذي حل محل ذاك الطافح بالعذوبة والأصالة. ففي هذا العالم الجديد نضبت ينابيع الحب، فما عاد في ميسوره أن يلبي حاجة الانسان إلى الانتماء والولاء. فيبدو لي أن معظم أسانيد الوجود البشري (ولا سيما الله والوطن والأسرة)، قد طردت إلى هامش الحياة، ليحل محلها ذلك الجشع الإبليسي الذي لايبتغي شيئاً سوى المال وحده.

ولامرية في أن طغمة من الأنذال، لا وظيفة لها سوى ترميد ملاحة الربيع، هي التي أحالت الحياة إلى مرارة بعدما كانت حلاوة في أفواه معظم البشر. إذن، يسعك الحديث عن لاعقلانية الحياة ولا عقلانية الموت في آن واحد.

وعندي أن هذا الموضوع أهم بكثير من الموضوعات التقليدية، حتى وإن كانت تنتمي إلى «أدب القاع»، وذلك لأنه يعم جميع الناس ولا يخص الفقراء المسحوقين وحدهم. فما من أحد في هذا الزمان إلا وقد أنشبت الحياة الحديثة مخلبها في عنقه، بل حتى في أمعائه المباطنة لجسده.

أمّا خير أسلوب للكتابة في هذا الموضوع فهو الأسلوب الشاعري الشفاف الذي ينبث فيه حزن لطيف ليس بالموحش ولا الكئيب. وأرى – فيما قرأت لك من قصص ومقالات - أنك سيدة هذا الأسلوب.

فمثل هذه الرواية ينبغي أن يأهلها أسف شديد، ولكنه ناج من المرارة والحسرة الملتاعة، التي تصبغ الأغلب الأعم من كتاباتك. على أن لاتجيء منتسبة إلى الواقعية الشعثاء التي هي من سلالة النهار.

قرأت لك قصيدة منشورة في «الأسبوع الأدبي «عنوانها» على أهبة من وداع» تلك القصيدة التي كنت قد أطلعتني عليها في إحدى رسائلك السابقة، ومع أنها قصيدة جيدة، فإن المطلوب هو عمل يجيء بمثابة خروج من هذا الرهل السائد في عالم الكتابة اليوم، أي يحوز القدرة على الديمومة والانتشار بفضل مافيه من جودة، وأزعم أنك تملكين ما من شأنه أن يكون كذلك. وأُحَذرك من تشتيت موهبتك الفذة في أكثر من اتجاه، فلديك من القدرات والمكتنزات إن عرفت كيف تخرجينها كتابة، فإن من شأنها أن ترقى إلى سوية الأداب الخالدة.

وعلى أية حال، أرجو لك التوفيق في كل ما تفعلين الآن وما سوف تفعلين خلال المستقبل كله. ولكنني أحذرك أيضاً وكثيراً من النظرة الخارجية التي هي داء كبيراً من أدواء الأدب في كل زمان ومكان.

في رسالتك الخامسة عشرة (تشرين الثاني)، ٢٠٠٩) صرّحتِ بأنك عاتبة عليّ لأنني لا أبادرك بإرسال الرسائل، ولكنك تنسين واجبك تجاهي، أو لعلك تتقاعسين عن أدائه. فأنت لم تفتحي لي مكالمة بغية التهنئة بأي من العيدين الأخيرين أو الخاصين بالعام الذي انصرم للتو. ومع ذلك، فأنا قانع بأنك لم تفعلي ذلك عن سوء في الطبع، كما أنك لا تزمعين جفوةً أو تحللاً من هذه الصلة الانسانية التي بيننا. وربما لاوجود لأي سبب لهذا التقاعس سوى الانهماك في المياومة ومشاغلها الصغيرة.

أنا جد مشوق إليكم، وأتمنى أن أراكم بخير عما قريب.

تحياتي للجميع.

المخلص يوسف سامي اليوسف

دمشق، في الثاني من كانون الثاني، سنة ٢٠١٠

الرسالة (٢٨)

عزيزتي غادة،

مازلت حبيس المنزل وطريح الفراش منذ أواسط آب الأخير، أي زهاء ستة أشهر مترعة بالمرارة الخانقة، فبلغ مني الشعور بالملل والتقزز مبلغاً فظيعاً بعدما غلغل في نخاريب النفس حتى نقي العظام. فأنا لا أغادر البيت إلا إلى الطبيب وحسب، وذلك حين يشتد الوجع في جوف صدري بالضبط.

فلئن كان الناس لايملكون أن يكونوا إلا في حال من حالين: إمّا الحياة وإما الممات، فإنني أخرج عن هذه القاعدة المؤكدة، وذلك لأنني سجين حال ثالثة، لا هي حياة ولا هي ممات، بل صيغه تتوسط بين الضدين وتجمعهما في بنية واحدة. يا إلهي! ما أفظع أن يكون الانسان بغير أمل.

ثم إنني لولا المنومات لقاسيت كثيراً من الاضطهاد الذي يمارسه السهاد على روحي المألومة المنهكة. ولشدة شعوري بالإجهاد الناتج عن السقام، رحت أناجي فؤادي المسكين بهذا البيت الموزون الذي قلته منذ شهرين تقريباً:

تعطـل، أيهـا القلـب الحنـون   فجملـة هـذه الـدنيا شـجون

ولكن هذا القلب الحنون لا يتعطّل، للأسف الشديد. وينتج عن استمراره في خفقانه أنني سوف أظل أكابد الأوجاع إلى أجل يتعذر تحديده أو التنبؤ بميعاده.

بيد أن الانسان مخلوق ما كان له أن يكون إلا من أجل الذبول وحده. فهو يذوي في حوزة الزمن وقيوده كما تذوي نبتتة برية في القفر أثناء فصل القيظ. ولهذا فإن الخلاص حتمية مطلقة، أو منحة مؤكّدة تهبها قوة الخلق للمرضى والشائخين المهترئين، ولكن بعد المطل والانهاك الشديد الوطأة.

وقعت في «جريدة الأسبوع الأدبي» على قصيدة لك عنوانها «دليلي»، فطالعتها ثم أعدت مطالعتها مرة أخرى. وقد لاحظت أن ثلثها الثالث، الذي يبدأ بهذه العبارة: «تفتّق ورد الرغاب»، أشبه بتعبير عن «المشتهى» الذي لم يتح له أي إشباع. ولاحظي هذا القول: "وألوي جموح الغواية صبراً فلا يلتوي». ما هذا، ياغادة اليوسف؟ إن كلاماً من هذا القبيل لايليق بامرأة في مثل مقامك!؟. ثم ألا تشعرين بأن هذا الثلث له محتوى يختلف عن محتوى الثلثين السالفين؟

ما دفعني لكتابة هذه الرسالة الراهنة هو أنني أود أن ألفت انتباهك إلى موضوعين كبريين اللتين يعنى بهما الأدب العظيم أكثر من سواهما: الشر والاغتراب، نعم، الشر الذي يحيل الحياة إلى مرارة، والاغتراب الساعي إلى تجاوز وضعه ابتغاء الاتصال الأصيل، أو الاتصال في العمق، أي صوب الحب والصداقة. والشر من اختصاص شكسبير ودستويفسكي وديكنز ومن هو في مستواهم من الكتاب العظام. والاغتراب من اختصاص المتنبي والمعرّي ومن كان في حكمهما. أما وقد بلغتِ النضوج فإنك قد غدوت موائمة لأي من هاتين الموضوعتين، أو لكلتيهما معاً.

ثمة في الأسواق اليوم مجلة اسمها "جهينة" وقد نشرت في الصفحة الأخيرة من عدد شباط الجاري زاوية عن النقد الأدبي في العالم العربي الراهن. لا أريدك أن تقرأي الزاوية، إلا إذا رغبت في ذلك، بل أريدك أن تري إلى الصورة المصاحبة لها. إنها صورة لشاب وسيم ومعافى وتصخب الحيوية في خلايا جسده المتين، ولكن صار اليوم هشيماً، ويكابد القعود في البيت، ويمارس روتيناً يتكرر كل يوم دون أي غيار مهما يكن نوعه.

لقد أخذت هذه الصورة سنة ١٩٩٨، يوم كنت في الستين من سنوات عمري. ولست أدري لماذا أدهشتني حين رأيتها منشورة في هذا الموضع الآنف الذكر. إنها لم تكن تختزن أيما شيء لافت للانتباه قبل نشرها في تلك المجلة.

صار الجزء الرابع من «تلك الأيام» جاهزاً للنشر، بعد تنضيده والاسراف في تنقيحه وتهذيبه.

ملاحظة: أنا أكتب في مجلة «فكر» هذه الأيام، وقد يهمك أن تكوني على دراية بما أكتب.

وفي العدد الراهن من تلك المجلة ثمة مقالة لي عن القاصة الفلسطينية سميرة عزام. ومن شأن هذه المقالة أن تضيء بعض الجوانب في أدبها القصصي حصراً.

مازلت أتذكر تلك السهرة الممتعة التي قضيناها معاً في مزرعتكم الصغيرة مساء التاسع عشر من نوار، العام الفائت، مازلت أحن إليها وأتمنى أن تتكرر ولو مرة واحدة، فأنا مشوق إليكم أجمعين.

وأخيراً، آمل أن أسمع صوتك بالهاتف، وأن تصلني منك رسالة، فأنت لم ترسلي لي أيما شيء منذ زمن طويل جداً.

تحياتي إلى نورس ونور، وإلى ممدوح سكاف، وإلى عبد الكريم الناعم وزوجته منى، وأخيه أبي عبد الله.

وآمل أن نلتقي ذات يوم قريب، فأنا أحن إليكم بكثير من اللهفة الصادقة الحارة.

صديقكم المشوق أبو الوليد

دمشق في العاشر من شباط ٢٠١٠

الرسالة (٢٩)

عزيزتي غادة،

تحية طيبة وبعد خلّفت مكالمتك الأخيرة شعوراً بالذنب في أعماق نفسي، وذلك بسبب تعليقي في رسالتي الأخيرة على قصيدتك المنشورة في «الأسبوع الأدبي" تحت عنوان «دليلي». ولهذا فإنني أخوّلك الحق كاملاً في أن تحذفي ذلك التعليق من الرسالة مرّة واحدة وإلى الأبد. ولئن كنت قد ألحقت بك أو بقصيدتك أيما إساءة فأنا جدّ آسف وأعتذر بحرارة وأرجو أن تقبلي اعتذاري عن طيب خاطر، ولكن عذري أنني ماعلمتُ أن «الآسبوع الأدبي» نشرت القصيدتين على أنهما قصيدة واحدة دون فواصل أو عنونة. فجاءتا قصيدة واحدة هما «دليلي" و«وامرأة القصيدة». وكان عليهم أن يفرّقوا بين القصيدتين.

بيد أن هذا الشعور الناجم عن إساءتي لك ولقصيدتك قد جعلني أعيد طرح هذا السؤال الذي طرحته على نفسي آلاف المرات خلال عمري الطويل: ترى، ما هو التجلي الأول والأكبر للخير الأسمى؟ لامرية عندي في أن الحب، أو المحبة التي تبنتها المسيحية وجعلت منها الينبوع الذي ينبع منه الإنسان الأصيل.

ولكن الحب إذا صِينَ من كل تشويه أو تزوير. أما إخفاق التجربة العشقية فمن شأنه أن يرغم المرء على أن يقتل الغياب بسويداء الفؤاد، وهو يقتله بوصفه حسرةً أو حملاً باهظاً لايطاق، وذلك لأن مناداة الغياب لاتختلف كثيراً عن مناداة العدم، أو لعلها أن تشبه النفخ في رماد ناشف. ولا يدرك هذه الحقيقة إلا من مارسها وذاق ويلاتها طوال عشرات السنين. يقول المجنون: فشاب بنو ليلى، وشبّ بنو ابنها، وأعلاق ليلى في الفؤاد كما هي.

ومع أن العقل هو الجحيم نفسه، أقلّه في نظر دوستويفسكي، فإنه في نظري مجلّى كبير من مجال الخير الأسمى هو الآخر. ولعمري إنه الأعجوبة الأكثر إثارة للإستهجان بين جميع منجزات الطبيعة. فكيف قيض لهذا الصنف من أصناف الفاعلية أن ينشأ ويرتقي، ثم أن يثابر على وجوده في سواء هذه العجمة البكماء. يا إلهي ! كيف قدّر للذهن أن يصاغ في هذه الصيغة الشديدة الشبه بالمعجزة، مع أن المادة الشريرة البليدة تحيق به من جهاته كافة؟ كيف تمكن عالم اللاعقل من إنجاب العقل؟ إن هذا يشبه أن تتمكن عنزة من إنجاب مهرة، أو سدرة من أن تحمل تفاحاً أوقمحاً، أو أي محصول ليس من فصيلتها. فالمثير للإستهجان ههنا هو اللا تجانس بالضبط، وذلك لأن العقل ليس من فصيلة المادة، مع أنه من سلالتها. ولهذا، فإن العقل لن يرضى عن العالم إلى أبد الآبدين. أما الذي يرضى عن العالم فهو اللاعقل أو اللاوعي أو اللاشعور. يا للدهشة! ولعلك تذكرين قول أرسطو بأن الفلسفة تبدأ من الدهشة. وربما جاز الزعم بأنها تبدأ من استهجان الذهن لأمه المادة، أو للعالم المحيط به من جميع جهاته.

عزيزتي غادة، هاقد حلّ الربيع، فصارت الدنيا مشهداً أنيقاً يصلح للترفيه عن الروح، ولا سيما بعدما أخذت الأرض تتفتق عن زهورها البرية المبهجة والمدخرة في ثراها على نحو مضمر، أو عن ابتساماتها الطبيعية التي تطلعها لتزين نفسها لبني البشر المحتاجين إلى الجمال حاجتهم إلى الطعام.

وصار النهار أنصع وأبهى وأكثر حضوراً أمام مقلة العين. وحتى الصبح قد أخذ يبزغ كما لو أنه يندلق دفعة واحدة من جرة كبيرة جداً، جرّة أسطورية عظيمة الحجم والمقدار.

وراح الناس يخرجون إلى الأماكن المبهجة، ولاسيما نهر بردى الذي يسير في وادٍ يانع ذي أشجار شديدة الخضرة منظرها فرحة للناظرين. أما أنا يا عزيزتي غادة، فلا أستطيع الخروج من البيت، وذلك لأنني لا أملك أن أسير على رجلي أكثر من بضعة أمتار، فقدرة العضلة القلبية على ضخ الدم قد هبطت إلى مستوى بائس. فلم يبق إلا الصبر والتحمل.

عزيزتي غادة،

منذ مدة طويلة لم أتلق منك أية رسالة، بل لم أتلق أي شيء. أرجو أن يكون المانع خيراً. وليتك تشكرين عبد الكريم الناعم بالنيابة عني وذلك لأنه ذكرني في مقالته التي تعرفينها. وأتمنى لو كانت صحتي تسمح لي بأن أقدّم دراسة مطولة لشعر الناعم كلّه، أو لشعره الذي نشره في الآونة الأخيرة، والذي هو شعر جيد بالفعل.

لقد بتّ مقتنعاً تماماً بأن كل شيء زائف ماعدا الألم البدني والنفسي. فالألم هو الحقيقة والحقيقة هي الألم، وبعد ذلك لا يبقى سوى المزاح والتسلية. وتحياتي للجميع.

المرسل

يوسف سامي اليوسف

دمشق في ٢٠١٠/٣/١٢

الجواب

الصديق الصدوق العزيز الطيب أبو الوليد، صباح الخير، وصباح العافية والسلام والسكينة والحبور.

يقلقني، بل يحزنني ما أنت فيه من مكابدة المرض الذي ينهك جسدك، ويفلّ نفسك، ويؤذيها بالسأم والضجر، ويحاصر روحك التواقة أبداً للانسراح والامتداد والتحليق، والتفتّح والابتهاج ببزوغ الحياة وانبثاقها وتجددها في معشوقتك الخالدة، وهي الطبيعة، والغوطة، والربيع............

يا إلهي ما أصعب أن تُبتلى الروح بالرحابة وعشق الأمداء والتحليق في سماوات البهجة في حين يبتلى الجناح بالأسر ! عندئذ يا صديقي تغدو زقزقات العصافير، وأغاريد البلابل وغناء الشحارير والعنادل وخزات مسمومة، تلسع بروعتها جناحك المربوط بقفص الضعف والعجز والمرض.

إنه الجسد، هذا السجن، هذا القفص، هذا الأسر والتعذيب الأبدي للروح. بل إنه هو الجحيم ذاته. وإن ماتلقي به الحياة إليه من فتات أوهام الفرح والمتعة وبعض اللذائذ ماهي إلا رشوة، أو خدائع ومكائد تمدّ طريق جحيمه، وتزيّن له وجه الحياة، ليقدر على احتمال عبئها الثقيل، وحين تأزف ساعة الكشف، تسفر الحقيقة عن وجهها الأصيل "الألم".

فما إن تجرّب الدنيا حتى تجرّبك الآلام، ترش عليها بعضاً من حلاوة الأماني، ولكن، لابد أن تقول حقيقتها الموجعة آخراً.

لا تتحسر صديقي الطيب، فمثلك كثر، أما أنا فإن الربيع لايحمل لي من زهره وعطره وخضرته وشدوه وشمسه وأنسامه سوى توقيت رحيل الربيع من عمري، حين شاءت الأقدار أن تغادرني ابنتي ميديا فيه. بعد أن كابدتْ معه وهي مقيدة بالأسلاك والأجهزة الطبية طريحة أَسِرّة المشافي أشدّ الآلام الجسدية،

وأمضّ الأوجاع الروحية. كنتُ أرنو من نوافذ المشافي التي عبرناها معاً دون معين لنا إلى أشجار اللوز متلبسة ببياضها الملتبس، وإلى الخضرة اللامعة تحت شمس صباحات آذار، وإلى الصبايا اليانعات أمام الجامعة المقابلة لمشفى "الزعيم" في حمص وهن يرفلن بنعيم الصبا ونضرة الشباب، وأرمقها وهي تبث الوسادة وجدران المشفى الصفراء، أو الملاءات البيضاء في غرف العناية المشددة عتبها وحسرتها على ربيع أنكرها ولم يعترف بربيعها، تماماً كما فعل بي. إلى أن أصرّ على اختطافها قبل أن يغادر. فسرقها في نهاية نيسان، نيسان، يا أبا الوليد، نيسان شهر الفتنة المرهقة، شهر شباب الحياة وجمالها وانعتاق الحياة وانبثاقها في كل شيء. كل شيء، ما عداها..وما عداي. فأيّ ربيع بعدها لم يعد يزورني إلا كلص سارق، يذكّرني بما فعل..وقد سرق مني ربيع روحي، ونوارة أيامي. وهي التي كانت فصولي كلها، ببردها وحرّها، بياسها وخصبها، ربيعها وعبيرها، وأغنيتي التي لا تغنيني عن ترتيل حروف اسمها أغاريدُ الدنيا بسمائها وبأرضها.

الربيع، هو موعد انكسار المواقيت، موعد الفقدان. يأتي ويسفح جماله الباذخ على وجه الكون. جماله الذي هو الوجه الحقيقي للمسرّة تماماً. كما النهر الفرات الزلال ينسكب هازئاً أمام صادٍ عطشان مكبّل بعجزه عن الوصول إلى مائه، فيتملاّه بعيون دامعة وقلب كسير. فلست وحدك فيما أنت فيه ياصديقي.

أما عن العقل، والذي لا أراه سليل المادة ولا من فصيلتها، وإنما هو سابق الوجود عليها، بل هو موجدها الأول. وإن غلبت ظلمة كثافتها على ضوئه، فما ذلك إلا مرحلة ضرورية لسيرورة البشر في حمأة تخلّقهم لبلوغ الكمال، والتي مانزال في أطوارها الأولى. وهم ما يزالون في بداية الطريق.

أمّا أنا، فلقد مسّني العقل متأخراً، وبعد فوات الأوان، وليته لم يفعل. ويحق لك الآن أن تضحك، والله.. والله أنا لاأمزح. نعم، ليته لم يفعل، وليت أنه بقي مغادراً عالمي، فلربما كنت نجوت من ضوئه المؤلم الذي أريك بصري وبصيرتي معاً. وكذلك أريك خطواتي التي ألفت السير على هدي القلب الطيب الساذج المسكين. وصرت لا أتقن إلا قراءة الآية القرآنية الكريمة: «اقرأ كتابك

بنفسك وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

أجل، إنه العقل، هذا الجلاد الذي لايني يلسع بسياط الحقيقة المرّة أنفاسي وأنا في حالة استعادة لما صنعته، وضيعته، وخرّبته بيدي، وكنت أحسب أنني أجترح الفعل الأرقى، والأنبل، والأجمل.

صديقي أبو الوليد،

في زمن يضع الرفيع ويرفع الوضيع، وأظن أن الزمن هكذا كان ديدنه دائماً،ففي زمن كهذا لا شيء أكثر راحة من الاعتكاف، والبعد عن الصخب وضجيج النفاق والرياء.الذي يرهق الروح إلا فيما ندر. أخرجُ للتفرج على اتضاع الحياة، وخرابها، وأتسلى برؤية المسوخ التي تملأ المعمورة، وأحمد الله أنه أتاح لنا نعمة القراءة ولهو الكتابة ليتسنى للنفس أن تتخارج قليلا من أكوارعتمتها ووحشتها، وقد دعاني منذ أيام الدكتور رضوان القضماني لحضور محاضرته حول: «رؤية جديدة في نقد الشعر العربي الحديث» تحدّث خلالها عنك.

أما بالنسبة لاعتذارك عن ما قلته عن قصيدتي «دليلي» المنشورة في «الأسبوع الأدبي». وفي الحقيقة أن القصيدة التي تقصدها هي بعنوان "امرأة القصيدة» وهي تختلف كلياُ عن قصيدة «دليلي» ولكنني حين أرسلتهما إلى مجلة «الأسبوع الأدبي» لا أعلم أي خلل دفعهم ليجعلوا القصيدتين قصيدة واحدة طبعتا بالتتالي تحت ذات العنوان «دليلي»!! أقول: بالنسبة لإعتذارك فلا مبرر له، لأنني أومن بأن مايصدرعنك تجاهي ينبع من المحبة والحرص على سمو ما أكتب، والرغبة الدائمة في الرقي صوب الكمال، وأن لا تعكر صورتي شائبة. حتى لو كنت على خطأ أو قساوة، وهذا هو كل ما يهمني في الأمر، فإنني أكره الملق والمتملقين الذين ينافقون على الكثيرات ممن يبحثن عن مساحة في عالم الكتابة من ضعيفات الروح والكلمة.

أما بالنسبة للديوان الشعري " الطائر الحر" للشاعر فايز خضور فإنني لم أقدر على أن أعثر فيه على أية مثلبة. بل على العكس من ذلك، لقد راق لي عموماً، وهذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها لهذا الشاعر. بل وتوقفت طويلاً

أمام بعض المقاطع وبخاصة في المقطع (م) في قصائده المقسمة إلى حروف الأبجدية كعناوين جزئية. لديه صورة مدهشة وعاطفة حرّى، وغنائية، وهذه برأيي روافع الشعر الأساسية، بالإضافة إلى المعاني التي تدور حول الرغبة في الانعتاق من الظلم، سواء أكان ظلم الوجود أم الظلم الذي يصبّه الإنسان على أخيه الإنسان.

أكاد أختنق في حصار الوقت، فالعمل في المحكمة مع أنه سبب خروجي الوحيد من البيت ولولاه لبقيت بين الجدران، إذ لاشيء يثير الرغبة في الخروج، ولكنه يرهقني من حيث أنه يستهلك معظم النهار، خاصة وأنني أتعامل مع القضاة والمحامين وأطفال ألقى بهم الفقر والجهل والتخلف والفساد في مصهر حياة تزداد شراستها وقسوتها يوماً بعد يوم. وأتعامل مع إجراءات وقوانين لا فسحة فيها ولا متنفس إلا لعتاة الإجرام وأصحاب المال. وكأن القوانين وضعت من أجل حمايتهم. مع أنها يجب أن تكون من أجل صيانة الحقوق، ومن أجل أن تكون وفية لروح العدل والإنصاف.

لك كل الطمأنينة، وأرجو من الله أن تتحسن صحتك وأن تتعافى لننعم بزيارة منك لحمص. ولك اعتذاري عن التواني في الكتابة، فأنا والله لا أجد من الوقت ما يكفي لكتابة أي شيء. ولا أدري كيف ينسرب اليوم بعد اليوم كلصّ محترف يسرق العمر ويترك الحسرة والخسران.

لك المودة الصادقة.

غادة اليوسف

حمص في ٢٠١٠/٣/٢٣

الرسالة (٣٠)

السيدة غادة اليوسف المحترمة،

طالعت رسالتك المؤرخة بتاريخ الثالث والعشرين من الشهر الجاري، ولكنني حزنت كثيراً، يا غادة، لما تكابدينه من ألم بسبب وفاة ابنتك ميديا التي مازال جرحها نغاراً لايقبل الاندمال، على الرغم من مرور ثلاث سنوات على تلك الوفاة المريرة. كما تعاطفت مع تقززك من العالم الخارجي واحترمت رغبتك في التقوقع داخل جدران المنزل الذي لا تغادرينه إلا إلى ا لعمل ابتغاء الاستجابة للحاجات المادية الضرورية.

وأياً ماكان جوهر الأمر، فإن وضعك ليس بالرديء، على ما أحسب، وذلك لأن صحتك ما زالت جيدة. فالصحة هي اللباب، وما عداها قشور ليست لها سوى قيمة طفيفة.

أما أنا فقد تحسنت صحتي قليلاً منذ أسبوع واحد، أي مع استتباب الربيع وكثافة حضوره. ولهذا، فقد خرجت يوم الخميس الأخير، بسيارة ابني أكثم، وبصحبة زوجتي وزوجته، وتجولنا في المنطقة المنتشرة إلى الجنوب الغربي من دمشق، أو في المجرى الأوسط لنهر االأعوج، حيث تمتد على مرمى البصر مروج سندسية خضراء اللون، تزركشها أزهار برية ملونة فاتنة. وكان البرقوق (الحنّون) الأحمر القاني أبرز الزهور على الإطلاق. كما أن الشجر الزاهر، ولا سيما المشمش واللوز والكرز، مشهد حاضر تمام الحضور في ذلك الأفق الهانيء السعيد. أما الهواء البليل فينشر العافية في جميع خلايا الجسد، وذلك لأنه ناج من كل تلوث أو شوائب. وأما الشمس فإن لها من الحنان ما يجعلها شديدة الشبه بالأم الرؤوم، لما تبثه من لطف ودعة في فضاء النفس.

لقد زرت أماكن ليس من طبعها أن تفرز الشيطاني أو أن تستقبله بتاتاً. ففي تلك الأرض لا وجود إلا للنقاء والهناء، أو للفتون الساحر الخلاب. يا إلهي ! ليت الحياة ربيع سرمدي وشباب لايتغير ولا يتبدل. وإني دائم التساؤل عن السبب الذي جعل الأشياء على ما هي عليه ولم يجعلها على أي نحو أفضل أو أبهج. لماذا كانت الحياة لعتاة المجرمين ودهاقنة المال، ولم تكن للشعراء والفنانين والعشاق وأصحاب الفِطر النقية؟ لماذا كان العقل/ الوعي جلادنا الذي لايعرف الرأفة، مع أنه ماهيتنا الأصلية، وهويتنا الداخلية التي لولاها لكنا اليوم في العدم؟ ولماذا كان ينبغي أن تموت ميديا المسكينة الطيبة؟ ما الذي يضير هذا الكون الشاسع الرحيب لو أنها ظلت حية ترزق بين هذه المليارات السبعة التي تؤلف الجنس البشري؟ ماذا، هل ضاقت الأرض بفتاة بريئة لا تؤذي نملة أو فراشة؟

وللذهن أن يتساءل عن العدالة في هذا كله. وله أن يطالب الحياة بأن تتصف بشيء من العقلانية، أو من الصحة التي تجعلها مقبولة لدى الحسّاسين والمرهفين. وهل من سبيل لتغيير بنية الوجود القائمة على مبدأ الاختلال الدائم المثير للشعور بالكآبة وأحياناً بالنزق والاضطراب؟

ولكن، لي عندك رجاء، وهو أن تتجملي بالصبر، وأن تتحملي المصيبة بكثير من الصلابة والجلَد. وما عهدتك إلا امرأة منسوجة من الرصانة وقوة الحضور والتأثير. وليس أمامك إلا أن تتابعي الدرب حتى نهايتها، ودون أي خور أو انحناء أمام المتاعب والمصاعب.

أرفق رسالتي هذه بمجموعة شعر منثور لشاعرة دمشقية كان والدها واحداً من أصدقائي، ولكنه توفي فحزنت عليه كثيراً. ربما راقتك المجموعة كما راقتني إلى حد ما.

لك مودتي واحترامي الشديد.

وسلام إلى جميع الأصدقاء في حمص. وتحية خاصة إلى الدكتور قضماني.

المخلص يوسف سامي اليوسف

دمشق في يوم السبت الموافق للسابع والعشرين من آذار سنة ٢٠١٠

عزيزتي غادة،

في الشهرين الأخيرين (آذار ونيسان)، قمت بثلاث جولات بين ربوع الطبيعة الغناء، حيث يتيسر للمرء أن يعاين البكارات الزاغبة مرئية في كل شيء، ولا سيما في الاخضرار الغامر لكل مكان، حتى تصير الأرض زمردة خضراء فاتنة مثل الصباح المولود للتو.

كانت الجولة الأولى إلى وادي نهر الأعوج، أو في أواسطه، وكانت الثانية إلى بحيرة زرزر القريبة من حدود لبنان، ثم إلى الينبوع الذي ينبع منه نهر بردى، والذي يذكّرني بصورة الظهور من التواري، أو بالمجيء من الغياب، في مفهومهما الصوفي.

أما الجولة الثالثة فقمت بها في السابع عشر من نيسان الأخير، وذهبت إلى الجولان لأنهم يسمحون لكل امرىء بالبلوغ إلى ذلك الرائع المخضل دون تصريح في ذلك اليوم من كل عام. ولقد شاهدت بحيرات وادي الرقاد وماؤها يترقرق تحت الأنسام اللطيفة ويتلألأ تحت أشعة الشمس الربيعية الدافئة مبتهجاً بوجوده البهيج حسناً! سرنا زهاء خمسين كيلومتراً على طريق يتوسط بين تلك البحيرات المنداحة إلى الشرق منه وبين تلال الجولان المحتلة المنتصبة في الغرب مثل سد دفاعي هائل منيع. وهي تبدأ في الشمال بتل ابي الندى المجاور لمدينة القنيطرة، وتمتد حتى تل الفرس في الجنوب، وهو في ظني أعلى تل بين تلك التلال كلها. ولا زلت أذكر أنه كان يرى من أرض قريتنا في فلسطين، وقريتنا إلى الغرب منه، وعلى مسافة قد لاتزيد عن خمسين كيلو متراً. وعند لحف هذا التل من جهته الشرقية تنتهي الأراضي السورية الواقعة إلى الغرب من وادي الرقاد. وهناك أخبرنا جندي يحرس الحدود بأن علينا أن نعود أدراجنا، أو أن نتجه صوب الشرق لنخرج من الجولان إلى حوران وبالقرب من ضيعة اسمها الرفيد المجاورة لتل الفرس، وجدنا جسراً على النهر، فعبرناه نحو الشرق، ثم تابعنا السير حتى قرية نوى، وبذلك صرنا في حوران المذكورة في قصيدة رائية مشهورة لامريء القيس: "فلما بدا حوران والآل دونه."

كانت تلكم بعض أخباري العملية، أما على المستوى النظري، فإنني في فترة الاعتزال الراهنة، أقصد اعتزال الخارج بسبب المرض، أتأمل هذا الوجود كثيراً، ولكن لكي يرتطم ذهني بجدار السر فيتوقف مشكوماً عند حدّه الذي لا يملك أن يتخطاه بتاتاً، فأتذكر قول النفري ناقلاً ما سمعه من خطاب الحق: «حرفت العقول عني، فوقفت في مبالغها».

بيد أن هذا الارتطام من شأنه أن يشحن نزعة الاستبار في جوف نفسي، وأن يخلق في سريرتي شغفاً باللامتاح، أو بذاك الذي لايتيسر البلوغ إليه ولو عنتاً. كما أنه يخلق كلفاً بالنفيس، بالغاليات، فيجعل اقتناء الأفكار الأصلية العميقة، أو الميل إلى النقي الزلال، نتاجاً لمسغبة روحية لا إشباع لها بتاتاً.

وربما دفعني هذا الشغف وهذا الكلف إلى الاعتقاد بأن ثمة عنصراً سرياً، ولكنه أكثر نبلاً ونفاسة من العقل، يرخم في بقعة ما من باطني المتواري داخل غلاف من السكينة والسكوت، وبأن هذا العنصر الذي تجوز رؤيته بوصفه نواة النفس، يتخذ من الذهن أو من التذهن أداة له كي يبلغ إلى موطن الأسرار، أو إلى معقلها الحصين.

ومن فاعليات هذا العنصر المباطن المكتوم أنه يجعلني أشعر بأن هذا الكون أعجوبة مدهشة حقاً، وأن كل ماتراه العين هو القداسة نفسها، ولكنه لغز لاتأويل له بتاتاً. بل كثيراً ما أشعر أننا نحن اللغز والسر الذي لا يدركه الادراك. فلن نفهم ما يتمطى في داخلنا، ولن نستوعب ما يجري حولنا، في أي يوم من الأيام.

ولكنني، من الجهة الأخرى، أشعر، في البرهة الثانية، بأن كل ما تراه العين ليس سوى لعنة تجسدت ذات يوم، ولا أحد يدري كيف تم تجسّدها، ولا متى كان ظهورها للعيان أول مرة. إنها برهة الشر التي تحيل الحياة إلى جحيم لا إطفاء له. إنها لعنة إبليسية أو جهنمية لا وظيفة لها سوى إحالة الحياة على التليّف.. وإنها في حراك دائم، فهي لا تهدأ ولا تفتر، بل تفور وتعرم باستمرار، دون أن تكل أو تمل. وهذا يعني أن الذي كان بركة أو نعمة في البرهة الأولى قد استحال إلى نقمة في البرهة الثانية.

وفي الحق أنني كثيراً ما أسهو عن اللعنة التي تذبح فلسطين والعراق يومياً، فأعود إلى الطور الأول، أعني طور التفكير بالجانب السري للوجود. ولكن اللعنة سرعان ما تنبز في ساحة البال فجأة، فأتذكر أنني لست مكنوفاً بالسر ولا بالمجد الأقدس، أو بالروح الكلية الانتشار، بل تحيق بي وتحاصرني من جميع الجهات مقززات ومنغصات لاقبل لي بالتصالح معها. وعندئذ أشمئز وأتجهم، وتنثال زخات الكآبة في خاطري، ثم أستهجن كيف طقت العيش طوال هذه المدة المديدة من الزمان.

عزيزتي غادة،

هذا كتاب عنوانه «الشعر والحساسية»، وقد صدر عن وزارة الثقافة في الشهر الماضي، أي شهر نيسان. وهو مجموعة مقالات نشرت بعضها في الصحف سالفاً، وقد خفت عليها أن تبيد في ما يبيد من أشياء، فجمعتها – لنفاستها عندي - في كتاب واحد يصونها من مذراة الزمن وميله إلى العبث والتدمير.

ولقد طالعته بعد نشره، أي بعدما فصلتني عنه سنتان ونصف السنة، أو أكثر قليلاً، فوجدته قادراً على الامتاع والمؤانسة، كما أنه لايخلو من الفائدة، أو من القدرة على التعليم.

أرجو أن تكونوا جميعاً بخير، بل على خير ما يرام. وتحياتي إلى الجميع.

المخلص أبو الوليد

دمشق، في الثاني من نوار، سنة ٢٠١٠

الجواب

الصديق العزيز الأستاذ يوسف سامي اليوسف أبو الوليد،

صباح الخير، وأرجو أن تكون أوقاتك كلها مغمورة بالخير والصحة والسلام.

إن ما يدعو إلى الدهشة والرعب في آن معاً هو هذا الانسحاب السريع للزمن، هذا الجريان والهروب المجاني المريع له. وبالرغم من كونه محشواً بالأعباء. نلهث، نلهث، إلا أنه بالكاد يكفي لانجاز متطلبات الضرورة. ومع ذلك فهو فارغ خاوٍ لاطعم له، ولا رائحة، ولا لون، سوى طعم الشقاء والتزنخ والغبار.

يتسرب اليوم بعد اليوم، والأسبوع بعد الأسبوع، وكذلك الشهر والسنة، ولا شيء يتغير سوى ما تعكسه المرآة حين نتملاها في برهة تأمل سانحة، فندرك كم هي جارحة مخالب الزمن وهو يعبر فوقنا ويترك آثار مروره أخاديد في العينين والوجه والروح.

تذهل حين تقلب أوراقك فتكتشف كم مضى منه، والذي لايمكن استعادة ولا جزء من الثانية منه مهما ملكت من مال وسطوة وجبروت. يملؤك الاحساس بالخسران، إذ لا إمكان لتدارك ما لايُتدارك. ولكن، لماذا هذه الرغبة المستحيلة بإعادة الزمن؟ إن كان وعاء للدموع والبلاء؟ وإن كان هو والمكان وكل شيء، كل شيء، مشاريع انهيار منتظرة بكثير أو بقليل من الأسى!؟ وإن كنا ومهما تأخر بنا الوقت – وهذه حقيقة تقلقنا، وتهيننا – سنعود إلى حفرة، وننعجن فيها مع طين الأرض لنصبح لائقين كوجبة للصراصير والديدان. ولكن، لا. فالانسان، هذا الأقلية الضئيلة المتوترة بقلق مصيرها، وقلق العالم، هل يكتفي

بذلك؟ ويدق رأسه بجدار هذا العبث؟ لا. فالانسان قبل المادة، وبعد المادة، هو قبل كل شيء معنى وروح وفكر خلق المادة وقوانينها. وهو الخالد، الباقي بقوة الروح متدرجاً في مسالك تَرَقّيه.

الصديق العزيز أبو الوليد، كم هو صحيح ماقلته يوما لي في إحدى رسائلك: "المرض هو السلب الأكبر". فها هو ذا شقيقي الوحيد..وهو أكبرنا سناً، ولم يكمل الستين من عمره وهو الذي لم يشرب الخمرة ولايعرف طعم لفافة التبغ قد دهمه المرض. ونأمل من الله تعالى الشفاء له. ولقد زعزعني هذا الأمر تماماً...فهو شقيقي الوحيد. وهذا ما شغلني بالكامل عن كل ماسواه.

صديقي الكريم، من الأحداث التي أثرت بي مؤخراً، بارقة أمل لمعت في أفق الظلام العالمي، حملتها "باخرة الحرية"* ما أكد على أن الرابطة الإنسانية التي تربط البشر هي أهم الروابط وأقدرها، وهي المعوّل عليها، والحصن الأخير للإنسان في صراع المصالح. جميل أن تتشابك الأيدي من كل لون وتمخر الإرادة الطيبة عباب الخطر، وتمشي فوق الماء كالمسيح تاركة الزعماء والساسة والقادة يتمرغون في رمال بروتوكولاتهم كالسراطين. وبالرغم من الأسف على الدماء التي عانقت زرقة بحرنا إلا أنها كانت قرابين على مذبح الانسان، أظهرت لمن على عيونهم بقايا من غشاوة، حقيقة الوجود الشيطاني الصهيوني وخطره على روح العالم، وضرورة التخلص منه. ولكن، وبالرغم من النتيجة التي أتت إيجابية بكل المعاني فثمّة سؤال يجول حارقاً في الروح مؤداه: لماذا لم تتحرك المراكب المقيدة منذ سنين ؟ هل هو الخوف والجبن؟ هل هو التبلد والاحساس باللاجدوى؟ هل،هل؟ ترى، لو أن الشهداء الذين كانوا على ظهر الباخرة البطلة عرباً هل كانت ستقوم الدنيا احتجاجاً؟! وهل أردوغان التركي الذي أظهر كل هذه اللهفة على أهل غزة قطع علاقاته بإسرائيل؟ أم أن هذه العلاقات لايأتيها رذاذ الدم المتماهي بماء بحر فلسطين؟ ومن هم هؤلاء الشهداء الأبطال الذين استشهدوا على ظهر الباخرة؟ إنهم أتراك... الآن...وقبل الآن؟؟ أليسوا هم من أهل اللواء السليب؟؟ هذا إذا دققنا بأصولهم... ثمة الكثير من

الاسئلة التي إن أثرتها لجابهني الجميع بألف جواب يلقونه في وجهي، ولعل أهم رد أو اتهام هو أنني من عشاق نظرية المؤامرة... وسأترك الجواب ليجيب عليه المستقبل، وسط هذا السديم العالمي. وإن كان لايزال للعرب هنالك متسع في الوقت، العرب المنسفحين على الشواطيء الراكدة ليرمموا الشروخ التي التصقت بصورهم المرسومة بريشة تاريخ لايرحم. هذا الوقت الذي أخذ يضيق، فهل يكونون بمستوى الدماء التي إئتلقت على لازورد مياههم وتحت وهج شمسهم الغاضبة؟

الصديق العزيز أبو الوليد، لا تلمني إن تأخرت في كتابة الرسائل. فالوقت كما ذكرت ضيق. لايكفي حتى للنذر اليسير من القراءة التي هي المتعة الوحيدة الباقية. وقد أكتب بعض المقالات والزوايا القليلة في الصحف، لا لشيء، إلا لأشعر بأنني مازلت موجودة. فأنا لاأشعر بوجودي إلا حين أكتب. وكل ما أتمناه الآن هو بعض الوقت ليتسنى لي القراءة التي يزداد عطشي إليها يوماً بعد يوم. وبخاصة في مجال القراءات الفلسفية واللاهوتية التي تبحث في أسرار الوجود، والتي تحاول الإجابة على أسئلة: الانسان، الوجود..الموت....الخ

لك كل المودة والصحة والعافية والعمر المديد ودوام التألق والعطاء، خصوصاً وأن كتابك الأخير "الشعر والحساسية" لاقى وقعاً طيباً جداً في نفسي، كما كل ما تبدعه عبقريتك.

مجموعة الشاعر محمود نقشو «فقه الليل مرفقة بالرسالة. وقد حمّلني أمانة توصيلها إليك منذ وقت ليس باليسير. ولكن.... أرجو أن تعذرني لضيق الوقت.

دمت بخير وسلام..

غادة اليوسف

حمص في ٢٠١٠/٦/١١

الرسالة (٣١)

عزيزتي غادة

من يومين تسلمت رسالتك السابعة عشرة، وهي المؤرخة بتاريخ الحادي عشر من حزيران الجاري، وقرأتها بإمعان، وأحزنني نبأ أخيكم الوحيد الذي يعاني من المرض في بيروت. وإني لأتمنى له شفاء تاماً وعلاجاً وعودة إلى البيت مكللة بالسلامة وحسن الحال، ولست لأبالغ إذ ما زعمت بأن الفقر والسجن أهون من المرض.ومما يضيق علينا الخناق أن ثقافتنا الاسلامية والمسيحية ليست ثقافة انتحار، وذلك على النقيض من الثقافة الأورو-أمريكية، وكذلك من ثقافة الشرق الأقصى. وهذا يعني أن المريض عندما ينبغي أن يكابد مرضه حتى النفس الأخير. أليس فظيعاً أن يطلب المرء الموت بصدق فلا يجده بتاتاً، ثم لايكون عليه إلا أن ينتظر حتى يجيء الفناء من تلقاء نفسه ؟

يقيناً، إن المرعب ليس الموت، ولكن الحياة وعذابها الذي لا تحده حدود، ولكن دون جداء. فالموت استقرار أو استتباب، أما الحياة فهي الاحتدام أو الاضطراب.

وشتان مابين هذين النقيضين المتنافيين ولعل أكبر معضلة بين جميع معضلات الحياة هي كيفية الخروج من الحياة. فهذا الخروج قلّما يتم بسهولة ويسر، بل هو قلما يتم إلا بعد مقاساة الألم لمدة طويلة، أو حتى بعد احتضار مرير. وإني لا أرى الشيخوخة، أو الشطر الأخير من العمر، ولاسيما إذا كان ممروضاً، إلا بمثابة احتضار نكابده وكأننا معلقون في منتصف المسافة الفاصلة بين الحياة والموت، أو بين فوّهة البئر وبين قعره السحيق. ومن الفظائع حقاً أن نُحتضر طويلاً، ولكن دون أن نموت.

في الحق أن صلتي ببعض الناس، ومنهم أنت، تمديني بشيء من العزاء أستعين به على مرضي الآخذ بالتفاقم يوماً عن يوم. ومما راقني كثيراً في

رسالتك الأخيرة قولك في الصفحة الرابعة: "فبتّ لا أشعر بوجودي إلا حين أكتب." ولهذا أود أن أؤكد ههنا أن الكتابة عزاء آخر لي أستمد منه مسوغاً يسوغ وجودي في هذا الجحيم الجاحم الكئيب.

ومادامت الكتابة لها هذه الأهمية في حياتك، فأتمنى أن تنتقلي إلى كتابة الرواية. ففي قناعتي أن الرواية قد شرحت الانسان ومحتوياته الذاتية أكثر مما فعل الشعر، ولاسيما بعد استثناء الشعر المسرحي الشديد الشبه بفن الرواية، والشديد القدرة على عرض الانسان أمام نفسه.

ينبغي أن تنجزي إنجازاً عظيماً في مضمار الكتابة الأدبية، كما ينبغي أن يتم ذلك قبل بلوغك سن السبعين التي هي سن الشيخوخة غير القابلة للعزل أو الإقالة. ولقد سلف لي أن نصحتك بكتابة رواية عن عالم جميل شاهدته وهو يحتضر ويموت ليحل محله عالم قبيح بائس وغوغائي، يفتقر إلى جميع أسانيد الماهية الأصلية. فالعالم الراهن يختلف كثيراً عن ذاك الذي عايشته يوم كنت ماتزالين في طور الطفولة والصبا. ولولا المرض الذي أعانيه، والذي صار يمنعني من الجلوس إلى الطاولة لمدة طويلة، لقمت أنا بتنفيذ هذا الإنجاز الذي من شأنه أن يصف التبدل الذي تم من حولنا منذ فورة النفط في مطالع السبعينيات حتى اليوم.

لا أدري ما إذا كان د. هـ لورنس قد ترجم إلى اللغة العربية أم لا. ولنتجاوز تلك الترجمة التي قدمها أحد المترجمين لرواية "عشيق الليدي تشاترلي" فلاقت تفنيداً قدمه أحد الصحفيين منذ بضع سنوات. ففي رأيي أن قراءة المرء لتراث لورنس كفيل بأن يعلمه ما هية الرواية وكيفية كتابتها، وذلك لأنه يعيش ملهوفاً على الصدق في عالم الكذب والتزوير. إنه يسعى وراء صلة في العمق خلال هذا الزمن الذي أنجز أكمل تحالف بين المال والسلاح ضد إنسانية الإنسان.

وفي قناعتي أن الاسلوب هو كل شيء، أعني اللغة المترعة بالفحوى والناجية من كل تلف واصطناع. إنه ذاك الذي يجدد الزمان الهرم عبر إضفاء البكارة على الكلم، مما يزوده بالإخضلال واليخضور الحي، وكذلك عبر جعل الألفاظ تشع كما تشع النجوم في ليلة صافية. وفي زعمي أن هذا هو أسلوب لورنس الغنائي الذي أسسه صاحبه على مبدأ الاستجابة لنداء الحياة المتضرمة

«المتقزّحة»، أو الملونة كأنها قوس قزح، على حد تعبيره. ففي الحق أن جميع كتاباته لها هدف واحد، أو مبدأ واحد، وهو أن تكون حياً، أو أن تصير حياً، ولقد صرح ذات مرة قائلاً: «ينبغي أن يكون الله زاهياً مثل قوس قزح ينتصب في عنان السماء». وموضوعة الانتقال من مرتبة حية إلى مرتبة أكثر حيوية هي الفحوى الجوهري لرواية «قوس قزح»، التي هي ذروة رواياته، والتي تتلخص في هذا القول: «أن لاتصير، ذاك هو الاخفاق». ما أبعد الثقافة العربية الحديثة عن أن تنتج كاتباً أدبياً بحجم لورنس. فقيمنا هشة، وشخصيتنا ضحلة، وهمومنا جسدية أو مادية أكثر مما عي روحية. وأنا لا أبالغ إذا ما ادعيت بأن مؤسساتنا الاجتماعية لا تعمل على إنضاجنا إلى الحد المطلوب: الأسرة، المدرسة، الجامعة، الإعلام.....الخ ، ولهذا، فإننا سوف نبقى – على المدى المنظور – بعيدين عن الأصالة بعد الثرى والثريا.

عزيزتي غادة،

طالعت مجموعة «فقه الليل» للشاعر محمود نقشو(*)، وراقني فيها انسياب اللغة بحرية ودون عوائق، أجل، راقني حراكها التلقائي السلس الجذاب والشبيه بانسياب السواقي في المروج الخضراء.

والآن أشعر بأن قلبي في صدري قد تعب كثيراً بعد كتابة هذه الرسالة الطويلة. قد صرت في هذه الأيام لا أكتب إلا وكمامة الأكسجين على أنفي، بل صرت أتناول هذه المادة كثيراً جداً في الآونة الأخيرة، حتى لكأنها قد صارت ضرورية لي كالخبز والماء، ولاسيما بعدما نحل جسمي وخسرت من وزني اثنين وعشرين كيلو غراماً، فصرت أشبه بالشبح مني بالكائن البشري. أتمنى من صميم فؤادي أن أراكم بخير جميعاً وأرجو أن تبلغي تحياتي إلى الجميع بلا استثناء، كما أرجو لك مستقبلاً ناجحاً، فأنت مازلت شابة إلى حد ما، بل شابة حقاً مادمت تحت الستين.

صديقكم المخلص أبو الوليد

دمشق، في ١٩/٦/٢٠١٠

(*) محمود نقشو: شاعر من سورية – حمص. له العديد من الدواوين الشعرية.

الرسالة (٣٢)

عزيزتي غادة،

لم أتلق منك أية رسالة منذ زمن ليس باليسر، ولكن المكالمتين اللتين تكرّمت بهما عليّ خلال رمضان الجاري، وفي موجة الحر اللاهب التي اجتاحت سوريا هذا الصيف، قد كانتا بمثابة اتصال حميم من شأنه أن يغني عن أية رسالة وأن يحثني على أن أكتب إليك دون تريث. وفضلاً عن ذلك، فإن العيد قد أخذ يدق الأبواب، فلا بد من أن أهنئك بالعيد، ولو من باب التسلية أو من باب الالتزام بالتقاليد. فنحن المتوترين لا عيد لنا، أو هكذا أشعر أنا على الأقل. وأحسبك تشاطرينني هذا الشعور نفسه.

وما يدفعني لكتابة هذه الرسالة الراهنة هو أنني شاهدت، في الفترة الأخيرة، فيلماً هيمن على مشاعري حتى اليوم، وإني لأرغب في أن أتحدث عنه لإنسان حساس. ولست أجد من هو أكثر منك حساسية يسعه أن يستوعب انفعالي وما يعتلج في وجداني من شعور بالقهر يمور في سريرتي كما تمور أمواج البحر تحت سياط العاصفة.

لقد ذهب أحد أقربائي إلى فلسطين المحتلة، بل حصراً إلى التلة التي كانت تمتد على سطحها قرية لوبيا*، مسقط رأسي، وعاد ومعه ذلك الفلم الذي شاهدته محموماً بحنين يكوي الضلوع. إنه حنين يتدفق عارماً ليتوجه إلى الموضع الذي عشت فيه طفولتي الباكرة. ففي الحق أن المكان يمتزج بالزمان حين أتذكر طفولتي الأولى. ومن هذا المزيج تنتج لوعة حارقة، أو لوبان على مفقود لا يعنو للاسترداد بتاتاً.

وههنا يتحد البحث عن الزمن المفقود مع البحث عن المكان المفقود، فيصيران بنية واحدة تند عن كل تفكك. وتسبب هذا الاختلاط أو الاندماج،

فإنني كثيراً ما أفسر الآية التي تقول:" مرج البحرين يلتقيان" بأنها رمز لالتغام الزمان والمكان في ملغمة (سبيكة) واحدة.

ومما هو جدير بالتنويه أن التلة التي كانت تمتد قريتنا على سطحها موجودة في الصورة المثبتة على غلاف "تلك الأيام". ولقد ولدت على سفح تلك التلة الشمالي المرئي في الصورة، تحت الذروة بقليل، ولكن في مكان ينحرف عن الذروة إلى الشرق، أو إلى اليسار، بعض الانحراف.

ورأيت في أواخر الفلم مستوطنة لليهود بنيت على الأرض المجاورة لقريتنا. وإنها لتسبي العقل بحسن ترتيبها واتقان عمارتها ونظافة شوارعها وجمال زهورها وأشجارها ونباتاتها بوجه عام. أوَ يعقل، أن للخبث واللؤم هذي الأناقات كلها!؟

وفي قناعتي أنها بنيت على أرض العرب وبالأموال التي ينالها الصهاينة من نفط العرب، وهو الذي ينهبه الغربيون ويقدمون حصة من عائداته للغيتو الصهيوني الذي يسمى "اسرائيل".

إني ليحزّ في نفسي أن أرى أرضنا وقد حرمنا منها وأعطيت لملة حقيرة لا تستحقها البتة، لأنها صارت غنيمة لكائنات أتت من أماكن بعيدة وكثيرة، كائنات لاصلة لها بهذا المكان قط. يا إلهي ! متى تمتليء الأرض عدلاً وخيراً مثلما امتلأت جوراً وشراً ؟

ولكن، فليلاحظ المرء متى انتصر اليهودي. لقد انتصر في زمن الحروب العالمية الطاحنة لعظام البشر، وبعد قنبلة هيروشيما الاجرامية، وكذلك في عصر السفلس والأيدز وتلوث البيئة واستفحال عبادة (مامون) إله المال.

وماذا أنجز اليهودي بعدما استنفر الدنيا بأسرها وحشدها في خندقه أو من خلفه؟ لقد بنى صنفاً من أصناف الغيتو وحسب. أجل، إنه غيتو أحاطوه بجدار عازل. وعندي أنهم لو سيجوه بالجحيم، فإنه سوف يزول من الوجود يوم يكف عن ممارسة القتل والعدوان. هذا هو قدرهم: أن يكونوا قتلة، ليس إلا. وسوف يظلون على قيد الحياة ما داموا قادرين على الفتك بالبشر.

أجل، إنه غيتو طفيف المقدار، لا يساوي قشرة بصلة، كما يقول أهل ضيعتنا حين يريدون أن يحتقروا شيئاً لاقيمة له ولا تأثير.

بين جميع اللذائذ التي أمارسها، ليست هنالك لذة من شأنها أن تبذّ مطالعتي لكتاب أدبي من تلك الكتب التي أغرمت بها طوال حياتي، وبخاصة "الكوميديا الإلهية" لدانتي، وهي التي لم أطالع كتاباً أكثر مما طالعتها سوى القرآن وحده. وفي هذه البرهة النبيلة، أعني برهة المطالعة، أو الالتحام بالمنعش، أشعر بالفخر والاعتزاز لأنني أنتسب إلى الجنس البشري، أي إلى الفصيلة الروحية الوحيدة على الأرض. ولكنني أشعر بالخزي، بل بالعار والشنار، حين أتذكّر أنني أنتمي إلى النوع الذي ينتمي إليه اليهود، وهم من يشبهون البشر بالشكل وحسب.

يقيناً، إننا نحن الكائنات التي تسمى الجنس البشري، لسنا سواسية البتة، وأن الفروق الفاصلة بيننا لهي من التباين بحيث تجعلنا أجناساً مختلفة وليس جنساً واحداً متجانس الماهية أو متشابه الصفات.

يا طفلتي الغالية،

ألم تشاهدي طوال حياتك واحداً ممن يدعون الفن والأدب، ولا سيما الشعر، ولكنه يتكشف بعد التجربة عن كائن خسيس، لعله أن يكون أنجس من إبليس وأخس. فكيف – بربك – يُحشر البشر جميعاً في فصيلة واحدة، أو يُنظَر إليهم على أنهم من جوهر واحد ؟

أما اليهودي حصراً فهو مطفأ الضمير ومفقوء البصيرة. إن ضميره مطفأ لأنه ارتكب من المجازر ما يجعل شعر الرأس يقفّ. ولو لم يكن بغير مروءة وشرف لما فعل بنا تلك الفعلة اللئيمة، أقصد تشريدنا من ديارنا وطردنا صوب كل أفق أو نحو كل اتجاه.

وهو مفقوء البصيرة لأنه لايتعظ بالتاريخ ودروسه المفعمة بالحكمة ولباب الحقيقة، أو لأنه لايرى المستقبل البعيد وما سوف يتمخض عنه من أهوال. فما من قوة ظهرت على مسرح التاريخ إلا وخضعت للتدمير والزوال في نهاية

المآل. أين آشور وروما ودولة الاسكندر المكدوني والدولة الأموية.....؟

لقد انتصبت معظم القوى العالمية الكبرى لتصطف إلى جانب اليهود ضدنا، نحن الشعب البسيط الفقير. ولكن ما يدعو إلى الاستهجان أنه ما من أحد، من أهل الشرق أو من أهل الغرب، قد رأى في هذه الظاهرة، أعني ظاهرة الانحياز العالمي الجنوني لليهود، علامة انحطاط شامل أصاب الجنس البشري بأسره.

حين أنشأتني قوة الانشاء والتكوين، فقد صممتني وفي نيتها أن أكون باحثاً عن الحقيقة. وبالفعل، بحثت وبحثت حتى أصابني الكلل والملل والعياء. ولكنني عبثاً فعلت، وذلك لأنني لم أعثر – سواء في داخلي أو في الخارج الموضوعي المنداح – على أية حقيقة لها أية أهمية أو شأن، عدا الشر المتفشّي في الكرة الأرضية من قطبها الشمالي إلى قطبها الجنوبي. إنه عالم لم يستوعه سوى قلة من الحسّاسين المرهفي الأرواح، ولا سيما البودا والمعري وشوبنهور، وهم الذين أدركوا طبع الأشياء الثابت الراسخ إلى الأبد.

يا طفلتي الغالية،

أرجو أن أراك عما قريب ههنا في دمشق، في أواخر أيلول أو في أوائل تشرين الأول، فلعلي أملك أن أخفف عنك بعضاً مما بك من اضطراب. وفي ميسورك أن تقضي بضع ليال في بيتنا.وإن كنت مضطرة للمغادرة بسرعة فتعالي ذات صباح وانصرفي في المساء. ثقي تماماً بأن شعوراً بالاكتئاب قد هيمن علي حين شرحت لي ماتكابدين من سوء ظرفك الشخصي بواسطة الهاتف، أو أثناء المكالمتين الآنفتي الذكر. وليتك تبلغينني بما يجب علي أن أفعل كي أريحك من كربك وتوترك المرير. يقيناً إنني على أتم الاستعداد كي أنهض بأي فعل من أجل التخفيف من هذا العبء الجواني الباهظ الذي أنقض روحك المرهفة.

أخبريني عن حال أخيك هل هو بخير في هذه الأيام ؟ عساه قد تعافى من

مرضه وعاد إلى سالف عهده ؟ ثم كيف حال زوجته التي تعاني من سوء التنفس. ترى، هل تحسنت ؟ فلعل السداد أن يقال بأن الصحة هي الأس الذي تتبثق منه الحياة البشرية كلها. ولهذا أسألك عنهما، وأتمنى لهما الشفاء العاجل.

ولكن، مع أن وضعك الداخلي ليس على ما يرام، فإن حالك يبقى خيراً من حالي. فأنا أتناول الأكسجين يومياً، صبحاً ومساءً. كما أتناول بضعة أصناف من الدواء دون انقطاع. وربما وصل عددها إلى سبعة أو ثمانية أو زهاء ذلك.

ولي عليك عتب، أيتها الصافية، لتقصيرك بكتابة الرسائل، فلربما تجدين فيها عزاء أصلياً قد يصلح تعويضاً عن هذا البؤس الذي تكابدين يا طفلتي الغالية. فإنك بحاجة لكائن بشري أصلي تلوبين عليه منذ زمن بعيد بين البشر، ولا تجديه.

ليتك تبلغين تحياتي إلى عبد الكريم الناعم وزوجته وأخيه، وكذلك إلى ممدوح سكاف، بل لكل من سألك عني في حمص أو في سواها.

واسلمي لأبي الوليد

دمشق، في ٦/٩/٢٠١٠

الرسالة (٣٣)

عزيزتي غادة،

لقد كان حسناً، بل منعشاً حقاً، أن جئت لزيارتي في بيتي مساء السابع من تشرين الأول الجاري، وبصحبة واحدة من صديقاتك الكريمات (غادة بوبو)*. ومما يؤسفني أنني لم أقدم لها نسخة من آخر كتبي، أعني " الشعر والحساسية"، كهدية متواضعة إكراماً لها على تلطّفها بالزيارة. (كأنني سمعتك تقولين بأنها تكتب الشعر.) وعلى أية حال، فإن شاءت بلغيني وسوف أرسل لها نسخة من ذلك الكتاب، مستعيناً بك، وفقاً للمألوف.

أما أنت فقد سمنت وعبلت على نحو واضح للعيان، واختلفت عما كنت عليه في السنة الماضية، يوم زرتكم في حمص خلال شهر نوار. ولكنك، مع ذلك، بدوت فتية يانعة، بل مشرقة مثل شمس بزغت للتو في صباح نيساني رائق. وإنني لمسرور جداً لأنني رأيتك على خير ما يرام، أو على النقيض من الانطباع الذي تركتْه في مخيلتي المكالمتان اللتان تلقيتهما منك أثناء موجة الحر الأخيرة.

والآن، أتمنى أن تكوني على وئام ووصال مع (ن.ي) كما أتمنى أن تكون بينكما زيارات ودية، فالمسافة ليست بالطويلة بتاتاً وإني لأوصيك بها خيراً.

لقد عبرت تلك المرأة مسار حياتي بين شهر نوار وشهر أيلول سنة ٢٠٠٩، فكانت مثل نسمة باردة تسري إليك في ليلة تموزية حارة، مع أنها ليست جميلة إلا قليلاً، ولكنها تجسيد للعذوبة والبراءة أيما تجسيد. ولو أن تلك البرهة العسلية الهانئة قد جاءت قبل ذلك الزمن بثلاثين سنة، أي وأنا في أوج العمر،

لكانت أروع تجربة في حياتي بأسرها. فمما هو مؤسف أشد الأسف أنها قد وصلت متأخرة، بل جد متأخرة. ومع ذلك، فإنني سوف أَصْدقك النبأ: ما من شيء يبهجني أكثر مما يبهجني اقتناعي بأنني سوف أراها ذات يوم، وأنني حينئذ سوف أحصل على نشوة قد لاتبذها نشوة الابداع والابتكار ناهيك بنشوة الأنبذة والخمور المعتقة.

ولكن، أرجو أن لاتحسبي أنني عشقتها، فأنا في هذه الأيام ميت تقريباً، أو ربما مائت عما قريب. ومن كان مثلي فإنه لايملك أن يعشق البتة. ولكنني استعذبتها كما يستعذب الظمآن جرعة ماء بارد في يوم شديد الحرارة. أجل، استعذبتها إلى حد الدهشة أو الابتهاج بشيء نادر نفيس. ولم يكن ذلك بالصدفة، ففي تلك المرأة ثمة براءة وثمة تلقائية، بل ربما كان فيها عنصر سري لا أستطيع أن أجد له الاسم المناسب.

والآن إلى موضوع آحر.

لماذا لا تكتبين رواية لها محتوى ليس بالتقليدي أو المألوف عندنا.

ما من شيء يثير استهجاني، حتى ولا مليارات المجرات التي اكتشفها علم الفلك الحديث، كما يثيره ذلك التسلط الاستبدادي الذي تمارسه تلك الشخصيات الخسيسة، لكن الفولاذية الإرادة، على الشخصيات النفيسة، لكن العاجزة عن وقاية ذاتها من هجمات المنحطين وميلهم إلى السيطرة والتحكم بمصائر فرائسهم. وفي الحق أن شخصيات البراءة تبدو أحياناً وكأنها مصابة بالشلل أو بالتنويم المغناطيسي.

أليس في المقدور أن تكتبي قصة أو رواية لها هذا المحور، أعني رضوخ الأعلى للأدنى على نحو جارف، بل وهو مسحور أو مأخوذ، أو شعوره بأنه لاحول له ولا طول أمام ذلك المتسلط المنحط ؟ أليس في الميسور أن تضعي نفساً رهيفة في حوزة نفس عنيفة، بل حقيرة وضيعة، ولكنها متينة ومنسوجة من الصلادة حصراً، ولهذا فإنها قادرة على أن تصل إلى أغراضها وأن تودي

بالأولى وتطوح بها إلى التهلكة؟ إن مثل هذا النص من شأنه أن يثير تعاطف الناس مع النفيس المضطهد الذي يذهب ضحية لمن لايساوي قلامة ظفر. أليس هذا الموضوع أقوى وأفضل من الموضوعات التقليدية المستهلكة التي يطرقها كتاب القصة والرواية عندنا منذ أكثر من نصف قرن؟ ألا نحتاج إلى تجديد؟ أليس الموضوع النفسي هو البديل عن هذه الموضوعات التقليدية؟ أما آن الأوان للاشتغال بالموضوع النفسي الذي يعالج الأمور من الداخل وليس من الخارج، أي يحفر في العمق بدلاً من ذلك الكشط الذي نمارسه على السطح؟

في ظني لأن اللذة لا تكون أصلية إلا إذا جاء الموضوع مبتكراً أو فريداً من نوعه. إن علينا أن ندرك الآفة التي جعلت الأدب العربي الحديث شيئاً يشبه السفاسف والتفاهات، أو التجريد الأجرد الذي نظن أنه التجديد. إنها العجز عن الغوص في أعماق النفس، أو في قاع الوجود.

ماذا لو رسمت صورتك؟ التي هي صورة امرأة تستوعب الحب بأصالة، أقصد الحب الروحي الرفيع المستوى والصاعد دوماً باجاه المثال. إنها صورتك أنت.. سيرتك العاطفية ذاتها، إن امرأة تعي ماهية الحب، أو الينبوع الذي تتبجس منه ماهية السعادة، لهي كائن ليس نفيساً وحسب في هذا العالم الفقير إلى كل ماهو نفيس، بل إنها قبل كل شيء كائن نادر، وإنني لأميز بين امرأة تعشق وأخرى تمارس الاتصال الجسدي مع الرجال بحرية لا تقيدها القيود، كما كان حال الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان، التي أحترمها كثيراً لأنها – على غير عادة النساء في البلدان العربية – التزمت بحريتها المطلقة، ثم تجرأت وراحت تمعن في تحديها للمستتبات والسائدات، بل كل ماهو من الفصيلة القمعية، وذلك على الرغم من ضراوة التكاليف. ولقد سردت بعض تجربتها الغرامية في سيرتها الذاتية التي تحمل هذا العنوان: «الرحلة الأصعب» (١٩٩٣).

ولكن المرأة المثالية التي ينبغي أن يبجلها الأدب ليست من هذا القبيل الحر، وإنما هي تلك الملتزمة بحب عميق أصيل يتوجه مدى الحياة إلى رجل واحد تراه يليق بها بوصفه جوهرة تزين تاج الكون. إن فدوى تبقى من الفصيلة

الواقعية، أما المرأة الأحادية المعشوق فهي المرأة المثالية التي قد يتعذر وجودها على الأرض، ما لم يكن ذلك على ندرة وحسب. فكيف إن كانت امرأة تعشق من لم تجُد به الحياة يوماً ؟ رجل الحلم الذي لم يكن إلا في مخيلتها بعد أن خذلتها التجربة ؟

إنها أنت، صورتك، بل أزعم أنها أهم جزء من سيرتك الذاتية الغنية، فلا تتقاعسي عن سردها، يا غادة، إن لم يكن من أجل أي شيء فمن أجل الأدب، وكرامة الأدب.

يا إلهي، لوقدمت صورة سيدة من هذه الفصيلة النفيسة المتعذرة الوجود تقريباً! وليس عليك سوى أن تغرفي من تجربتك أنت. إن قيمة المثال تكمن في أنه ممتع. وما دام كذلك، فلا لزوم لكونه ممكن الانجاز.

وأما ذلك النوع من النساء الذي لاهم له سوى الزواج وانجاب الأطفال، ثم إنفاق العمر – ولا سيما طور الشباب الرائع – في المطبخ، فأنا لا أرى الواحدة منهن أفضل من عنزة تعلف بالتبن والزؤان.

لست لأبالغ إذا ما زعمت بأنك تتمتعين بذكاء خام لايتمتع به إلا الموهوبون، ولكنك أضعت وقتك، أو أن ظروف حياتك العجيبة فرضت عليك أن تتحملي أعباء تنوء بحملها الباهظ قبيلة من النساء، وفي مثل هذه الحال، أي ضياع الوقت في المسؤوليات المنزلية وما إلى ذلك مما ينتسب إلى لحاء الحياة بدلاً من لبابها، فإن العقل يتحاتّ، أو يتآكل، أو يضمر حتى يصير بحجم حبة السمسم.

يا لحظّك السيء يا صديقتي الطيبة النفيسة، فإن الأهم من إضاعة الوقت في المياوم، أنك – باستثناء فشوش هنا وهُزْأة هناك – لم يتح لك أحد، أقصد أستاذاً ضليعاً من شأنه أن يفجر طاقتك النفيسة مثلما تتفجر الينابيع في الربيع، فظلت مادة غفلاً حتى الآن تقريباً. ولست مغالياً إذا ما زعمت بأن الكاتبة العربية ليس لها من داء سوى الزواج والانجاب، فكيف إن صاحب ذلك – كما في حالتك - مصائب، يحق لي أن أنسبها إلى فصيلة المصائب القدرية

التي تسلب العمر وتلقي به في بئر اللاجداء.

أما أنا فقد كنت دوماً أجاهد كي لا أكون سجيناً في المعتقل الكبير الذي يسمى المجتمع. يا إلهي ! ما أشد ولائي للغياب، أو لكل ما لايحضر أمام البصر، مع أن الحاجة إليه ماسة، بل هي تكوي الضلوع من الداخل قبل الخارج. وما من غائب عن بصري قبل الحرية التي هي الحاجة الماسة الأولى لكل إنسان لايريد التخلي عن ماهيته الأصلية. وإنني لا أنظر إلى الروح إلا بوصفها مسغبة دائمة، وإلا بوصفها أرقاً أو قلقاً وتوتراً واضطراباً. وربما أضفت السأم والتقزز والإشمئزاز.

فالحمد لقوة الخلق التي زودتني بالقدرة على الحنين إلى جميع الغاليات اليانعات الغائبات، وكذلك بالرغبة في تسلق السماوات بسلم لا نهائي يصعد صوب الأوج، صوب سدرة المنتهى.

ترى، لماذا أُعنى بك إلى هذا الحد المفرط في الاهتمام؟ ربما لأنني واحد من أولئك الين لايطيقون أن يعبروا قوس الحياة دون أن يتركوا بصمتهم في هذه الدنيا التي أعتقد جازماً بأنها دنية ميمة ولا تعني أيما شيء لأي عاقل. ولهذا، يسعني الذهاب إلى أننا نعيش بفضل اللاعقل وليس بفضل العقل.

* * *

شاهدت في أوائل تشرين الأول، على شاشة التلفزيون، احتفالاً بذكرى المعري. إنه عندي رجل فريد من نوعه في تاريخ الثقافة العربية كله. ويجوز أن ينعت بأنه مخلخل المستتبات ومقلقل النفوس التي كشف لها عما يحيق بها من خلاء خانق. فهو حقاً يذكّرني بالبودا. ولهذا، فإنني شديد الاعجاب بهذا الرجل، بل ما من شاعر عربي يروقني كالمعري، وذلك لأنه يتبنى مبدأ رفض الحياة والإزراء بها والميل إلى إعدامها وإزالتها من الوجود. وسؤالي الآن هو هذا: هل شاركت في ذلك الحفل الجدير بالتقدير ؟ أرجو أن تكوني قد شاركت فيه، لأن هذه المشاركة موقف من الحياة نفسها.

آمل أن تشرفينا بزيارة ثانية، وبصحبة صديقتك إياها. فإن في ذلك مسرة

لفؤادي حقاً.

والآن، أرجو أن تكونوا جميعاً بألف خير. وتحياتي إلى الجميع، ولا سيما الآنسة غادة بوبو، وكذلك إلى الشاعر عبد الكريم الناعم..والشاعر محمود نقشو.

ملاحظة: لم ترسلي لي مقالتك التي نشرتِها في جريدة "النور" والتي حدثتني عنها بعض من قرؤها.

وأوصيك للمرة الألف، ياغادة، يا صورة البراءة المكتنزة في امرأة طفلة في آن، أوصيك بالرواية القصيرة، وبصورة البراءة التي يحاصرها اللؤم الخسيس. فلا قيمة لأدب لا يُعلي قيمة الروح.

واسلمي لأبي الوليد صديقة صدوقة طوال ما بقي له من عمر.

دمشق، في ١٦/ ١٠/ ٢٠١٠

الرسالة (٣٤)

عزيزتي غادة،

تحية طيبة وبعد،

منذ زمن ليس باليسير لم أتلقّ منك أية رسالة ولم أرسل إليك أيما شيء. ماذا، هل نسي كل منا آخره إلى أجل غير مسمى؟ أم هي فترة قد تطرأ على الصلات بين البشر، ماذا، هل استعضت عن الرسالة التي أعيد قراءتها مرات بحديث هاتفي يمضي مع الهواء، ولا يبقى منه مايمكن استعادته إلا على شح؟ ولكن لكي يستأنف الصديقان عادتهما السالفة وما تحتمه من اتصال حميم؟ ومن أجل هذا الاستئناف اللازم فقد بادرت وكتبت هذه الرسالة التي آمل أن تجدد العلاقة وأن تعيدها إلى سالف عهدها.

وعلى أية حال، فأنا مازلت مريضاً وأُلازم المنزل دوماً، فلا أبرحه إلا عند الضرورة القصوى، وذلك منذ شهر آب سنة ٢٠٠٩. وكلما خطر ببالي أنني قد شخت وانتهى الأمر، تذكّرت قول ييتس في إحدى قصائده: «إن رجلاً عجوزاً هو فقط شيء تافه».

ومع ذلك، فإنني مازلت أمارس الكتابة وأواظب عليها ولا أملك أن أفارقها، لأنها هوايتي الوحيدة وعزائي الوحيد. فقد نشرت دراسة عن «الكوميديا الإلهية» في مجلة «الموقف الأدبي» (كانون الأول، ٢٠١٠). حبذا لو أنك تطلعين عليه، فهو جدير بأن يقرأ. ولئن تعذر حصولك على نسخة عنه في حمص، فإن لدي واحدة، وفي الميسور أن أرسلها إليك غب الطلب.

وفي غضون الشهور الأخيرة كتبت مقالين آخرين، أولهما عنوانه «عام النكبة» وثانيهما عنوانه «الأسلوب والأدب والقيمة». أما المقال الأول، وهو

سياسي صرف، فليس نشره بالأمر اليسير، وذلك لأنه سياسي من جهة، ولأنه طويل جداً، من جهة أخرى. وأما الثاني فسوف يظهر في إحدى الصحف عما قريب، وأرجح أنه سوف ينشر في «الموقف الأدبي».

والمقال الأول وثيق الصلة بفلسطين التي لا أملك – حتى لو بذلت قصارى جهدي – أن أتنصل منها، أو أن أكف عن الولع بها، أو حتى الاكتواء بنارها، بل بهمّها الطاحن للروح. فأنا مازلت أحسب ألف حساب لضميري الذي ينهشني بإسراف إذا ما ارتكبت واحدة من أصغر الأغلاط. ولا غلوَّ إذا ما زعمت بأن ضميري يرعبني أكثر مما ترعبني الصهيونية والامبريالية والقنبلة النووية.

وأما المقال الثاني، الذي أكّد على أن الأسلوب الجيد هو بمثابة فداء لعالم أصابته لعنة الجدب والجفاف، قد أشار إلى أن أصل الجودة الأدبية يكمن في جودة السمات الذاتية أو الداخلية. فالإنسان النبيل الروح هو وحده من يستطيع أن يكتب أدباً عظيماً. كما ذهب إلى أن كل وعي هو أساساً وعي الشر والشقاء والعوز والغياب. ولما كانت الحرية هي المفقود الأكبر في هذا العالم العربي المتخلف، فأن كل وعي ههنا ينبغي أن يكون وعي الحرية بالدرجة الأولى. ويلوح لي أن الإنسان ملهوف دوماً على شيء يخص الروح قبل سواها من الماهيات الكبرى، وأن هذه اللهفة هي علامة صحة وحيوية ودليل على التجذر في الوجود الأصلي. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه اللهفة هي الينبوع الذي ينبع منه كل أدب عظيم.

ودون انقطاع كنت أسمع نداء البراءة، وأومن بأنه ما من شعور بالسعادة قط من دون البراءة، أو نظافة العالم الباطني، في مواجهة القذارة التي تلطخ العالم الخارجي، وهو المحكوم بعصابات تتخذ من الجريمة والنذالة حرفة لها. ولا غلو إذا ما زعمت بأن الخساسة تلوح على وجوه قادة الأرض كما يلوح الاصفرار جلياً على وجوه المرضى.

ولهذا جعل المقال الثاني من البراءة أو نظافة الوجدان ينبوعاً كبيراً من ينابيع الأدب العظيم. وقد أكد على أن النص الذي لايبلغ إلى سويداء الفؤاد لايعوّل عليه، وأن النص الذي يبلغ إلى وجدان القاريء، أي إلى سويداء فؤاده وصميم روحه، قد نبع أصلاً من وجدان الكاتب وصميم روحه. وفي الحق أن ذلك المقال جعل من الوجدان كل شيء في عالم الكتابة الأدبية.

عزيزتي غادة،

أرجو أن تصادفكم رسالتي هذه وأنتم على خير ما يرام. كما أرجو أن أراكم كلكم عما قريب، فأنا مشتاق إليكم حقاً، بل مشتاق أيما اشتياق.

تحياتي إلى الجميع، ولا سيما إلى عبد الكريم الناعم.

المخلص أبو الوليد

دمشق، في السادس عشر من آذار سنة ٢٠١١

الرسالة (٣٥)

عزيزتي غادة،

أسعد الله أوقاتك.

أخيراً تمكنت من أن أعثر، ولكن بمشقة، على مجموعة "أنين القاع"، وذلك بعدما حفرت المكتبة لساعات طويلة، وبصحبة جملة من المساعدين الذين آزروني ابتغاء إنجاز هذا الأمر. فقد استنتجت من لهجتك المتوترة أنك تحتاجين إلى إلى تهدئة، وأن جهداً ما ينبغي أن يبذل على الفور. حين فتحت المجموعة اكتشفت أنني كتبت لها تقديماً صغيراً، وهذا هو السبب الذي حال دون أن أكتب عنها زاوية في إحدى الصحف. وأهم مافي الأمر أنني أعدت قراءة تلك القصة إياها. وأنا أملك اليوم أن أؤكد لك ما فحواه أنني حين قرأتها لأول مرة لم أطالعها بسرعة، بل بأناة وتؤدة، وبكل حزم ما زلت أذكر ذلك تماماً.

في الحق أن ثمة بوناً شاسعاً بين الغاية من وصف التغير الذي تعرضين في قصتك هذه وبين الغاية من وصف التغيير الذي أردته في مقالتي المنشورة في الـ«الموقف الأدبي». ما قدمته أنت هو التغير كما شاهدته امرأة شابة تعود إلى المخيم بعدما غادرته لمدة عشرين سنة. أما أنا فقد بينتُ أن هذا التغير الذي طرأ على المخيم خلال السنوات العشرين الأخيرة هو الشرط الشارط، أو هو واحد من الشروط الشارطة، لاختفاء جنازة الشهيد من حياتنا العامة، أي لتوقفنا عن ممارستنا، نحن سكان هذا المخيم حصراً، للصدام الدموي الدائم مع العدو الصهيوني الذي اغتصب الأرض وشرد سكانها تحت كل أفق وصوب كل اتجاه. فأظنك تتذكرين أن مشهد جنازة الشهيد في مخيمنا قد كان أمراً يومياً مألوفاً تماماً، وأن له دلالة خلاصتها أننا نحن الفلسطينيين كنا لانزال مصرين على استرداد أرضنا السليبة. أما اليوم فقد حلت البضائع محل جنازات الشهداء،

وتحولنا إلى "شعب من أصحاب الدكاكين"، كما قال نابليون عن الانجليز.

أنت لم تطالعي رواية "قبر بلا جثة"، وهي التي كتبها شاب من سكان المخيم ربته المقاومة الفلسطينية. وذات يوم اقتنع بأن الحلم الفلسطيني انطفأ، وبأن المقاومة أخلّت بوعدها الذي قطعته على نفسها في مطلع أمرها، والذي تلخصه هذه العبارة الكبيرة في محتواها "وإنها لثورة حتى النصر".

إذن، قصتك، يا عزيزتي، لاتتطرق إلى الثورة الفلسطينية والحلم الجماعي الفلسطيني بتاتاً، كما أنها لاتربط بين الدكاكين التي وصفتها وبين اختفاء جنازة الشهيد من حياتنا العامة. فلا لزوم لهذا التوتر لأنها تختلف تماماً عما دعوت كاتب الرواية الآنفة الذكر للتطرق إليه. ولا لزوم لاتهامي بأنني طالعت قصتك بسرعة، أو لاتهامي بأنني قد غمطتك حقك. ففي الحق أن قصتك لها موضوع وأن الرواية لها موضوع آخر. أنت تصفين التغير لأنه يمثل فرقاً بين الحاضر والماضي، وأنا أطالب كاتب الرواية بوصف للتغير لأن من شأنه أن يوضح لنا السبب الذي جعلنا نكف عن ممارسة الكفاح المسلح. وشتان مابين الشيئين.

وعلى أية حال، فأنني إذا كنت قد نوهت بأن ثمة قصتين بين قصص المجموعة يجوز للمرء أن ينعتهما بنعت الجودة المتميزة، وأن القصص الأخرى ليست لها هذا المستوى نفسه، فإن ذلك كموقف عادي ولا وجود لأية إهانة للبقية، بل هو فقط رفع لقيمة القصتين اللتين نالتا إعجابي إلى حد كبير.

أتمنى أن أكون قد أتيت بما يقنعك ويهدّيء من توترك. وأرجو أن تكون حجتي قوية وكافية لتوضيح الموقف.

ليتكم جميعاً بخير، وليتني أراكم عما قريب.

وتحياتي إليكم دون استثناء

صديقكم المخلص لكم جداً والمشوق

يوسف سامي اليوسف

دمشق، في التاسع من نيسان، سنة ٢٠١١

نماذج من الرسائل

بخط الكاتبين

١

السيدة نادرة اليوسف الفاضلة
تحية تنبع من ينبوع الروح
بعد ليلة مضنية أمضيتها مع صراع ضد المرض،
تسلمت هذا الصباح البارد رسالتك التي لا تحمل
أي تاريخ، ولكم أنعشتني وأنا أطالع سطورها
بأناة وأعيد كلماتها الشديدة الحرارة،
فتمازج دمائي الجانحة للركود وتنبث فيها
الحرارة والحركة والحيوية، بل الرغبة في مغادرة
سرير المرض صوب الحياة الرائعة أو
المنتصرة كما لو فرت. فلا تلوموا إذا ما زعمت
بأنها جاءت بمثابة تعويض منصف عما قاسيته
الليلة الماضية من آلام ترجمت بي طوال
ساعات طويلة مديدة، ولا سيما سوء الشهية
أو الغثيان، الذي يملك أن يحيل العيش إلى
صنف من أصناف الجحيم.
ولهذا السبب حصرًا، أعني لأن رسالتك قد
جاءت بمثابة إغاثة من اللغة، أرجو
أن تكتبي لي دومًا استطعت إلى الكتابة سبيلاً.
ولكم أعجبتني هذه الكلمة التي جاءت في الصفحة
الأولى من رسالتك هذه: ودّ كلنا محكومون
بهشاشة الجسد...
صديقتي الطيبة،
لعل أهم ما لم أدرك أن صحتي ليست على ما
يرام. فلقد أصبت بنوبة قلبية صبيحة السادس

٢

من تشرين الأول سنة ٢٠٠٦، وهذه هي الأزمة القلبية
الثانية، إذ كانت الأولى في التاسع من أيلول سنة
١٩٩٩. ثم أصبت بنوبة ثالثة صبيحة الحادي عشر
من كانون الثاني الذي لم ينته بعد. وهذا يعني أن
المدة الفاصلة بين الأزمتين لا تزيد عن ثلاثة
أشهر إلا قليلاً. وفي المرات الثلاث كلها أُخذت
إلى غرفة العناية المشددة في أحد مشافي
دمشق. وأخيرًا تقرر أن تجرى لي عملية
قسطرة في غضون أيام، أو ربما بعد شهر
ونصف الشهر.
آه من أن عادة مرارة الألم البشري هي شيء مما لا
يُقال، فاللغة تخفق أمامه، بل تنكس أعلامها.
وفي هذه الفترة المكروبة أشعر أنني أمكنني
أن أطور نظرية في النفس تتخذ من معضلة الألم
مرتكزًا لها، بدلاً من تلك النظرية التي اتخذت من
عقدة أوديب نقطة ارتكاز كونت البرهانية
استيعاب جملة قضايا الإنسان. وتستمد هذه
أهميتها من الألم، الذي هو السلف الأكبر في الحياة،
وفقًا لما هي، فقد بت أعتقد حاليًا أن
الصليب هو أعظم رمز صنعته يد الإنسان، وذلك
قبل المسيحية بكثير. أعني الصليب حصرًا أرى
سر النفس ... والإنسان الذي يفضي إلى عمقها،
بالرجوع إلى ذواتنا المكسورة. أما معنى هذا الرمز فهو

٣

أن الإنسان كائن يتألم ويطمح ويتعطش إلى الزوال أيما
ظمأ، وحتى وإن كان معطوبًا.
ولكنني على الرغم من جميع هذه المكابدة المبرحة
بالروح قبل الجسد، قد صممت على أن أنجز المرحلة
الثانية من دون تلك الآلام، وأحسست أنني أقترب
من الجزء الرئيسي ... وأنا أنفصل عنه، أتمكن من
تأمل الحياة والفكر بظواهرها الكبرى، ولا سيما
السياسة والتاريخ والكتابة والنفس، فضلاً
عن تاريخ الثقافة الذي يتيح أن نكتشف أحد
الناس بنزاهة وإنصاف بعدما شوههم
الغربيون بميولهم العنصرية المقيتة. والكتابة
اليوم تأخذ ... بل توشك أن تصل إلى
الطبيعة ... تصدر كما تمت مراجعتها
وتنقيحها كلمة إثر كلمة، وأظنه سوف ينشر
في هذا العام الجاري، وربما في أواسط الصيف
القادم.
ولكن الذي يعزي نفسي أن صديقي لا يتسع لي
بأن أكتب تاريخ الثقافة البشرية، وذلك لكي
أبين ما اقترفه الغرب من الشرور، سواء في
أيام الإغريق والرومان، أو في أزمنة أوروبا
الحديثة. فأنا على المغادرة الآن حتمًا، إذ إن
حسب تقدير الإنسان ... أو السعيد،
أي تمامًا حينما يتمنى ويصبح قادرًا على المزيد الكثير
من الإنجازات ذات الأهمية، ولكنه لا يظل صامتًا.

٤

لشيء بسبب هشاشة جسدي الذي لا يملك
أن يدوم طويلاً في صحة جيدة. وحسبي يكون
جسدي قويًا وشديد القدرة على تحمل التعب،
فإن ذهني لا يكون قد نضج بعد. يا للمهزلة!
وعلى أي حال، فإنني أتفهم ضعفك والقلق
الذي يعتريك ... كما أتفهم محاولتك
الإسعافية وحرصك على ابنتك الموهوبة،
وأؤكد لك تطلعك إلى نشر ما يكتبه، ورغبتك
في توصيل كلماتك إلى المجتمع. ولكنني أتفهم
معاناتك تلك أكثر، وذلك لأنني - وهي
الصادرة من روح صادقة بالعطاء - لا أتفق
... ثم لا تجد من يستمع إليه
... من قلبه وما سار وراءه
منذ أن ... لعل أقسى ما يؤلمك أن تكون
موهوبة ... العالم أسرع ويقوم بالنظر
إليه بوصفه ... أحد أهم ما ينبغي عليه
أن يكون.
وفي حسباني أن عشرين سنة قد مرت على
لقائنا الأخير، ولا ريب في أن كلاً منا قد تغير
خلال هذه المدة الطويلة. ولكنني لا أنسى أبدًا
عما إذا كنت سأعرفك إذا ما التقينا في مكان ما.
وفي الختام، إنني أتمنى أن نتلاقى ذات يوم قريب،
... أصادق ... طيبة في هذه الأيام



[illegible]:

وعندما بلغنا [illegible] مرحلة [illegible]

[illegible] فكنا [illegible] عارفين.

[illegible] الصفحة

والمعززة بالاحترام في آن واحد. فقد كان [illegible]

أيام مقبلة [illegible] طويلة [illegible]

[illegible] العزم

وعلى [illegible] حالة [illegible] الاحترام

[illegible] أول لقاء..

المخلص

يوسف سامي اليوسف

دمشق في

[illegible]

Subject: -أ-

عزيزتي غادة اليوسف الفاضلة،

تحية طيبة وبعد،

لم أتلقَّ منك أية رسالة منذ أكثر من خمسة شهور، إذ إن آخر رسائلك التي مؤرخة بتاريخ الثامن من حزيران (٢٠٠٧) ومع ذلك، فلا ضير في أن أبادرك برسالة بعد هذه القطيعة الطويلة، فأنا أُحب كتابة الرسائل وأرى فيها اتصالاً بالبعيد، أو حواراً مع الغائب. والأهم من هذا أنني أبتهج كثيراً، بل يساورني الشعور بالغبطة والمسرة، حين أكتب إليك خصوصاً. فلقد تركت في ذاكرتي انطباعاً مريحاً منذ ربع قرن أو زهاء ذلك. أو يعقل أننا لم نلتقِ منذ جيل على وجه التقريب؟!

كأني بك قد كتبت بعض المقالات حول الحرب التي دارت في العام الماضي بين حزب الله وبين ذلك الكيان الزائف الذي أسميه عادة باسم الغيتو الصهيوني. وبهذا الخصوص، أود أن ألفت النظر إلى وجوب الكشف عن تلك المفارقة الحادة التي يعيشها ذلك الغيتو، وهي أن الهدف ضئيل حتى درجة العماء، أما الوسائل التي استعملت في سبيل إنجازه فهي من الضخامة بحيث لا يدانيها بل لا تضاهيها ولا تدانيها أية وسائل أخرى بتاتاً. فبريطانيا والولايات المتحدة هما تمنحان فقط من تلك الوسائل الجبارة التي تم توظيفها من أجل بناء ذلك الغيتو العقيم السقيم الذي لا يساوي قشرة بصلة، كما يقول أهل ضيعتنا حين يريدون الإزراء بأي شيء، أو الغض من قيمته وتخفيضها.

ناصع تماماً أن الغربيين قد أفرطوا في لعق أحذية اليهود، دون أي شعور بما يثلب العفة والكرامة. ويبدو أن ضمائرهم قد تجمدت أو تردت بالفعل. وإنني لأعجب أشد العجب حين أراهم يكدّون أنفسهم كالثيران المعلوفة ليحولوا كائنات شائخة شاحبة، ألوانها ممتقعة صفراء. وهذا يعني أن الضحية هي التي تفتدي المجرم وتموت بالنيابة عنه. وبما أن الإنسان الأوروبي أمركي قد تطوع ليخدم يهودياً ذاوياً سقيماً بشيء الطرح، فإنني أخول نفسي كامل الحق في أن أحذّ ذلك الكائن بأنه الموجود من أجل اليهود.

ثم هل أخرج عن سمت السداد إذا ما صرحت بأن جورج بوش، ذلك الإنتهازي الذي لا يحل ولا يربط شيئاً سوى سر حداثة، هو أغبى رئيس لأغبى أمة أخرجت للناس؟ وتحيل إلى أن الإنسان الغربي يوشك أن يخسر تلك الشقفة من الوعي المترسبة في جوف دماغه. وإذا ما خسرها، فإنه لن

A L A D I B A4 Notebook

Subject:

تظل قادرة السنة على أن يدرك ما يفعل. وعندئذ سوف يتحول إلى قوة تدميرية إبليسية، إذا عربدت فإنها لا تتحكم إلا بكمية فقط. فهما لا يخفى حتى على الأطفال أن الغربيين قد جعلوا الأرض كلها صنفاً من أصناف الكربلاء حقاً.

لكم يؤرقني، بل يكربني مما يجري اليوم في العراق وفلسطين وأفغانستان من المجازر والكوارث، على أيدي جنود تلك الأمة الأمركية المأفونة المسعورة، التي يتحكم بها كلب هوسي أهوج سوداوي بالغطرسة والإرهاب وسفك الدماء. وربما جاز الزعم بأنها تمارس الإبادة على البشر لتعوض عن إفلاسها الروحي المريع فلعل من أشأم هذه المصائب التي ينتجها سعار محموم يتحرك بالبراكين أن يختر الدماء في عروق الحاسمين، وأن تجعل الحياة تجربة لا تستحق أن تعاش بسبب ما يأهلها من اللاعقلانية والشرور والآلام الموجعة.

وفي مذهبي أن الشر والألم هما الكلمتان الأسوأ بأن في المعجم البشري كله. ولهذا فإنني أحترم البوذا أيما احترام، فهو الوحيد الذي انبثقت ديانته من الألم حصراً، ولاسيما الفقر والمرض والشيخوخة والموت.

وكثيراً ما أتخيل أنه لا وجود في هذا الكون اللامتناهي لكائنات، وهي الشر والألم وأنا المعتوه بينهما. ولكنني مانع أسند القناعة بأن ما من شيء عظيم وجليل على الأصالة سوى الألم أو الوجع البشري الذي يتغلغل في صميم النفس حتى نواتها القصوى. كما أذهب مع المذهب الرواقي العظيم إلى أن السمة الأولى للنفس النبيلة هي السمو والتعالي فوق كل ما يجري على الأرض، سواء أكان من فصيل الخير أم من فصيل الشر. وعندي أن الإنسان الكبير هو ذاك الذي يزدري الحياة والموت على السواء.

وإني لأعوذ بالماضي من هذا العصر الشرس الذي أراه عصر اللاعمق وحده. وأعتقد بأن ماضي البشرية هو فردوسها المفقود الذي خسرته إلى أجل غير مسمى فلا يليق بالأدوات الرفيعة أن تنتسب إلى هذه الأيام الخالية إلا من الجمال والسلاح والأجل السافي. ففي البداهة أن عصر القتل وسفك الدماء وثقافة البشاعة، في الحال، لا تملك السنة أن تنتج شيئاً من السامريات إلا وفقاً لناموس الاستثناء وحده. ومعظم الذي أنتجه الجيل الأخير من نصوص أدبية لا يميز بدعوى كونه لغواً وهلوسة معقومية وخالية من كلما هو ذو بال وجود لأنه يفتقر إلى نضارة الروح وما يفعمها من أنساغ هي بمثابة الدم لجسم الإنسان.

ولعل المال الذي يؤسس الاستهلاك ويتماهى معه أن يكون السبب الأول لهذه

A4 Notebook

Subject: _٣_ / /

الجرائم وهذا الانضباط الثقافي معاً. نعم، إنه الحال الذي قال عنه أحد الكتاب الغربيين: "دمج الجمال بالجذام الأزرق".

ولأسباب عديدة أرى منذ ودوم إلى الصوفية وإلى الشعر القديم الذي يملك أن يقنع المرء بأن الشاعر روح تغتلي في فضاء اللواعج ويساورها العواطف الإنسانية والألطاف الهنيئة الصافية. وكثيراً ما أتخيل الشاعر القديم وهو يرتدي حلة وشية خضراء أو زرقاء ومعقوفة بالأبيض أحياناً، مما يتناسب مع كائن أثيري رقيق وهادئ. إنه مخلوق تحققت إنسانيته بالمواظبة على توسيع المسافة الفاصلة بين البشر والبشر. فعندما يحن ابن الفارض إلى ربى نجد، أو عندما يغازل سواها من مواطن الحنين القصية الموحية بالشوق إلى عالم الجمال والاتصال، أو تلك الأماكن العزيزة التي تنادينه على نحو حميم، فإنه يبذل جهداً جاداً بغية يكشف شكل فني يملك أن يكثف الحنين الدافع إلى المحال. ولكم كانت الصوفية رائعة حين أوحت بأن التناسم مع الوسيم هو واحد من أفتن المسالك التي يسلكها الإنسان.

ويمثل هذا الموقف الفاخر، أعني الإحساس بالوشائج، برهان العقل لنفسه على أنه لطيفة كريمة، أو سر من أسرار الكون التي لا يعبر لها غور، ولا تقنو لأي تفسير أو تأويل. فمن أين جاء هذا العقل المتضرم الشاسع المداح، والمشع كالكوكب الدري، ليزري بالوجود الذي شرطه وجعل كينونته أمراً ممكناً بالفعل؟ كيف تمكنت هذه المادة الخسيسة الجامدة أن تنجبه، مع أنه هو نقيضها المضاد لهويته تمام التضاد؟ أليس من الغرائب أن يقترن الذهب بنفس الينبوع الذي ينبع منه؟

ولعل مذهب الملاذ بالماضي أن يكون الدافع الذي دفعني إلى رؤية ابن الفارض بوصفه أستاذاً كبيراً في الوجد والشوق، أو معلم الحنين إلى ما يند عن كل شكل من أشكال الاتصال. ولكم هو منحسر ذلك الصوفي الذي يقول:

يحشر العاشقون تحت لوائي وجميع الملاح تحت لوائي

أو يقول في إشارة إلى الحق المطلقة، رمز الحقيقة الكلية:

لها صلواتي في المقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت.

إنها الصوفية التي لا تحقق سيرتها قدر ما تعنى بالوجدان والضمير والاستبطان أو بالقوى الراحمة في العمائم والأغوار.

A L A D I B A4 Notebook

وبفضل قدرة ذلك الشاعر الصوفي على امتلاك السمو النفسي كما تستولد النحلة الشهد من رحيق الزهور وعطورها، فإنني كلما قرأته أشعر بأن الأبدية لن تمحو شعرة الفنين، كما أشعر في الوقت نفسه بوحدة الجمال والسمو والأخلاق، بل بأنهما اسمان لمسمى واحد بعينه. فهل أنت يا أيتها السيدة الفاضلة، مع كثير الحمود القائل بأولوية الأخلاق على الجمال، أم مع أوسكار وايلد القائل بأولوية الجمال على الأخلاق، أو مع ابن الفارض الذاهب إلى وحدة ماهيتهما وامتزاجهما التام؟

ويبدو لي أن هوى مبتعد أسلوبا يكمن خلف شعر ابن الفارض كله. ولهذا قال القاشاني في شرحه للتائية الكبرى، وهو المسمى "كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر": "لا يجوز لك أن تقرأ ابن الفارض إلا بلطف الفؤاد". وأنا أقول لا يجوز لأحد أن يقرأ الشعر كله إلا بلطف الفؤاد. إنني لا أمل من الحديث عن ابن الفارض لأنني أحببته الحب الآسر منذ ذلك لأنه يستجيب للحنين الذي يدغدغ قلبي.

وتحت تأثير الصوفية، فإنني كثيرا ما أشعر بأن جميع أسرار الكون قد دخلت إلى سري وحلت حولي بكل وقار وجلال، ثم راحت تخاطبني بلسان فصيح ومبهج، فتنبعث الطمأنينة في روحي، بل لعلها أن تلج الروح في الرغد الجواني والرفاه الوجداني الرهيف. ولكن هذا كله لا يحدث إلا بفضل الاستعداد الذاتي، إذ لئن لم تشرق نفسك، فإن الشمس حتى الشمس، لن تشرق أيضا.

الجمال أخلاق، والأخلاق جمال. أحسنت يا ابن الفارض، أيها الشاعر الجميل النبيل. وهو يومئ إلى هذا المعنى كثيرا، ولا سيما حين يقول في التائية الكبرى:

هي النفس إن ألقت هواها تضاعفت   قواها، وأعطت فعلها كل ذرة

وفي سواء هذا الحصار، فإن المرء قلما يصادف شيئا من شأنه أن يبهت الروح ذلك الرواء الناعم كالقطيفة، أو الشبيه بالهمس الدافئ الحنون، الذي تشتهي كما تشتهى الزنابق. فحيثما غابت العذوبة حل العذاب، وإذا ما افتقرت الأشياء إلى السلاسة والنضارة، حضر الجفاء، أو تحاضر بل ذواء أو هرم كامد مقيت.

ولئن لم يبصر المرء من داخله أو بلطف عين فؤاده، ووفقا للمذهب الصوفي الذي أراه وقفا على النفوس المطهرة وحدها، فإنه ما من أحد يملك أن يجعله

Subject: ٥

قادراً على أن يبصر بناناً. وفي حسباني أن هذه الفكرة هي المبدأ الأول الذي تنبثق منه نظرية المعرفة البوذية، التي هي ديانة صوفية سوداء وجميلة، والتي هي ديانة سامية أنتجتها العبقرية الهندية الرائعة، أو نسجها اللطف الأزلي النبيل. وخلاصة مزيتها أنها لا تصادر حرية المرء، كما أنها لا تسمح لأحد بأن يلغي شخصيته أو فرديته التي لا تقبل التكرار.

فأنت لا بديل لك، ولا يملك أحد - حتى البوذا نفسه - أن ينوب عنك في أي موضع من المواضع. صحيح أن البوذا الذي نظر تلك الديانة، قد بلغ إلى حيث ترخيم الحقيقة النهائية بالضبط، ومع ذلك فإنّ عليك أنت بدورك أن تخبر تلك الرهة أو المهمة بنفسك، وبواسطة فعل التأمل العميق الذي مارسه البوذا نفسه. ومن أبرز الأدلة على شدة حماسة تلك الديانة ذات الوجدان الحي أنها تنطلق من هذه الحقيقة المؤكدة والتي لا ينكرها إلا المعاند وحده: الشقاء يحايث الحياة دوماً، ولا ينفك عنها دهر الداهرين.

وفي مذهبي أننا إذا ما ابتغينا البلوغ إلى حيث تكمن الحقيقة، وإن تلك حقيقة نسبية، إذ لا أعرف شيئاً صرفاً قط، فإن علينا أن نكون من شيعة الليل، أو من أنصاره وعشاقه، ثم أن نصبّ جلّ اهتمامنا على ذلك العدوى المستتب في السكينة والفضاء. ولعمري، إن هذه هي الصوفية في أدق معانيها، وفقاً لما أتخيل أو أتوهم، أو إن هذه هي صوفيتي المنفردة على وجه الحصر والتحديد.

عزيزتي،

حسبه الكتب إليك أنت، فإن رغبة في البوح، أو في النفح والتضوع، تأخذنا التدفق في فضاء نفسي التي تصير، لرهفها وحيرتها، أشبه بزهرة يانعة في فلك الربيع، وذلك بسبب الصداقة التي كانت بيننا في ما مضى من زماننا. وتحيل إلى ما من شيء نسيه أن يثمر كما تثمر بذرة اللطف الأزلي الذي من شأنه أن يمنح الأشياء فيحيلها إلى هناء.

وفي الحق أنك تخطرين في البال كثيراً، وذلك لأنني أعيش اليوم صنفاً من أصناف النستالجيا، أو الحنين إلى الماضي، في هذا الطور الشائع من أطوار العمر. وفضلاً عن ذلك أراني أعتقد بأنك لو كنت إلى جواري لخففت درجة التوتر الداخلي الذي يصطرع في حتى العياء. فأنا أعرفك جيداً، وأعرف حيويتك الروحية، وكذلك نضارة شخصيتك

A L A D I N A4 Notebook

Subject: ٦

وقوة حضورها المميز الجذاب. ومن ذاكرتها أنها شخصية تملك أن تبهج وتنعش وتخفف من وطأة الاضطراب النفسي الناجم عن سوء الأحوال التاريخية وخشونة الواقع، الذي أتخيل أحياناً أن له جلداً مزوداً بالحراشف الجارحة، مما يجعلني أشعر بأن ظلاماً دامساً كثيفاً خاثراً كالهلام يعشش حولي من جميع الجهات، فيصير الوجود إلى كابوس ما حظ لانفراج له بتاتاً.

أرجو أن تكوني كما عهدتك في غابر الأيام، وأن لا يكون تصرم الأزمان قد التهم منك الكثير. فالزمن يُنسي الأشياء، وما من شيء سوى الفراغ يملك أن يكون له وجود خارج الزمن الذي يجهل العطالة جهلاً تاماً.

ولكن سبب القصد ليس تصرم الأزمان الذي أراه موتاً نسبياً، لأن سبب القصد يكمن في مشوبية الخير والشر بالضبط. فهناك أناس يملكون كل شيء، بينما لا يملك أناس آخرون سوى أسمالهم وسوء أحوالهم. فالفرق شاسع بين الحياة كما هي في الواقع، وبين الحياة كما ينبغي أن تكون، إذا كان ثمة عدالة على الأرض فقط.

ولهذا أراني أذهب إلى أن أدب الجحيم، أو أدب العذاب والاغتراب، أعني الأدب الأسود حصراً، هو أرقى أصناف الأدب. فحيث أجمع الأخبار أتخيل أن التاريخ وأهول مسالخ الجريمة وحسب، وأن مشهد الدنيا بأسرها يقوم في أتون السعير دون أي أمل في الخروج منها على المدى المنظور، بل ربما لم يبق هنالك شيء سوى المذبحة وحدها.

وسلام على حمص، بل على كل من يشرب من نهر العاصي.

المخلص لكم جداً

أبو الوليد

دمشق في ١١/١٢/٧ م

فهرس

الصفحة

الصفحة

من مؤلفات الأديب والناقد الراحل

يوسف سامي اليوسف

١- الغزل العذري ١٩٧٨
٢- ما الشعر العظيم؟ «دراسة» ١٩٨١
٣- ابن الفارض شاعر الحب الإلهي
٤- مقدمة للنفري «دراسة في فكر وتصوف محمد بن عبد الجبار النفري»
٥- مختارات من مواقف النفري
٦- الغيتو الصهيوني
٧- القيمة والمعيار – مساهمة في نظرية الشعر
٨- مقالات في الصوفية
٩- بحوث في المعلّقات
١٠- مقالات في الشعر الجاهلي «لقراءة جديدة في تحليل الشعر الجاهلي»
١١- دمشق التي عايشتها
١٢- تلك الأيام سيرة ذاتية من أربعة أجزاء
١٣- الشعر والحساسية

من مؤلفات الكاتبة

غادة اليوسف

١- رفرفات - دار التوحيدي – حمص ٢٠٠٥
٢- في العالم السفلي (قصص قصيرة) - دار الينابيع – دمشق ٢٠٠٦
٣- على نار هادئة (قصص قصيرة) - دار الينابيع - دمشق ٢٠٠٧
٤- أنين القاع (قصص قصيرة) – دار الينابيع – دمشق ٢٠٠٩
٥- الأحداث الجانحون يتهمون بين جحيم المجتمع ونار القانون – دار الينابيع – دمشق ٢٠١٤
٦- وحدك الآن (شعر) – دار الينابيع – دمشق ٢٠١٤

الطبعة الأولى / ٢٠١٥م

عدد الطبع ١٠٠٠نسخة